إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الخامس

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

إطلالة على التراث

الجزء الخامس

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ

٨١٠,٨ الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله.
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر.
– ط١. – الرياض: ع . ع . الخويطر، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.
مج ٤ : ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مج ٥)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي – مجموعات. ٢ – الحكايات العربية.
٣ – السعودية – المقالات العربية.
أ ـ العنوان.

رقم الإيداع: ٠٥٧٥ / ١٤
ردمك: ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مج ٥)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)

مقـــدمة

هذا هو الجزء الخامس من كتاب «إطلالة على التراث» الـذي جمعت فيـه مـا نشرتـه لي (المجلـة العربية) و (جريدة عكاظ)، من مقالات شهرية في المجلة العربية، وأسبوعية في عكاظ كل سبت. وقد بدأت نواة هذا الجزء - كما نرى - بمقالة (حلم الكبير) في يوم السبت ١٩/ ١١/ ١٤١٤هـ، الموافق: ٣٠/ ٤/ ١٩٩٤م، وانتهى بآخر مقالة في ١/ ٢/ ١٤١٥هـ، الموافق: ٩/ ٧/ ١٩٩٤م.

وقد يسّر الله وأعان فلم يتأخر عن الزمن المتوقع لنشره، آخذاً مكانه بجانب الأجْزاء الأخرى التي سبقته على رفوف مكاتب من أحسن فيه الظن هو ومـا سبقـه مـن أجـزاء. وأرجـو أن يبقـى البـاب مفتوحاً للجزء السادس إن شاء الله.

وهذا الجزء مثل سابقاته في هدفه، وفي منهجه، وفي أسلوبه، وفي الخطة التي اتخذها: يحاول أن

يجذب القارئ إلى التراث بإبراز ما فيه من حسن، وما يحتوى عليه من إشعاع، وما غصت به كتبه من فوائد ومنافع، وما حبره الكتاب في ذلك الزمن من جوانب الحضارة الإسلامية العريقة، وما اقتنصوه من الطرائف المسلية، وما عرضوه من أفكار ذكية، مع عمق في المدلول، والتفاتات فائقة لدقائق النفس، ونوادر الأفعال، وغرائب الصدف.

وهو يدعو إلى العودة إلى هذا التراث للتمتع بالجواهر الثمينة، واللآلئ المضيئة المشعة فيه، وأن يتأكد القارئ أن كثيراً مما فيه مخبأً هو ما بهرهم في كثير من الأحيان في الغرب، ظنًّا أنهم هم من ابتدعه، في حين أن آباءهم المسلمين والعرب هم أهله، وأن الغربيين تبنوه، أو وضعوا أقدامهم على الطريق نفسه بعد العرب بقرون.

وهو يحاول أن يستعيد ثقة الشباب في تراثه، فيكون منطلقه في الخلق والتصرف منه، لأنه هو أصله، وأن لا يفقد شخصيته في تقليد الغرب،

مأخوذاً ببريق زائف، ومبهوراً بمظاهر جوفاء، جاءت بها عجلة التقنية الدائرة بسرعة تفقد المرء توازنه، مما جعل أهل هذه الحضارة الجديدة يعانون خلقياً ما لم يعانه جيل سبق في أي بقعة من الأرض.

إن الانطلاق من أسسنا المحفوظة في التراث يضمن لنا ألا نفقد رونقنا الحضاري، وألا نرخص ما كسبناه سابقاً، مما أصبح هو جذرنا الذي نستمد منه الحياة الكريمة الأصيلة، وهناك أمم استطاعت أن تُبقي عَلَىَ تميزها في الشرق، فلا تذيب مكاسبها في بوتقة الغرب الصاهرة دون رحمة، ولنا بهم قدوة.

و «إطلالة عَلَىَ التراث» في مجمله يرمي إلى معرفة كنه ما جاء في التراث، ويمحص ما فيه، ويبحث وينقب ويقارن، فيثبت ويمحو، ويقبل ويرفض، ويغلي ويرخص، ويطلب من القارئ أن يستعمل ثقافته الحاضرة في هذا ليميز بين ما هو حقيقة وما

هو متخيل، ويعرف قيمة الحقيقة، ومرمى المتخيل، والهدف منه؛ وبهذا يحكم على كل عصر من العصور السابقة حكماً عادلاً مضيئاً، وأن يراعي في حكمه المؤثرات في كل زمن، وتدخلها في مجرى حياة الناس مادة وفكراً.

والكتاب يجمع بين اختيار المعلومات وعرضها في إطارها الفكري، وبين مناقشتها علمياً في مدى ثباتها في مكانها، أو قلقها فيه، بسبب وجود فكرة هي أولى في المكان، زاحمتها هذه ظلماً وعدواناً؛ فيستفيد لهذه الغاية من الحادثة وورودها في مراجع مختلفة، وبصور متعددة، وفي أزمان متلاحقة متتابعة أحياناً.

ولاشك أن التراث مليء بحقائق متخيلة، وقد لا تمت للحقيقة بصلة من حيث حدوثها، ولكنها ذات صلة بحقائق حصلت، أو كان بالإمكان أن تحصل، ولم يبق فيها متخيلاً إلا الأسماء والأماكن، تماماً مثل ما يفعل كتاب القصة اليوم،

في قصصهم المنطقي، الذي لا يغاير ما يحدث في الحقيقة.

والعرب الأوائل على هذا كانوا سباقين إلى هذا النوع من القصص، بل إن سبقهم يعود إلى عصر الجاهلية، سواء ما كان منه على لسان الإنسان أو لسان الحيوان والطير، يشهد على هذا ما دون في تراثهم الذي حرص الكتاب والمؤرخون على نقله، فاخترق الحقب والعصور حتى وصل إلينا، حاملاً صورة متكاملة عما كان يدور في ذهنهم في مجال القصة، وما ترمي إليه حوادثها، وما يقصده الكاتب من سبكها بالطريق التي اختارها.

فإذا ما دلف الشاب اليوم إلى رياض التراث سوف يفاجأ بما فيه مما لم يخطر على باله، مما لم يكن يظن أن أحداً فكر فيه في ذلك الزمن. ويكفيه أن يطلع على المعاجم وأنواعها، حتى أن المحتاج إلى مراجعة شيء عن طريق كتاب منظم مصنف يجده بين يديه معداً. وقد فاجأت هذه المعاجم كثيرين

ممن لم يكونوا يتصورون أن في تراثنا كتباً لا تعطي معلومات ومعاني للألفاظ فقط، بل تعطي مترادفات، تخصصت فيها قبل أن يعرف الغرب ذلك، وهناك معاجم للأسماء والكنى، وأخرى لخلق الإنسان، ومعاجم للنبات والحيوان، وقد جاؤا بها ومناهجها مختلفة، وولدوا من كل معجم معجم، وجاؤا ببعضها على صيغة، ثم أعطوا غيرها صيغة أخرى، حتى أصبحت المعاجم العربية تستحق نظرة خاصة بها.

ولم يترك أباؤنا وسيلة للتثقيف إلا أتوا بها، كل يوم لهم في عصرهم أمر حديث، وكل يوم لهم ابتكار يقدمونه، وقفوا رؤوسهم على التفكير، وأذهانهم على التدبر والتبصر، فكانوا خير مطيعين في هذا لما دلهم عليه دينهم.

ولقد كتبوا في الأدب وفروعه وتفننوا في ذلك، بما لم يسبقهم إليه أحد، فكتبوا عن الشعر والنثر والأمثال والحكم والخطب والرسائل، وأكثروا من

ذلك، ونوعوا، وجاؤا إلى ذلك من زوايا مختلفة، ومناحٍ متعددة، فلا يخطر في بال أحدنا اليوم شيء عن جانب من جوانبه إلا ونجد أنهم قد بادروا إليه، وأعطوه حقه، وأحاطوا بما فيه، بطريق يدل على نضج، وحسن معالجة، وأصبحت انطلاقتنا من حيث وقفوا، لا قصوراً منهم، ولكن تأسياً بهم في الأزمان التي تلت أزمانهم، واحتاجت إلى معالجة مثل معالجتهم، فأخذت خططهم نماذج تحتذى، سواء كان ذلك في الأدب أو في التاريخ، أو في الرحلات. وتأثيرهم في ذلك تعدى إلى الأمم الأخرى، والمتتبع لذلك بدقة يجد هذا واضحاً، رغم الطلاء الذي أضفته طبيعة الأقليم أو الأمة المقتدية.

ولقد كان لهم ذوق فكري متميز، فكانوا لا يرضون بالمعلومات المجملة العامة، وإنما كانوا يغوصون إلى التفاصيل الدقيقة التي تهم مجتمعاتهم، فأدخلهم هذا في مجال تخصص سبقوا

إليه، فكتبوا أوسع كتابة في أضيق المجالات، حتى أن أحدنا إذا رأى العنوان شعر بالشفقة على المؤلف من أين سيأتي له بالمعلومات، وكيف سيوفي هذا الموضوع الدقيق المحدود حقه، فإذا ما بدأ قراءة الكتاب قادته إلى حديقة غناء زاهية بالزهر والثمر، ووجد أن الموضوع يستحق فعلاً أن يفرد له كتاب.

ونظرة عجلى إلى عناوين بعض الكتب المحدودة يجد الإنسان نفسه في وسط ربى عالية من الكم الفائق في هذه الموضوعات مما لا يخطر على بالنا اليوم أنه كان بالأمكان التفكير فيه، بَلْهَ التأليف، فثعلب مثلاً - وعنده فسحة من العقل والوقت - وجد أن ما يقال في مجالس العلماء من أحاديث، وما يدور فيها من جدل علمي طريف، يستحق أن يفرد له كتاب ممتع سماه «مجالس العلماء»؛ والثعالبي لم يكن بعيداً عن هذا التفكير عندما وضع كتابه: «أحسن ما سمعت».

والتدبر والتبصر ومراقبة ما حولهم بفكر

مدقق، وأناة متعقلة. أرشدهم بحق إلى مواضيع تجتذب القارئ، وتعطيه المعلومات بطريقة جذابة، تحمل في ثناياها الفائدة العظمى، دون أن يملّ القارئ أو يسأم، بل إن هذه تجعله يطلب المزيد، لحسن عرضها، وجمال أسلوبها، وانتقاء موضوعها؛ وضمنوا النجاح في تعويد القارئ المبتدئ أن يصبح مداوماً على القراءة، لا يستطيع أن يسلو عنها، أو يهجرها، بل يتطلع إلى المزيد. ومن هذه المواضيع التي ينطبق عليها هذا الوصف المواضيع المبتدعة الآتية: «عقلاء المجانين» للنيسابوري مثلاً، وكتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي، وله أيضاً كتاب «الظراف والمتماجنين»، ويأتي التخصص الدقيق في إفراد «الأذكياء» في كتاب قائم بذاته، ليعدل الكفة مع «الحمقى والمغفلين».

وكان منطلقهم الفائدة دائماً، فإصلاح المجتمع كان أمام أعينهم، وأغلبهم من الفقهاء أو رجال الحديث، أو من في حكمهم، وإصلاح المجتمع

يدخلون إليه من نواح عدة، فليس الخلق وحده هو هدفهم، وإنما تنمية الفكر والذهن يأخذ من تفكيرهم الكثير، فابن أبي الدنيا يكتب كتاباً عن «العقل وفضله»، ويأتي قوله مباشراً، وبعضهم يدخل إلى ذلك من زاوية جانبية، فمثلاً الصولي يكتب كتاباً عن «أدب الكتاب»، والجواليقي يكتب كتاباً عن «شرح أدب الكتاب»، والوزير المغربي عن «أدب الخواص»، أما الماوردي فيأتي به شاملاً عن «أدب الدنيا والدين».

ثم يلتفت بعضهم إلى الحكام، فيكتب ما يرى أنه مفيد لهم، فيكتب الثعالبي كتاب «آداب الملوك» والحاكم أياً كان ملكاً أو خليفة، أو سلطاناً، أو عاملاً على إقليم، هو أهم فرد في مجتمعه، فلا عجب إذا التفت إليه في الكتابة، وتأليف الكتب، والدخول إلى ذلك من أبواب متفرقة، بعضها وصف، وبعضها تأريخ، وبعضها نصح ووعظ، ولهذا جاءت الكتب متعددة،

وعناوينها تنم عما تحتها، فابن الأزرق يسمي كتابه في هذا المجال «بدائع السلك في طبائع الملك»، والماوردي يسمي كتابه «نصيحة الملوك»، والطرطوشي يسمي كتابه «سراج الملوك»، والحميدي يسمي كتابه «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، وابن الفراء له «كتاب رسل الملوك، ومن يصلح للرسالة والسفارة»، وهي التفاتة ذكية من ابن الفراء.

ومن المواضيع الدقيقة التي لم تغب عن عينهم الفاحصة، والتفاتتهم الذكية موضوع مثل التطفل، وصفته، وما يأتي فيه من طرائف، وقد أفرد له الخطيب البغدادي كتاباً سماه «التطفل». وليس بعيداً عن هذه الدقة، وحسن الاختيار ما عمد إليه المقدسي في كتابه «التوابين»، ومثله ابن أبي الدنيا في كتابه «العمر والشيب».

ولمحة ذكية تأتي من البيهقي في اختياره الأضداد ليكتب عنها، «المحاسن والمساوئ» ومثله في هذا الجاحظ في كتابه «المحاسن والأضداد»، «والمحن»

وما يمر على الإنسان منها في هذه الحياة تستحق أن يلتفت إليها، وجاءت الالتفاتة من كاتب مؤهل هو أبو تمام التميمي.

وتعمقوا في دقيق الأمور، فجاءت من فكرهم حصيلة ممتعة.

فهذا ابن الجراح يكتب عمن اسمه عمرو ويستقرئ أصحاب هذه الأسماء فيأتي بالطريف الممتع. ويبدع ابن الجراح عنواناً جديداً لكتاب يحصر فيه بعض التراجم التي يشترك أصحابها في صفات متقاربة.

ومثلما التفت الكتاب للملوك والخلفاء يؤلفون لهم وعنهم التفتوا للوزراء، وهم العضد الأول لهم، فألف الجهشياري كتابه «الوزراء والكتاب»، وألف ابن حيان كتابه «أخلاق الوزيرين»، و «تحفة الوزراء» للثعالبي، وصب كل واحد ما أراد أن يقوله، هذا من وحي ولهدف، وهذا من وحي آخر ولهدف.

ويجل التخصص ويدق، ويأتي الكتّاب بإبداع لم تصل إليه أي أمة في ذلك الزمان، مما جعلهم في موقف بارز نفاخر به، خاصة أننا لم نصل إلى درجتهم، ولم نقدر لهم ذلك، القدر الكافي، فلم نقبل على التراث الذي تركوه، ولم نخدمه الخدمة التي يستحقها، نشراً وتحقيقاً ودراسة، بل إن بعض المستشرقين اهتموا به أكثر منا، وأنفقوا حياتهم في دراسته، ولايزال ما قدموه يحتل الصف الأول من الدراسات الحديثة.

وعندما ننظر إلى ما تركه آباؤنا من تراث وما وصلوا إليه فيه من الدقة والتخصص، نجد أنهم استعملوا فكرهم وكدوه، واستفادوا من وقتهم فما ضيعوا منه دقيقة، وما ورد في الكتب عن عدد مؤلفات بعضهم، وما تخصص به مما يدل على ترف ذهني يجعلنا نخجل من أنفسنا في انصرافنا إلى إنتاج الغرب الذي لا يأتي شيئاً إذا ما قورن بما تركوه لنا، سواء في التاريخ أو الأدب أو النقد أو أمور اللغة.

ومن الأمثلة التي تجد أنهم متعوا بها ذهنهم، وأراحوا فكرهم في أوقات رأوا ما يوجب ذلك، ما كتبه بعضهم من القادرين في بعض المواضيع التي أدهشت من عرفها من الأمم الأخرى، كتاب «البخلاء» للجاحظ، وكتاب «البخلاء» للخطيب البغدادي، وكتاب «البرصان والعرجان» للجاحظ، وكتاب «البغال» له. هذا نوع ونوع آخر ينحو نحواً مبتدعاً، فالسيوطي يكتب عن أشعار النساء في كتابه «نزهة الجلساء»، والاصفهاني يكتب عن «الأماء الشواعر» والسجستاني يكتب عن «المعمرين من العرب»، و «المعمرون والوصايا» تكفل به السجستاني، والثعالبي يمتع القارئ بعد الجد بشيء من الترويح عن النفس بكتابه «اللطائف والطرائف»، و «لطائف المعارف».

والحيوان له حقه من التأليف، وقد جاء ما ألف دالاً على فضلهم في الحصر والاستقصاء، بل وإخضاع المعلومات المستقاه للتجربة كما فعل

الجاحظ في كتابه الفريد «الحيوان»، والدميري أيضاً سال قلمه في هذا المجال بمعلومات ضافية عن الحيوان في كتابه «حياة الحيوان الكبرى». هذا عدا ما جاء عن الحيوان منثوراً في كتبهم، مما لو جمع لأضاف فخراً إلى فخرهم.

وكان تكرار الموضوع أمامهم يلحظ، وسرعان ما يوحي إليهم بفكرة التأليف فيه، وجمع شتات شوارده، وإذا كانت المحن لفتت نظرهم بوقوعها، ودونوا عنها مثل ما فعل ابن تمام التميمي، فإن وقوعها وانجلاءها أوحى للتنوخي بكتابه «الفرج بعد الشدة»، ويتتبع ابن ظفر الأبناء النجباء، فيكتب عنهم كتاباً يسميه بهذا الاسم «أبناء نجباء الأبناء»، ويكتب الوشاء كتابه «الموشّى»، وقد طرزه بأخبار الظرف والظرفاء، ويلحظ ابن هذيل ما بين الأدب والسياسة، فيكتب كتابه «عين الأدب والسياسة».

وينفرد أبو الفرج الأصفهاني بكتاب ضاف عن

الأغاني، ويلج من تفصيل الألحان فيها إلى تراجم وافية لأشخاص برزوا في مجتمعهم في حقل من الحقول، فكانوا في فترة من الفترات ملء السمع والبصر، وجاء فيه بما يكشف عن هذه المجتمعات ما كان منها حسناً وما لم يكن كذلك، فيعطي فكرة وافية عن الحياة في عصور متتابعة.

وعند التمعن في هذا الإبداع نجد أنهم قاموا بما يمكن أن يوصف بأنه معجم للفكر، فما على الإنسان إلا أن يفكر في موضوع مهما كان بعيداً عن الذهن، فيجد أن كاتباً قد وفاه حقه في كتاب.

في هذا الوقت الذي كان فيه آباؤنا يقومون بسياحة فكرية، ورياضة ذهنية، في تأن ورفق، لم يتركوا مرجاً إلا مروا به، ولا روضة إلا شموا نبتها، وتنسموا هواءها العليل. كان الغربيون الذين يخلبون لب شبابنا اليوم بفتات من موائد آبائنا، في سباتٍ طويل، وجهل مفرط، ومن لا يصدق فليقرأ رحلة ابن فضلان.

لهذا أحاول في هذه السلسلة أن أقلب بعض الصفحات من التراث ليتبين ما فيها من ضياء، وما انطوت عليه من درر.

وحاولت في هذا الجزء، كما حاولت في غيره، أن أحاذر الملل، وأبعد عما يثقل على القارئ ، حتى لا أهدم الهدف الذي أقصده، ولا الغاية التي أرمي إليها، ولهذا فإني ألمس النص العميق لمساً خفيفاً، وقد أقلب طرف ستارة لأري بعض بريقه، فلا أتوغل خوفاً من أن يستوحش القارئ .

وأؤمل أن النموذج الذي أعطيته يكون سبباً فيجلب القارئ إلى مدى أعمق في التراث.

ولهذا الهدف حاولت أن أحيل القارئ إلى مراجع قريبة إليه، سهلة المتناول طباعة وثمناً، وأحياناً أذكر للنص أكثر من مرجع، غالباً يكون أحدها من الكتب الجادة، التي تعتبر من أمهات الكتب، وأحياناً من الكتب السهلة الفرعية، وهذه

الطريقة تسمح لمن يريد العمق أن يتابع النص في الكتب الأمهات، ومن لا يريده يتابعه في كتب الفروع المتأخرة. فمثلاً عندما أتحدث عن مادة مثل الشكر،[1] فإني آتي بما يمكن أن يفيد القارِئَيْنِ.

وفي المقالات، بتنوعها، ما يهدي إلى بعض الأهداف والطرق التي اخترتها، وفي كل مقالة هدف أو أكثر يعلن عن نفسه، ويكون في الغالب السبب في اختيار الموضوع، لما توفر فيه من نصوص تهدف إلى ذلك الغرض.

وحيز المقالة في المجلة العربية وفي عكاظ محدود، ولا يسمح بالإطالة، ولو طال المقال فإن الجريدة تعمد إلى تصغير الحرف، وهذا يضيع بعض الفائدة، لأن قراءة المقال ستكون صعبة، وقد تحرم بعض من يعاني من ضعف البصر من قراءتها، وإن فصلت المقالة إلى جزأين، انقطع التتابع، وضاع بعض الفائدة.

---

(١) مقالة الشكر سوف تكون من نصيب هذا الجزء من «إطلالة على التراث» إن شاء الله (ص ٣٢٨).

وقد أبدى أخ عزيز، لرأيه عندي قيمة متميزة، رأيه في قصر المقالة، وقال إنه إذا بدأ يتمتع بها انتهت، وتساءل عما إذا كان هناك طريقة لإطالتها، والاستفادة من نصوص أكثر، ووجدت الحل في أن أضيف إلى ما ينشر إضافة تستجيب لما ارتآه الصديق، وبدأت التجربة في بعض المقالات التي جاءت في أواخر الجزء الرابع، ويبدو أنها نالت القبول ممن اطلعوا عليها، فما دامت قد حمدت فقد وجدت أن من حق الذين حمدوها أن يروا الطريقة التزمت، ما كان إلى ذلك من سبيل.

وقد اتخذت من بعض النصوص منبراً أقف عليه واعظاً دون أن أدري، أو أدري، لأوجه للشباب قولاً أجد أنه من الحق أن يوجه، لأن النص يصرح بأن يتتبع ويطبق، ويأتي من ذلك مقارنة بين من طبقوا النص في زمانهم، ومن أهملوه في زماننا، فالاستفادة من الوقت، وعدم إضاعته في مردود يعود على صاحبه بالنفع، أمر لا يستطيع المرء ألا

ينبه إليه، ومثله التنظيم والترتيب الذي أصبح مهضوم الحق من كثير من الشباب، والتنبيه إلى خوف الله، ومراعاة العاقبة، تجاه الأخطاء، أمور تهدي نفسها مع بعض النصوص، ولا يسع المرء إلا أن يستغل نصاً يضرب على وتيرته، علّ ذلك يجد أذناً صاغية.

وبعض الأمور تعتبر للقارئ للتراث بديهة، ولكن الناشئ قد يحتاج إلى أن ينبه إليها، مثل فائدة التعليل وإعطاء الأسباب أمام القول أو بعده، مما يجب أن يكون ديدن الإنسان، حتى تكون دعواه، أيا كانت، مقبولة، وأن أعطاء الأوامر مغفلة من سببها هي أقرب إلى البدائية منها إلى الوجه الحضاري. وهذا مثل من عدة أمثلة، أجد أن الوقفة عندها من المفيد أن تطول.

وأحياناً أقترب من الموعظة مثل من يقترب بحذر من طائر يراد صيده، أو حية يراد قتلها، أو أرض فيها من الشوك والقتاد ما يوجب السير بحذر،

والخطو بأناة، فأنا أقترب من الوعظ ولا أعظ، وأترك الوعظ للنص، علّه يوحي لغيري ما أوحى به إليّ.

والشباب هو المقصود الأول في هذه المقالات، فهو الذي يوشك أن يكون أبعد عن تراثه، وهو الذي فيه مكسب عظيم إن أدخل روض التراث مبكراً، وحياته أمامه، يملؤها بما أعتقد أنه سيكون سراجاً منيراً في حياته، إذا هو اعتنى، وألقى مراسيه في موانئ التراث، بما فيه من خيرات، لو استطعم منها لأقبل عليها إقبال الهيم الظماء على حوض ماء.

هذه لمحات وهواجس أتت إلى ذهني وأنا أفكر في مقدمة الجزء الخامس، وما لم أقله هنا في المقدمة قالته المقالات في داخل الكتاب.

والله الموفق والمستعان

عبدالعزيز الخويطر

١/١/١٤١٥هـ

٩/٦/١٩٩٤م

حلم الكبير[1]

الحلم من الصفات الحميدة التي تحث عليها الأديان، ممدوحة لنفعها، مبتغاة لفائدتها، تجلب النفع، وتبعد الضرر، تميّز صاحبها بالرفعة، وتملؤه بالرضى، لا يتلبس بها إلا عاقل، ولا يحرم منها إلا جاهل، تحمي المتصف بها من السفيه، وتعفيه من مطاولة الأحمق، يكسب صاحبها، ويخسر معاديها.

والحلم من مكارم الأخلاق التي امتدحها الإسلام، وحث عليها؛ وتدخل في نطاق الآية الكريمة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.[2] ويُروى عن الرسول ﷺ أنه قال:

«إن الله يحب الحليم الحي، ويبغض الفاحش البذيّ».

---

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٢٧) في ١٩/١١/١٤١٤هـ الموافق: ٣٠/٤/١٩٩٤م

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

وقيل:

«ما ذب عن الأعراض كالصفح والإعراض».

لأن من تركته لسفهه. تركك لطلبك العافية، ومن طاولته وكابرته زاد في سفهه ومكابرته، وأصبح ما يأتي منك وقوداً يزيده اشتعالاً ومكابرة ومكايدة.

وكنا في السنوات الأولى من الدراسة نحفظ الأبيات الآتية:

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما
وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن حقر الرجال فلن يهابا

وكنا نسمع يومياً الحديث عن مكارم الأخلاق تفسيراً للآيات، وشرحاً للأحاديث، ورواية للأشعار، والأبيات السابقة لم تكن هي الوحيدة

التي نرددها، وننشدها أحيانا أمام الضيوف، بل كان هناك أخرى لا أزال أذكرها:

إذا نطـق السفيـه فـلا تجبـه
فخير مـن إجـابتـه السكـوت
سكـت عـن السفيـه فظـنّ أني
عييت عن الجواب وما عييت

ولكن هذه الأبيات تكون أحياناً وقوداً للشرّ بين طالبين متنازعين، ينشدها المعتدَى عليه، فتزيد من حنق المعتدي لأنه وصف فيها بالسفيه فيزيد في غلوائه، فيخرج الطالب المنشد عن هدوئه المصطنع، ويهيل تراب الغضب على الطالب الآخر.

والآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا. ﴾(1)

أحياناً تكون مثل هذه الأبيات وهذه الآية مجالاً للاستفزاز، لأن عقول الطلاب لاتزال صغيرة،

(1) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

لا تسمح بدخول مؤدّى هذه الآية إلى نفوسهم بالعمق الذي يردعهم عن الغضب والسفه والمناكفة؛ فيتحدث أحدهم بكلام يشم منه العداء، فيجيبه الآخر بكلمة «سلاماً» عدة مرات، وذاك يعرف في ذهنه بقية الآية، فتتحرك في نفسه كوامن الغيظ، يغذيها الشيطان، ويشعلها نقص العقل، وقلة الإدراك، فيضيع علمنا بالآيات والأحاديث والأشعار أمام صغر العقول، ونقص نضجها في تلك المرحلة.

وقد اشتهر بالحلم، وسعة الصدر، ووفاء الأناة، من إسلافنا رجال سجلت لهم الكتب مواقف اتّسمت بالحلم، تدل على حضارة عريقة في نفوسهم، وعلى رقي في تفكيرهم، وعاطفة نبيلة نحو إخوانهم في مجتمعهم؛ فذاع ذكرهم، واشتهروا بهذه الصفة الكريمة، وضرب بهم المثل، وصاروا قدوة في هذا الميدان، ومثلاً يحتذى، وأصبحوا محل فخر في زمانهم، وما تلاه من

أزمان، إلى يومنا هذا، لأنهم من جنسنا، ونعتز اعتزازاً بالغاً بانتمائنا نحن وهم إلى عنصر واحد، وهو عنصر فاخر.

من أشهر هؤلاء الأحنف بن قيس، وله آراء في الحلم، تدل على أنه يأخذ الأمر عن مبدأ، ويسير فيه على خطة، وله به اقتناع تام، ويجد فيه ملاذاً، يخفف عنه ما يعتقد أنه سوف يكون له مزعجاً لو لم يحلم، لهذا فهو يعتبر الحلم ملجأ دافئاً أمام برودة إزعاج السفهاء.

وجانب من نظرته إلى الحلم يرسمه في قوله الآتي:

«حكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه» [(١)].

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦٣.

وتقديره للحلم، واعتقاده في فائدته، وما يدفعه من شر يتضح في قوله الآتي:

«لقد مرّت علي مئة هنة، كلها أطأطئ لها رأسي، فتجوزني، ولو نصبت لإحداهن لاصطلمتني».[1]

هذه الصورة البديعة المعبرة تحبب في الحلم والحليم؛ إن الأحنف اختار أن يطأطئ رأسه، مع ما في ذلك من مظهر ذلة، في نظر من تأخذهم العزة بالإثم، إلا أنه بهذا تفادى ضرراً أكبر كان بالامكان أن يقضي عليه.

هذه أقوال الأحنف، يشرح فيها منهجه الذي رسمه، وخطته التي حمدها، بعد تفكير ساعدت عليه طبيعته، وهذبته معها تربيته، فقد أشار مرة عندما سئل عن حلمه من أين تعلمه، قال:

«تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري: بينما هو قاعد بفنائه، محتب بكسائه، أتته جماعة فيهم مقتول وقاتل مكتوف.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/٣٦.

وقيل له: «هذا ابنك قتله ابن أخيك».

فوالله ما حل حبوته حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس، فقال له: «قم فاطلق عن ابن عمك، ووار أخاك، واحمل إلى أمه مئة من الإبل، فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرؤ لا شائنى حسبي
دَنس يغيره ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة
والغصن ينبت حوله الغُصن
خطباء حين يقول قائلهم
بيض الوجوه أعفة لسن
لا يفطنون لعيب جارهمُ
وهم لحفظ جواره فطن

ثم أقبل على القاتل فقال:

«قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عددك، لا يبعد الله غيرك».[1]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٠١.

هذه أقوال الأحنف بن قيس، وسنرى من أفعاله أنه طبق هذه الأقوال، وسار على المنهج الذي ذكره، ولم يخرج عن الخطة التي اختطها:

جعل عمرو بن الأهتم لرجل ألف درهم على أن يسفِّه الأحنف، فلم يأل في شتمه، والأحنف مطرق صامت، فأقبل [الرجل] يعض إبهاميه، ويقول: «والله ما يمنعه من جوابي إلا هواني عليه».

إلى أن أراد القيام إلى الغداء، فقال له: «إن غداءنا قد حضر، فانهض بنا إليه إن شئت، فإنك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال».(1)

نصيب هذا الرجل من خطة الأحنف السابقة «البند» الذي يقول: «وإن كان دوني رفعت قدري عنه» ولقد فعل فأحسن.

وقصة معاوية مع الذي وضع يده على كفله مقابل جُعل وُعد به، معروفة، وهي مثل من أمثلة

(1) ربيع الأبرار: ٢/١٨، والأشراف: ١٩١، وأدب الدنيا والدين: ٢٦٢.

حلم معاوية، والقصة كالآتي:

روى الرياشي عن الأصمعي قال: خاطر [راهن] رجلٌ رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد، فيضع يده على كفله، ويقول: «سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند!».

ففعل ذلك، فلما انفتل معاوية عن صلاته قال: «لا يا ابن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل، فخذ ما جعلوا لك، فأخذه».[1]

والمهلب بن أبي صفره حاكم له سؤدد وجاه، يقول حكمة تجاه من شتمه فحلم عليه؛ وما قاله نافذة واسعة تكشف عن النبل الذي يختزنه، والسؤدد الذي تحتوي عليه نفسه، والتقوى التي تحكمه، فهو لا يرد على شاتمه خوفاً أن يتعدى حدود الرد، فيدخل في نطاق ما يغضب الرب سبحانه وتعالى؛ وفكر يقفز فوق نار الغضب إلى برد مراعاة الله خليق أن يسود:

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٥٣.

«شتم رجل المهلب بن أبي صفرة، فلم يجبه، فقيل له: حلمت عنه؟ فقال: لم أعرف مساوِيه، فكرهت أن أبهته بما ليس فيه».[1]

هناك فرق كبير بين المعدنين، معدن الرجل السيىء، ومعدن الرجل الطيب، هذا من وسخ الحديد، وهذا من ذهب صاف نقي، سبحان الخالق، يهب من يشاء ويحرم من يشاء!

والمهلب هذا هو الذي روي عنه القول الصادق الآتي:

«إذا سمع أحدكم العوراء فليتطأطأ لها تتخطاه».[2]

وهذا القول الحكيم يتماشى مع ما سبق أن نقلناه عن الأحنف، والحكمة لا يستغرب أن تزدهر في أكثر من عقل، يتمتع كل منها بالفطنة والذكاء.

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٣٨٠.

(٢) الإشراف: ١٩٢.

والحسن البصري من رجال الدين الخيّرين، وديانته تحكم أعماله، فله فيما ورد في القرآن والسنة من الحث على الحلم، وعلى التغاضي، ما يجعله أول من ينصاع ويمتثل:

شتم الحسنَ رجلٌ وأكثر، فقال: «أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر».[1]

لقد طغت عليه طريقته العلمية، فنسي أنه مشتوم، وراح يقرر حقيقة يريد أن يصدق الله فيها، فقال بعقل علمي إن الشاتم قد قال كل ما يعرفه، لكن ما يعرفه الله من عيوبه أكثر، وكأن المهم عنده هو أن يصدق الله حيال ما قال الرجل، فيصحح له الجانب الذي أخطأ فيه الصواب!

والشعبي في مقامه الديني تعرض للشتم، وتصرف تصرفا حليماً، يليق بمقامه الديني في المجتمع، ولم يسكت وإنما مثل الحسن ردّ ردّاً علمياً هادئاً، وخاطب العقل بدلاً من أن يسل

(١) محاضرات الأدباء: ١٥٦.

سيف العاطفة، أو يسن سكين الانفعال، أو يقذف شظايا الغضب، ولهب السخط:

وقف رجل على عامر الشعبي، فلم يدع قبيحاً إلا رماه به، فقال له عامر: «إن كنت كاذباً، فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي».[1]

لقد أضاءت أشعة الإيمان، وأضواء من العقل، وأنوار من الحكمة في ذهن الشعبي، فرد رداً علمياً، راعى فيه المنهج العلمي السليم، النابع من العقل النير، والنية الحسنة، محاطاً كل ذلك بإطار من الدين؛ فهو تناسى أن الموقف شتم، وذكر فقط أن أمامه نصاً يحتاج إلى تحليل فحلله بمنطق؛ واستغفر الله لمهاجمه، أملاً في ثواب، ونفى عن نفسه التزكية وطلب لنفسه الغفران، فكل حرف قاله كان في سبيل الله، وهذا من توفيق الله.

وله موقف طريف في موقف شتم أيضاً:

انتهى الشعبي إلى قوم في المسجد يذكرونه،

---

(١) البيان والتبيين: ٢/٧٨، أدب الدنيا والدين: ٢٦٢.

فأخذ بعضادتي الباب، وأنشد:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلت[1]

وهذا اختيار حسن للرد على مجموعة، وهي في بيت من بيوت الله، أخذت تذكره بسوء، وتنهش لحمه!

ولمعروف الكرخي موقف يدل على الحلم والأناة وحسن التصرف، أمام من أخطأ في حقه:

«روي أنه نزل دجله يتوضأ، ووضع مصحفه وملحفته، فجاءت امرأة فأخذتهما، فتبعها، وقال: يا أختي، أنا معروف، لا بأس عليك، ألك ابن يقرأ؟

قالت: لا.

قال: فزوج.

قالت: لا.

قال: فهات المصحف، وخذي الثوب»[2].

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢، ١٥٧.
(٢) سراج الملوك: ٤٣١.

وأبو الدرداء يرد على سفيه بتبصيره ما غاب عنه، وهو منحى علمي أيضاً، لجأ إليه أبو الدرداء، لينبه غافلاً، وليَهدي ضالاً، وليكسب أجراً؛ ونظرته توحي بحرصه على ألا يفقده نهائيا، وإنما يدع فرصة لعودته، والنكوص عما هو فيه:

قال أبو الدرداء لرجل أسمعه كلاماً:

«يا هذا لا تغرقن في سَبِّنا، ودع للصلح موضعاً، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه». (١)

ويشرح حليم نظرته إلى سفيه شتمه، ويبرر عدم رده عليه بمثل حي مقنع، لا يحتاج معه إلى كثير شرح، أو تفصيل بيان:

«شتم رجل رجلاً، فسكت، فقيل له، فقال: أرأيت إن نبحك كلب أتنبحه؟ وإن رمحك حمار أترمحه؟». (٢)

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦١.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/٣٦.

ومصعب بن الزبير تبلغ به الرجولة والكرم والحلم غايتها، فيبحث عن قاتل أبيه ليعطيه حقه في مال الله!

حكي عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: «أين عمرو بن جرموز»، وهو الذي قتل أباه الزبير.

فقيل له: أيها الأمير، إنه قد تباعد في الأرض.

فقال: أو يظن الجاهل أني أُقِيده بأبي عبدالله، فليظهر آمناً ليأخذ عطاءه موفراً.

فعدّ الناس ذلك من مستحسن الكبر». [1]

هذا تصرف قائد عظيم في خُلُقه، لا يعفو عن قاتل أبيه في معركة سابقة دارت رحاها، واشتد أوارها، ولكنه يطلبه ليعطيه؛ لقد غلب بهذا مصعب نفسه مرتين.

وهناك قائد آخر، أبدى من الحلم ما سُجِّل له باعتزاز وفخر: «أسمع رجل ابن هبيرة، فأعرض

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦٢.

عنه، فقال له الرجل إياك أعني. فقال له: وعنك أعرض».[1]

وابن القعقاع له موقف مع سفيه قال فيه قولاً حكيماً، أخذه من قول السفيه، فقلب الباطل فيه حقاً، والقبيح جميلاً، والشر خيراً، وأخذ مكانه في النور الساطع، وعدوه في حلكة الظلمة:

«حكي أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشراً. فقال له ضرار: والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة».[2]

لقد أخمد ضرار حماس الرجل، وخيب ظنه، وفاجأه بما لم يكن له بالحسبان، جاء الرجل مستعداً تضرس أسنانه، فألفى غير ما ظن، ووجد غير ما أمّل، وخاب معه أمل الشيطان.

ـ[3] وعمر بن عبدالعزيز له قسط راجح في الحلم، وقد أبان طرفاً من مبدئه في ذلك عندما أراد

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦٢.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٢٦٤، وربيع الأبرار: ٢/ ٣٤.
(٣) من هنا يبدأ الجزء المزاد على ما ظهر في عكاظ.

رجل أن يستفزه:

«أسمع رجل عمر بن عبدالعزيز كلاماً فقال عمر: أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً، انصرف رحمك الله».[1]

لقد لمح عمر بثاقب فكره، وقوة إيمانه، وصدق حدسه، وحبه للخير، وبعده عن الشر، الشيطان قابعاً خلف الرجل يحثه على الخطأ، وأمل الشيطان أن يلعب على الاثنين، فخيب عمر أمله، ونبّه الرجل إن كان له لب، فارعوى.

وعرف عن المأمون حلمه، وقال عنه عبدالله بن البواب: «كان المأمون يحلم حتى يغيظنا في بعض الأوقات».[2]

«وكان المأمون ينتقل من حالة [الغضب] التي هو فيها إلى حالة غيرها، فيزول عنه الغضب بتغير

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦٩.
(٢) أخبار الظراف: ١٠٩.

الأحوال، والتنقل من حال إلى حال» .[1]

وهذا تلمس من المأمون لما يساعده على نفسه عند الغضب، حتى ينقلب ذلك إلى حلم وعفو؛ وتلمس الأسباب لإرساء مركب الخير دليل النفس الخيّرة، الميالة إلى ما هو طيب وجميل، وإتجاهٌ هذه هي طبيعته لابد أن يصل إلى ما رجا وأمل.

وكان ذنب عمه إبراهيم كبيراً، ولكن المأمون تغاضى وعفا:

قال المأمون لإبراهيم بن المهدي: «إني شاورت في أمرك، فأشاروا عليّ بقتلك، إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت القتل للازم حرمتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عودته من العفو؛ فإن عاقبت فلك نظير، وإن عفوت فلا نظير لك» .[2]

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦٨.

(٢) أدب الدنيا والدين: ٢٦٩.

في مثل هذا الموقف يُشاوِرُ غيرُ الحليم، ليلتمس الأعذار في القتل، وليكسب أصواتاً في جانبه، تشاركه مسؤولية القتل؛ أما المأمون فيبدو أنه كان يتلمس ما يقنعه بعدم القتل؛ إن الأمر كما قال إبراهيم هو ما تقتضيه السياسة، وهو: «الاّ يجتمع فحلان في قطيع واحد»، خاصة بعد أن يكون المنهزم قد هدر.

ورغم أن من حول المأمون أشاروا بالقتل لرجحان الحكمة في هذا، وما يقتضيه العقل، وتتطلبه السياسة، إلا أن المأمون ترك ذلك جانباً، وراح يبحث عن الأسس التي يمكن أن يبني عليها عفوه باقتناع، فوجد ذلك في وزن إبراهيم ومقامه، عمه، وجعل هذا في كفة الميزان، وجعل الذنب في الكفة الأخرى، فشالت كفة الذنب، ورجحت كفة القرابة والمقام، ثم زاد على كل ذلك ما يرجح الكفة أكثر فأكثر، حرمة عمه وحقه، فلقحت بذلك فضيلة العفو في نفسه فعفى.

والحكمة سراج وهاج في نفس من وهبها الله له، فهو يرى ما لا يرى الناس، ويسبر أغوار الأمور، ولا يكتفي بظواهرها، وهذا ما يقود الحكماء إلى الحلم مثل ما ذكر الأحنف وغيره في أثناء شرحهم تفضيلهم الحلم لأنه أسلم. وهذا حكيم يمر بموقف يتصرف إزاءه بحكمة متناهية، لا يستطيع مقابلة أمثال موقفها إلا من أوتي الحكمة، وحسن التصرف:

«سمَّعَتْ [شهّرت وفضحت] ببعض الحكماء امرأة وهو صامت، فاشتد غيظها من سكوته، فصبت عليه غسالة الثياب على رأسه، وعلى كتاب نفيس في يده.

فرفع رأسه وقال:

«رأيتك من زمان تَبْرقين وترعدين حتى أمطرت الساعة».[1]

لقد كان هو الذي صب عليها ذنوباً من ماء،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٠.

ولابد أن هذا بَرّد غيظها!

ومن كثرة القصص التي تروى عن الغلمان، وتعمدهم إغاظة أسيادهم، يجد المتتبع لهذه القصص أنها كانت أقرب إلى الظاهرة في ذلك المجتمع، ويبدو أن العلاقة بين الغلام وأسياده تجعل مثل ذلك متوقعاً، فالغلام يتطلع إلى الحرية، ويتذمر من العمل، ولا طريق له لإرضاء نفسه إلا الكيد لأسياده وإغاظتهم:

«كان لبعض النساك شاة، فرآها على ثلاث قوائم، فقال من فعل هذا بها؟

فقال غلامه: أنا.

قال: لِمَ؟

قال: لأغمك بها.

قال: بل لأغمن مَنْ أَمَرك بها، إذهب فأنت حر». (١)

وابن عون له قصة حلم مع غلام له:

(١) سراج الملوك: ٤٣٣.

«كان ابن عون إذا غضب على إنسان، وبلغ منه قال: بارك الله فيك. وكانت له ناقة كريمة عليه، فضربها الغلام فأندر عينها، فقالوا: إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم. فقال للغلام: غفر الله لك»[1].

تُرى ما هي الأفكار النبيلة التي دارت في رأس ابن عون، قبل أن يقول كلمته هذه؟ لابد أن الله سبحانه وفقه إلى ما يجعل هذا الأمر الصعب ظاهراً سهلاً عليه باطناً.

وأبو ذر صحابي جليل، وأَحْرِ أن يأتي منه ما يتماشى مع خلق الإسلام، وأن يدحر الشيطان عند الغضب، فيحسن من حيث أريد له أن يسيء، ويصفح من حيث أريد له أن يعاقب

«قال أبو ذر لغلامه: لم أرسلت الشاة على علف الفرس؟

قال: أردت أن أغيْظك.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٦.

قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى». [1]

لقد كان إبليس يرقص فرحاً وهو يرى الغلام ينصاع لإغوائه ليغيظ أبا ذر، وكان طرباً لنجاحه، وظن أنه قبس النار، وأنها عن قريب سوف تأتي على الأخضر واليابس، وتحطم السليم، وتفسد الصالح، ولكن إبليس فوجئ بما لم يكن في حسبانه، وخسر خسراناً مبيناً من الطريق الذي ظن أنه كان سيربح منه ربحاً مضاعفاً، ويصيد صيداً سميناً.

وختام مسك قصص الحلم تتمثل فيما أبداه الرسول ﷺ، وهو رسول الرحمة، ومعلم مكارم الأخلاق، فلا غرو أن يكون عمله في هذا المجال متميزاً، وأن تكون فيه القدوة الحسنة؛ وقصصه في الحلم لا تكاد تحصى، خاصة مع أجلاف الأعراب من البادية، ومن سفهاء المشركين في المدن،

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٣٧.

والمنافقين في المدينة.

«كان النبي ﷺ في بعض أسفاره، وعليه رداء نجراني، غليظ الحاشية، فجبذه أعرابي وقال له:

«يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي آتاك، فلست تأمر لي بمالك، ولا بمال أبيك».

فالتفت النبي ﷺ وقال: «مروا له».

ولم يكلمه كلمة.

وقيل فالتفت إليه، وهو يضحك، ثم أمر له بعطاء»[1].

جلافة الأعرابي جعلته يرمي بكل ما عنده بصلافة ونزق، وكان بإمكانه لو كان مهذباً أن يترك بقية الحِجَاج والجدل إلى أن يحتاج إليه، فيما لو جَادَلَه الرسول ﷺ، وقد قدّر رسول الله ﷺ حاجة الرجل، وصرف النظر عن طريقته وأسلوبه، بل لعل هذا أضحكه.

---

(١) سراج الملوك: ٤٢٩.

وللحلم مقياس عند بعض الحكماء، يعرفون به الحليم من غيره، فلا يغترون بما يظهر على بعض الناس منه، ولا يحكمون على أحد قبل أن يعرضوه على هذا المقياس، ومقياس لقمان الحكيم هو:

«إذا أردت أن تؤاخي أخا فأغضبه، فإن أنصفك وهو مغضب فآخه، وإلا فاحذره» .[1]

وأنت بهذا تختار الموقف الذي تنطلق منه لتختبر من أردت أن تعرف مدى تحمله، وهل ما يبديه من حلم أصيلٌ أو مصطنع.

وقد قال شاعر قولاً يتفق مع ما قاله لقمان الحكيم

ليست الأحلام في حال الرِّضَى
إنما الأحلام في حال الغضب

وقال شاعر آخر، مؤكداً هذا:

من يدّعي الحلم أغضبه لتعرفه
لايُعرف الحلم إلا ساعة الغضب[2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٨.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٦٥.

«وبلغ من إعجاب الشعبي بالبيت الأول أنه كتبه على ظهر أَخْضَرِ كتابٍ، ليكون نصب عينيه». [1]

وليس هذا هو الشعر الوحيد الذي ساهم في أمر الحلم، وتكلم عنه في جانب من جوانبه، ولكن هناك ما كان مدرسونا حريصين على معرفتنا له، وتشرب تعاليمه، والسير على النهج الذي يختطه:

سأُلزم نفسي الصفح عن كل مذنب
وإن كثرت منه إليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة
شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره
وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فأحلم دائبا
أصون به عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا
تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٣٤.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٢٦٣.

والغضب عدو الحلم، ومخالف له، ومجانب لطريقه، فالحلم برد وسلام، والغضب نار ملتهبة، وجحيم مستعر، وقد أرشد الرسول ﷺ إلى طريقة إخماد هذه النار، فقال:

«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[1].

وقد أعطى ﷺ تسلسلاً عقلياً مقنعاً، يبين أُسَّ الغضب، وخير الوسائل للتغلب عليه، وما ذكر عنه، يُكَرِّه فيه، ويقنع بتفاديه.

هذه عجالة عن الحلم، لمست بعض الجوانب التي تطرق لها التراث، ورسم لها بعض الصور، التي تحبب في الحلم، لما بينته من منافع، وما كشفته من أضرار في عدم التحلّي به.

والتراث مليء بالقصص التي لا تكاد تحصى، والحلم لأهميته في بناء المجتمع السليم حرص

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٣٠.

الأدباء على إفراد باب متكامل له في كتب الأدب والثقافة، وجاء ما فيه مفيداً، يكمل أبواب مكارم الأخلاق، ولا غنى للمتأدب من الاطلاع على ما جاء منه مفرداً في باب، أو مبعثراً في أبواب.

حسن التعليل[1]

التعليل حركة فكرية، تسمو بسمو الفكر، وترتقي بارتقائه، فإن اعتلى الفكر اعتلت باعتلائه، لأنها من إنتاجه، وإن انخفض انخفضت.

والتعليل يسمو بالعلاقة بين المتكلم والسامع، لأنه السند لما يقال، ومصدر التدليل على الدعوى، ويوحي بالأعتناء من المخاطِب إلى المتلقي.

فالتعليل بهذا يزيد الثقة بما يقال، ويؤكد الاطمئنان، ونجاح الأقوال والأعمال يتوقف على هذه الثقة، وبدونها يَحِلّ شكٌّ قد يقف حجر عثرة في قبول القول، وتنفيذ ما قد يترتب عليه من عمل.

لهذا أعطي للتعليل قيمة، تزيد هذه القيمة بقدر قوته، وبقدر قوته تزيد القناعة به، وبقدر

---

(١) نشر أولها في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٣٤) في ١٤١٤/١١/٢٦هـ الموافق: ١٩٩٤/٥/٧م

هذه القناعة يسير القول، ويفلح الفعل.

وتزيد أهمية التعليل، ويقوى الإلتفات إليه، مع الدهشة أحياناً أو التعجب أو الأعجاب، أو هما معاً، ويبعد هذا المتعجب في الدهشة إذا جاء التعليل ممن لم يكن يتوقع منه ذلك، بأن كان المعلّل مجنوناً أو صغيراً، مثلما حدث لرجل سأل غلاماً أعرابياً سؤالاً أدهشه جوابه، لصحته وصدقه، رغم صغر سنه، وما في الأمْرِ من اغراء، قابلته مقاومة شديدة:

قال الأصمعي: «قلت لغلام حدث من أولاد العرب: أيسرك أن يكون لك مئة ألف درهم، وأنك أحمق؟

قال: لا، والله.

قلت: لَمَ؟

قال: أَخاف أن يجني علي حمقي جناية تذهب مالي، وتبقي علي حمقي».[1]

(١) أخبار الظراف: ١٨٢.

هذا تعليل حسن، لأنه نتاج فكر صاف، وذهن ناضج، ولم يورده الأصمعي، أو يُروى على لسانه، إلا لأنه جواب معجب ومدهش، ولو قاله رجل كبير السن، عارف بالحياة، مجرب لها، لما التفت إلى كلامه، فالقول الحسن يقاس بمقاييس مختلفة، وليس بمقياس واحد، في معزل عما يحتويه الإطار العام قريبه وبعيده.

ويُلتمس التعليل الحسن في وقتٍ السامع في أشد الحاجة إليه، لأنه يأتي مثل الدواء لبعض الأدواء النفسية، التي قد تكون أشد من الأدواء العضوية، لوضوح أسباب هذه، مما يسهل علاجها، وصعوبة علاج تلك لعدم وضوح الأسباب فيها.

والتعليل الحسن تزيد أهميته إذا كان يزيل هم خليفة مثل معاوية بن أبي سفيان، وهمه جاء من أسنانه التي هي واجهة وجهه، وأول ما يقابل الناظر إليه، وعليه يتوقف تشكيل الفكرة عند الوافد، يعضد هذا النقصَ الخللُ الذي يتبع

المنظر، وهو سوء النطق مما يسبب سوء الحديث، وعدم سلامة الفهم، ويبدو أن الأمر قد بلغ لدى معاوية منتهى انشغال الذهن، لأنه ورد فيه قصتان، تحكيان حادثتين في مجلسين مختلفين عن أسنان معاوية.

ويبدو أن أمر الأسنان للخلفاء في ذلك الزمن إذا وقعت يصبح شغلاً شاغلاً لهم، فعبدالملك فيما بعد عندما عضد أسنانه بالذهب، إحتاج أن يعلل لذلك.

وقصة معاوية مع أسنانه تتمثل في الآتي:

«دخل رجل على معاوية، وقد سقطت أسنانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأعضاء يرث بعضها بعضاً، والحمد لله الذي جعلك وارثها، ولم يجعلها وارثتك»[1].

مثل هذا الرجل، صاحب مثل هذا العقل، يجب أن يكون جلساء الخليفة، فهذا التعليل لابد

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٣٤١.

أنه صرف ذهن معاوية من ألم المعاناة إلى لذة العزاء، ومن انشغال الذهن إلى راحته، والرضى بالقضاء، وقبول ما يأتي من الله، وأن ما جاء هو خير من شيء آخر أشد على الإنسان منه، والخليفة انشغل ذهنه بمشكلته، ولم يُدِر الأمر على جميع أوجهه، ولكن جليسه التفت إلى ما لم يلتفت إليه الخليفة، لأنه أصلاً أتجه لما يخفف عنه، وتلمس الأوجه لذلك، فوجد بغيته، وجاء بالقول المريح، وقوله موعظة متكاملة.

ويأتي جليس آخر، ويقول قولاً صائباً، فيه تعليل حسن، وتنبيه للخليفة إلى النعم التي لا تزال باقية له، يهون بجانبها ما فقد من أسنانه:

«سقطت مقادم فم معاوية، فشق ذلك عليه، فقال له يزيد بن معمر السلمي:

والله يا أمير المؤمنين، ما بلغ أحد سنك إلا أبغض بعضُه بعضاً، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك»[1].

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦١.

وعمر بن عبدالعزيز خليفة صالح، يشغله أمر العثور على عمال صالحين، وإلى قضاة عالمين عادلين؛ وما يعرفه منهم قليل، لا يبل عطش الصادي، ولا يسعف المحتاج، فالتفت إلى مصدرٍ أمّل أن يجد فيه بغيته، مصدر علم وخلق، وهو الحسن البصري، ولكنه لم يجد عنده ما طلبه، وإنما وجد عنده عذراً وراءه تعليل حسن، هو نتاج عقل ناضج، يصف الواقع كما هو، دون تزويق، ولا تحسين قبيح:

«كتب عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - إلى الحسن البصري:

«أعنّي بأصحابك».

فأجابه الحسن: من كان من أصحابي يريد الدنيا فلا حاجة لك فيه، ومن كان منهم يريد الآخرة فلا حاجة له قبلك؛ ولكن عليك بذوي الأحساب، فإنهم إن لم يتقوا استحيوا، وإن لم يستحيوا تكرموا». (١)

---

(١) البصائر: ٢/٢٦.

إن عمر أصاب بالتفاتته إلى الحسن، ومحاولة الاستفادة منه في أمر أهمه، فهو وإن لم يجد عنده بغيته كما أمّل، إلا أنه لم يعدم أن يستفيد منه في أنه دلّه على وسيلة تجزيه فيما طلبه، وتسعفه فيما ابتغاه؛ لقد فتح له نافذة واسعة، فلم يكتف بأن قال: «عليك بذوي الأحساب» وإنما علل لذلك، وجاء بالأسباب التي على أساسها اختارهم، وهو تعليل حسن، فهذه القصة احتوت على تعليل حسن في الاعتذار عن الاستجابة للطلب، وتعليل حسن آخر في عرض بديل صائب.

إن عقل عمر بتوفيق الله هداه إلى عالم جليل يضع على عاتقه حمله، وكانت هذه الخطوة صائبة، إذ لم يأته من ذلك إلا الخير، وهل يأتي من عالم جليل إلا الخير.

والحسن وافق في قوله هذا رأي السلف الصالح في أن ذوي الأحساب يمكن أن يطمأن إليهم في مثل هذه الأعمال المهمة.

قال عمر بن الخطاب:

«لا تستقضين إلا ذا مال وذا حسب، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس».[1]

وقد يكون الحسن سمع بقول عمر هذا، فاستفاد منه لينصح به عمر بن عبدالعزيز، أو أن هذا هو الأمر السائد في ذلك الزمن، فلم يزد عن أن ذكر به الخليفة، أو أنه وصل إليه بعقله الصافي، وتفكيره السليم.

ويرى الناس يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ومقامه معروف بين الناس، وما حباه به الخليفة من مكانة جعلته أحد الولاة البارزين، ولكنهم لا يرون له بيتاً خاصاً به، فيعجبونَ من ذلك، لغرابته، ومخالفته المعتاد مما سار عليه بقية الولاة في ذلك الزمن، ويتقدم أحدهم بسؤال إليه، ويحاول معرفة أسباب ذلك، فيرد عليه المهلب رداً يحمل

(١) تاريخ القضاة: ١/ ٧٦.

تعليلاً حسناً، وحجة قوية، وقولاً منطقاً:

«قيل ليزيد بن المهلب:

لِمَ لا تبني بالبصرة داراً؟

فقال: إني لا أدخلها إلا أميراً أو أسيراً؛ فإن كنت أسيراً فالسجن داري، وإن كنت أميراً فدار الإمارة داري» .[1]

ويلجأ رجل فقيه إلى حيلة غريبة، تلفت النظر لشذوذها، وعدم وضوح المبرر لها، خاصة وأن فيها مخالفة للدين واضحة من جهتين: الأولى القسوة على الحيوان التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، والثانية تدخل فيما لا يجب أن يعمله الحاج أو المعتمر، وهذا الرجل الفقيه محرم رؤي يطارد يربوعاً دون سبب، واليربوع غير مؤذ، ولحمه لا يسمن ولا يغني من جوع، ومطارته من محرم وقتله تدهش الناظر، وتجعله يستغرب مثل هذا الفعل، ولهذا لم يصبر الجمال وهو خير من يدرك

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣١.

مثل هذا الخطأ، فسأل الجمالُ عن أسباب فعلته، وهو الفقيه العارف بمثل هذا الخطأ؛ وهذه هي القصة:

«كان رجل من الفقهاء في طريق مكة، فرأى، وهو محرم، يربوعا، فرماه بعصا كانت في يده وقتله.

فقال الجمال: ألست محرماً؟

قال: بلى، وما كانت بي إلى رميه حاجة، إلا أنْ تعلم أن إحرامي لا يمنعني من ضربك». [1]

تبين أن وراء هذا الفعل مبرراً وجيهاً في رأي صاحبه، المرتكب له؛ لأنه يبدو أن سوء الخلق أمر ملازم للجمالين، فأحب هذا أن يطبق قاعدة العرب في أن: «يضرب الثور حتى تشرب البقر».

وأن يجعل الجمّال يحذر، ويتعظ بالساق الحمراء، اقتداء بالثعلب الذي أحسن القسمة خيراً من الذئب في قصتهما مع الأسد.

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٤٠.

هناك اتفاق في سوء الجمالين في ذلك الزمن، وقت الحج والعمرة حتى أن الأعمش يقول:

«من تمام الحج ضرب الجمّال».[1]

ويأتي تعليل حسن من أعرابي سئل عن ظاهرة لفتت إنتباهه إلى ما يفعله الأعراب إذا قُدِّم لهم اللحم والثريد، فإنهم يقبلون على اللحم ويتركون الثريد؛ فكان الجواب صادقاً، والتعليل حسنا:

«قيل لأعرابي: ما لكم تأكلون اللحم، وتدعون الثريد؟

فقال: لأن اللحم ظاعن، والثريد باق».[2]

هم لا يقدمون اللحم إلا في مناسبات معينة، لأن الحيوان رأس مال ثمين، ولا تجود به أنفسهم إلا إذا دخل ضيف، أو جاء عرس، أو حل عيد، أو ولد مولود، أو ما إلى ذلك من المناسبات النّادرة، ولهذا فهو نادر الوجود، أما الثريد

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٤٠.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٩.

فقريب المتناول، وموجود في أغلب الأحيان؛ ولهذا فجواب الأعرابي في محله، وتعليله مقبول.

ويأتي تعليل حسن من أعرابي سئل سؤالاً جوابه يكشف بمنطق عن حقيقةٍ مخبأة:

قال العتبي: قلت لرجل من البادية:

يا أخي إني لأعجب من أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا، وعوامّكم أظرف من عوامّنا، ومجانينكم أظرف من مجانيننا.

قال: وما تدري لِمَ ذاك؟

قال: لا.

قال: من الجوع؛ ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لخلو جوفه!». [1]

والعتبي هنا لاحظ أمراً بناه على استقراء طويل، وملاحظة متأنية، وكان فيه محتاراً، لا يعرف له سبباً، ولا يجد له تفسيراً، ولأن الأمر عن الأعراب لجأ إلى واحد منهم يبحث عنده عن

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٥.

السبب، فجاءه الجواب الشافي، والرد المجزي، يدل على ذلك أنه دوّنه ورواه، وتناقله الكتاب حتى وصل إلينا.

وما دام الأمر يخص الأكل والأعراب، فهناك أيضاً خبر عن سؤال وجه لأحدهم، فرد رداً يبدو أنه قُبل من السائل، إذ لم يعترض عليه، وقبله قبولاً حسناً، فسلسله الزمن إلينا مسجلاً في أحد كتب الأدب والتاريخ المهمة:

«سأل عبدالملك أبا الزعيرة، فقال:

هل اتخمت قط؟

قال: لا.

قال: وكيف ذاك؟

قال: لأنا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دقّقنا، ولا نكظ المعدة، ولا نخليها». (١)

إن الطب الحديث لا يستطيع أن يضع وصفة طبية تمنع التخمة خيراً من هذه الجمل القليلة

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٢.

العدد، الوافية المعنى، الشافية الجواب، الصادقة في مرماها، الجميلة في مبناها.

والأعرابي، وهو من علية القوم، ربما لمنزلته في قومه، ولعقله، بدأ تفسير الأمر خطوة خطوة عن الأكل، وما يجب حياله منذ بدء الطبخ، حتى يصل إلى الفم، ثم أعطى إطاراً عاماً، لا يخرج عن تعليم الإسلام.

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

فكان جوابه بهذا مختصراً وافياً كافياً.

ومن التعليل الحسن فيما يخص الأكل القصة الآتية:

«دعا عبدالملك بن مروان إلى الغداء رجلاً فقال:

«ما فيّ فضل».

فقال عبدالملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يبقى فيه فضل!

فقال: يا أمير المؤمنين، عندي مستزاد، ولكن أكره أن أصير إلى الحال التي استقبحها أمير المؤمنين». [1]

الجلوس على موائد الملوك ليس للشبع، أو إطفاء الجوع، ولكنه للشرف الذي تجلبه مجالستهم ومؤاكلتهم؛ ولعل عبدالملك لم يرد أن يقول ذلك، فورّى عنه بما قال؛ إلا أن الرجل كان نابها، فلاحظ أن له مدخلا يخرجه من موقع الاستقباح الذي وصفه الخليفة، فكان له ما أراد، إذ جاء بتعليل حسن، وهل هناك أحسن أو أوفى وأجمل من المنطق؟

وهناك جدل قام بين اثنين حول البخل، والبخل صفة رذيلة مجمع على تدنّيها، وقبح تبنّيها، وذمّ صاحبها، وثلب فعله، ومع هذا لم نعدم أن نجد بخيلاً عنده تعليل للبخل، وإظهاره بمظهر الحسن، ورد ما يوجه إليه من ذم، وهذا

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٢.

الجدل لا يخلو من طرافة، لمحاولة البخيل إيجاد الأعذار لأمر لا يرى الناس بالإجماع أن فيه عذراً، ولكنه يجهد نفسه، ويأتي بحجج توهم المنطق، وظاهرها قوي، وباطنها خاوٍ ضعيف:

«قال الجاحظ: قلت مرة للحزامي:

قد رضيتَ بقول الناس: «عبدالله بخيل».

قال: لا أعدمني الله هذا الاسم.

قلت: كيف؟

قال: إنه لا يقال: «فلان بخيل»، إلا وهو ذو مال، فسلِّم لي المال، وادعني بأي اسم شئت.

قلت: ولا يقال: «سخي»، إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم المالَ والحمد، وجمع هذا الاسم المالَ والذم.

قال: بينهما فرق.

قلت: هاته.

قال في قولهم: «بخيل» تثبيت لأقامة المال في ملكه، وفي قولهم: «سخي» إخبار عن خروج المال

عن ملكه؛ واسم البخل فيه حزم وذم، واسم السخاء اسم فيه تضييع وحمد، والمال راهن نافع، ومكرم لأهله معزّ، والحمد ريح وسخرية، واستماعه ضعف وفسوله؛ وما أقل، والله، غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعري جلده، وضاع عياله، وشمت عدوه». [1]

لعلها من المرات القلائل أن يجد البخل من يمدحه، ويرجحه على الكرم، ويعلي قدر الذم، ويخفض قيمة المدح، ولعل هذه من بعض خيالات الجاحظ الغريبة التي يفاجئ بها معاصريه، فإن كان اخترعها، فقد أحسن التصور، وأتقن الخيال، وإن كانت واقعة فقد أتقن النقل، وأجاد الرواية.

والشيب مظهر غير مرحب به من الإنسان، لأنه يدل على ذهاب الشباب ومجيء الشيخوخة، والشباب قوة، والشيخوخة ضعف، ولا أحد

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٤١.

يرحب بوداع القوة، واستقبال الضعف، ولهذا كثر الحديث عن تعليل مجيء الشيب، وجاء الشعراء له بأعذار ملتوية، وأسباب مستعارة غير حقيقية؛ حاولوا في ذلك كله أن يضفوا عليه شيئاً من البهجة المصطنعة؛ وكان ما قالوه ممتعاً وعبقريًّا في بعض الأحيان؛ ولكن الشيب هو الشيب، يهزأ بكل أحد، ويفرض نفسه على من طالت به الحياة، وكان حظيظاً فامتد به العمر.

ولِلنَّثْر حقه في الحديث عن الشيب، ولكنه في بعض هذا القول جاء تعليلاً منطقاً، ويسير في جوادّ الحقيقة، ويسلك واضح طرقها بصدق:

«قيل لعبد الملك بن مروان: أسرع إليك الشيب!

قال: فكيف لا أشيب، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل أسبوع - يعني الخطبة». [1]

لقد أحسن التعليل في رده على الملاحظة،

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٣.

فالخطبة هَمٌّ، خاصة إذا كانت ترسم سياسة الدولة، أو تؤكدها، أو تعالج فتقاً في أمر من أمور الدولة؛ فهناك هَمُّ اختيار المدخل للخطبة، ثم السيرِ فيها، ثم انتقاءِ الكلمات، ثم تحسس وقع ذلك على الناس؛ فالخليفة كأنه يمشي على الشوك وهو يخطب، ولعل مقابلة جيش في قتال أقل همًّا من مقابلة ألف عين في خطبة.

والهمّ يجلب الشيب، لأنه مطرقة على الأعصاب، وعصرٌ لكيانها، وإنهاك للأعصاب، وإجهاد للغدد، والكبد غدة، والطحال غدة، والكلى غدة؛ وهذه هي الغدد الكبرى، وهناك غدد صغرى لها دور خطير في التأثير، مع هذه الكبرى، على صحة الإنسان؛ فإذا ضعفت هذه عن أداء عملها، أثّر بعضها على بعض، وصبغة الشعر، وقوة بصيلاته، تفقد بعض مقوماتها؛ فتعليل عبدالملك تعليل حسن.

وقد كان الشيب مرة مادة لمسابقة أجراها أحد

الملوك السابقين، وهي مسابقة طريفة، اختيرت اختياراً دقيقاً وموفقاً، وكان مركز الطرافة فيها ما بدا فيها من تناقض وتضاد، ومن تعليل في كلا الحالتين حسن:

«نظر كسرى إلى رجلين من مرازبته، أحدهما قد شاب رأسه قبل لحيته، والآخر قد شابت لحيته قبل رأسه، فأراد أن يعرف جواب كل واحد منهما عن حاله تلك، فقال لأحدهما: لِمَ شاب رأسك قبل لحيتك؟

قال: لأن شعر رأسي خُلق قبل شعر لحيتي، والكبير يشيب قبل الصغير.

وقال للآخر: لِمَ شابت لحيتك قبل رأسك؟

قال: لأنها أقرب إلى الصدر موضع الهم والغم»[1].

لقد أجاب كل واحد من الاثنين بمنطق مقبول، إذا أخذ منفرداً، وكان فيما قالا تعليل

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٣.

حسن، أدى إليه عقل وذوق وحسن تصرف. ولا يتصور أن يكون هناك جواب مرض يخرج من مظهر التناقض هذا إلا مثل هذا القول، ولابد أن كسرى قد قبله، وحظي كل منهما بإعجابه.

وجالينوس طبيب حكيم يوناني، ويتوقع منه القول الصائب، والتعليل الحسن، في أي قول يقوله، أو سؤال يُوجه إليه، وفي إحدى المرات سئل سؤالاً هذا مؤداه:

«قيل لجالينوس: بِمَ فقت أصحابك في علم الطب؟

فقال: لأني أنفقت في زيت السِّراج لدرس الكتب مثل ما أنفقوا في شرب الخمر». [1]

لقد جاء جواب جالينوس في صيغة صورة واضحة أغنت عن الشرح، فرسم اجتهاده في صورة استهلاك الزيت، دليل السهر على القراءة والدرس، فلم يضع الله جهده، وأعطاه بقدر

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١٩٩.

اجتهاده، ولهذا بزّ أَقْرانه بهذا الجدّ، والابتعاد عن الملهيات؛ أما هم فقد قضوا وقتهم بين الكأس والطاس، فلم يحصدوا من ذلك إلا الخيبة، ولم يجنوا إلا الندامة. وهناك رجل عقله كبير، وذهنه صاف، وأدبه راق، وقع في مأزق أمام خليفة خطير، في موقف مشهود، فلجأ في خروجه من المأزق الذي أُوقِع فيه، بتعليل حسن، وقول مقنع، وحجة بلجاء:

اعتذر رجل إلى الهادي فقال:

يا أمير المؤمنين، إقراري بما ذكرتَ، يوجب عليّ ذنباً لم أجنه، وردّي عليك، لا أقدم عليه، لما فيه من التكذيب لك، ولكني أقول:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحةً

فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر[1]

لقد طلب من هذا الرجل أن يقر بذنب لم يجنه،

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٢.

فيدين نفسه، بجريمة لم يرتكبها، والخليفة يؤكد أنه مدان؛ فهو يدافع عن نفسه الموافقة على الإقرار لأن هذا يؤكد الذنب، والذنب يوجب العقوبة؛ ولا يود بعدم الإقرار تكذيب الخليفة فيما ادعاه عليه؛ فلجأ في نهاية الأمر إلى مخرج هو تعليل حسن لما يطلبه في حقه. وخاطب الخليفة بعقل وتعطف، ورجاه أن يختار الأجر في الدنيا والآخرة، على الراحة في الدنيا، ومن لا يختار أجر الدارين على راحة عابرة، ولذة منقطعة!

وللزبير بن العوام تعليل حسن في أسباب نمو ثروته من التجارة:

قيل للزبير - رحمه الله - بِمَ بلغت هذا المال؟

قال: «إني لم أردّ ربحاً، ولم أستر عيباً».[1]

لقد جمع بين الأمانة والقناعة، فهو يقبل أول ربح يعرض عليه في تجارته، ولا يبيع على أحد شيئاً معيباً، عيبه باطن؛ ولهذا بارك الله في تجارته؛

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ١٣٤.

لأن أول فائدةٍ ذلك تعالم الناس عن طريقته السمحة، ونقاء تعامله، فيقبلون عليه، ويختارونه على غيره، وهذا هو أوسع باب لازدهار التجارة، فكثرة الزبائن، وثباتهم على تعاملهم معه، يجعل تجارته في رواج، تدخل من باب فتخرج من باب آخر، لا تبقى في مخازنه، ولا تأسن مثل ما يفسد الماء الراكد، فما قاله عن نجاح تجارته تعليل حسن.

والزبير لم يَعْدُ أن استلهم قول الرسول ﷺ:

مرّ رسول الله ﷺ بأعرابي، وهو يبيع مسوّمة فقال: «عليك بأول سومة، أو بأول سوم، فإن الربح مع السماح».[1]

والعقل نعمة، والفكر الذي يأتي منه منير، ويقود إلى الخير، ويؤدي إلى النجاح والفلاح، وهذه امرأة شحذت عقلها أمام موقف موهم، فاستطاعت أن تشع نوراً على ظلمةٍ وهمية:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ١٣٤.

«أراد شعيب بن حرب أن يتزوج امرأة، فقال لها: إني سيء الخلق.

فقالت: أسوأ خلقاً منك من يحوجك إلى أن تكون سيء الخلق». [1]

لقد كان شعيب أميناً، فكشف للمرأة التي جاء يخطبها، عن عيب فيه، لتكون على علم به، حتى لا تفاجأ به فيما بعد، عندما يفوت الأمر؛ فكان ردها تعليلاً حسنا لهذا الخلق السيء، وأنه ليس الملوم فيه، وإنما السيء من أثاره. وهي واثقة من نفسها أنه معها سوف يرتفع هذا العيب ويتلاشى.

ويحتج مذنب، وينتقد الذين يريدون أن يؤيسوه من رحمة الله، فيرد عليهم رداً حسناً، مبنيًّا على ثقته بالله، وأمله في عفوه ورضوانه:

قال الشاعر:

يا ربِّ قد حلف الأقوام واجتهدوا
أيمانهم أنني من ساكني النار

(١) أخبار الظراف: ١٧٠.

أيحلفـون على عميـاء وَيْلَهمـو

جهلا بعفو عظيم العفو غفار[1]

وتفسير الأحلام إذا احتوته اللباقة، وحسن الأدب، فإنه يدخل في هذا الباب، ولهذا مثل، يقال إنه وقع للخليفة هارون الرشيد؛ وهو مثل يبين سوء التعليل وحسنه، ويُري اختلاف الناس في عقلهم وذوقهم، وتوفيق الله لبعضهم في أن يهديهم سواء السبيل، وطريق النجاح، أو يتخلى عنهم، فيتركهم لقدرتهم الناقصة:

«سمعت أن هارون الرشيد رأى رؤيا على تلك الجملة: إذْ تخيل أن جميع أسنانه سقطت من فمه، فدعا معبراً في الصباح، وسأله عن تعبير تلك الرؤيا.

فقال المعبر: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! جميع أقربائك يموتون قبلك، بحيث لا يبقى أحد بعدك.

فأمر هارون بأن يضرب المعبر مئة عصا، قائلاً: يا كذا وكذا، واجهتني بهذا الكلام المؤلم لهذا الحد!

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٦٢.

إذا مات أقربائي جميعاً فمع من أكون حينئذ؟

وأمر باحضار معبر آخر، وقص الرؤيا ثانياً، فقال المعبر:

يستدل بهذه الرؤيا التي رآها أمير المؤمنين على أن حياة مولانا ستكون أطول من حياة أقربائه جميعاً.

فقال هارون: (هذا في طريق العقل واحد) لم يخرج التعبير عن ذلك. ولكن بين العبارة والعبارة فرق كبير.

وأعطى لهذا الرجل مئة دينار.[1]

ويقف رجل موقفاً حرجاً، خلاف ما كان يعرف عنه عادة، فيعلل لهذا الحدث تعليلاً حسناً مقبولاً؛ لأن فيه من العقل مبتغاه، ومن المنطق منتهاه:

«سمعت ابن كعب الأنصاري يقول: صار الفضل بن الربيع إلى أبي عباد في مكتبه، يسأله حاجة، فارتجّ عليه في الكلام.

---

(١) قاموس نامه: ٧٤.

فقال له أبو عباد: بهذا اللسان دبرت خليفتين؟!

فقال: يا أبا عباد. إنّا اعتدنا أن نُسأل، ولم نعتد أن نَسأل». [1]

لقد أبان الناحية النفسية التي تكمن خلف كل حالة من الحالتين، فهذه فيها وقود يسيرها، وهذه خالية منه.

وموقف آخر حكمه الموقف النفسي، جاء فيه التعليل ذكياً، ولم يقترب من الطريق الذي كان يوجهه إليه السؤال، والرد حسن، لأنه أخرج صعصعة المسؤول من ضيق الجواب، إلى سعة المثل والاستعارة:

«تكلم صعصعة عند معاوية فعرق.

فقال: أبهرك القول؟

فقال: إن الجياد نضاحة بالماء». [2]

وتراكبت في قصة أخرى التعليلات الحسنة،

(١) البصائر: ٢/ ٧٤.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٦٩.

ويبدو أن الرجلين في القصة على قدر متساوٍ من حركة العقل، فصح القول فيهما «لاقى الهزبر أخاك بشراً»، أو وافق شنّ طبقة:

«قال رجل لصاحب منزل: أصلح خشب هذا السقف، فإنه يتفرقع.

قال: لا تخف إنما [هو] يسبح!

قال أخاف أن تدركه رقة فيسجد»[1].

ويسأل رجل آخر عن أمر لفت نظره، وشغل باله، وأحب أن يجد له تعليلاً حسناً، يزيل عنه الإبهام، ويوضح ما غمض:

«قال أبو مجلز:

قلت لرجل مدني: كيف صار الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟

قال: لأن الحمل الثقيل يشارك فيه الجسد والروح في حمله، والرجل الثقيل ينفرد الروح بثقله»[2].

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٠.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٣٨.

وهناك جدل يبدو أنه رمز، لا صلة للحقيقة فيه، ولكن له مغزى خلقيًّا، أدى إليه رياضة عقلية، قام بها أديب متأن استطاع أن يرسم فيها هذا التعليل الحسن:

«قال الحسن بن عبدالرحمن:

قال بعض الملوك لعابدين كانا في زمانه:

ما يمنعكما من إتياني، وأنتما عبدان لي؟

قالا: إن صدَقْتَ نفسك. علمت أنّا لسنا بعبدين لك.

قال: وكيف ذاك؟!

قالا: هل تعلم أنا نعمل شيئاً لغضب أو هوى؟

قال: لا.

قالا: فتعمل أنت شيئاً لغضب أو هوى؟

قال: نعم.

قالا: فقد ملكناهما وملكاك، فأنت عبد لعبدينا».

هذه بعض الأقوال التي جاء فيها التعليل

حسناً، معتمداً على العقل والذكاء والفطنة، محاطاً بالذوق والأدب في غالب الأحيان، ليكون إلى القبول أقرب، وإلى التأثير أمكن، وهي أمثلة محدودة العدد، مختارة النوع، تلمس جوانب من بحر الفكر الواسع، ومحيطه الممتد؛ والمزيد لا يزال رابضا في ثنايا الكتب ينتظر من يبحث عن درره، ويغوص على لؤلؤه ومكنونه.

الحج[1]

ليس القصد هنا الحديث عن الحج اليوم، ولا عن ما فيه من مظاهر تتناسب مع حياة الناس اليوم، من سهولة المواصلات، وتوفر الأمن، واكتمال المرافق، لتتقبل هذه الأعداد الكثيرة، التي تأتي في وقت معلوم، لتؤدي شعائر معلومة، في أمكنة معلومة، وما تجده من تسهيلات، وما تنعم به من راحة، لا يكدرها أحيانا إلا ما يأتي من بعض الحجاج أنفسهم، واستغلال بعضهم هذا الموسم للكسب المتدني، من سرقة وشحاذة.

ولكن حديثنا عن الحج في الماضي، وما كان يجري فيه مما سيجده القارئ ملفتاً للنظر، إما مغيظاً، أو مُمتِعاً مُدهشا. وسوف تكون الحوادث مختارة، والوقائع منتقاه، حتى لا نبعد عن الهدف الذي قصدناه، والغرض الذي أردناه.

---

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٤١) في ٣/ ١٢/ ١٤١٤هـ الموافق: ١٤/ ٥/ ١٩٩٤م

وقد يقتضي الأمر عرضاً أن نتحدث عن الحاضر، لأن الأمر استوجب المقارنة، أو تطلب توضيحا لا يتم إلا بذكر ما يماثله في هذا الزمن، ولكن هذا لن يكون هدفاً أساساً هنا.

والذي زرع فكرة هذه المقالة نص مرّ بي في أحد المصادر التي تتحدث عن الحج في الماضي، فقد أذكرني هذا النصّ بأمر أدركته في صغري، ولم أعد أراه الآن، وكيف نراه، وقد تغيّرت الأسباب التي كانت توجبه، وحل محلها ما يعتبر سيلاً جارفاً اليوم من التطور إذا قورن بما كان.

كنا نفرح بمجيء الحجاج، خاصة من هم قريبون منّا، إما أحد أهلنا، أو جيراننا، أو أصهارنا أو مدرّسنا، وكان مدرسنا - رحمه الله - يحج كل عام عن أحد، يَدفع له نفقات الحج، وهامشَ رزقٍ يساعده على مكابدة الحياة؛ وفرحتنا تأتي من جهات عديدة، فأقاربنا ومدرسنا عند العودة يعطوننا «الحَقَاق»، وهو الهدية من القادم

للمقيم، وكانت لا تزيد إلا قليلا عن خمس حبات من «الحُمَّص»، «الحُمبُص»، وحبة واحدة من الملبَّس، وكنا نسميها: الدجاج والديك، وهذا تشبيه عبقري منّا نحن الصغار، فالشبه مطابق: أليس لكل ديك عدد من الدجاج، زوجات له، وأليس هو أغلى منهن وأكبر، وأفره، وأحياناً أجمل، وهكذا حال حبيبات الحمص، وحبة الملبس، وهي أحياناً لا تزيد عن أن تكون حبة حمص لُبِّست طبقة من السكر، ونادراً ما تكون حبّة لوز ألبست السكر.

ورغم صغر الهدية في نظرنا اليوم، وبالتأكيد إحتقارها من أبناء هذا الجيل الحاضر، فإنها لنا كانت مصدر فرحة متناهية؛ لأننا لا نعرف الحلوى إلا في المناسبات، وهي نادرة، وقليلة الحدوث، ولأننا نحظى بعدد من هاته الحبات الخمس وفحلها، إذا كثر الحجاج من أقربائنا، فتكون الحصيلة على هذا مجزية للفرح الكبير.

ومهما آكل اليوم من حلوى، بأنواعها المختلفة، وأشكالها المتعدّدة، فإنّها لا تقارن بطعم حلوى تلك الأيام وحُمُّصِه، خاصة إذا قُضم الحمص مع الملبس في قضمة واحدة، واختلط الطعمان؛ وإن كان للجوع في تلك الأيام دخل في لذة الطعم، فإن للشباب دعوى أكبر، وحجة أقوى، فلذة الأكل تزيد مع الشباب والصحة.

وليس هذا ما ذكرني بما أوجب كتابة هذا المقال وإنما الذي دعا إليه شيء آخر كان يأتي به الحجاج، شيء لا يكاد يكون ذا قيمة لنا، إذا قيس بفرحتنا به، وربما فَرِحت به البنات أكثر، وما أشرت إليه هو «المقل» وهو نواة ضعف حجم البيضة، مرتين أو أكثر، وكنا نسمع أنه يؤتى به من بلدة الحجر، وكان القول الذي يتردد عنه أنه تمر قوم خسف بهم، أو جاءهم العذاب، فانقلب تمرهم إلى «مقل» ومسخ إلى ما يشبه الحجر صلابة؛ ولا أدري لماذا يؤتى به وهو من أرض عذاب! ولكن الخرافة

لا يهتم منشؤها أن تكون مكتملة من جميع الجوانب، أو محصنة من كل الجهات، فتكون في مأمن من هجومنا، نحن المتطفلون على نبش كنهها، ومعرفة كل ما قيل عنها.

وكان الطفل يزيد رصيد غناه بما يحوزه منها، وكنا نجد صعوبة، إذا ما غلبنا حب الاستطلاع في معرفة داخلها، في كسرها، والتوغل في كنهها، وكشف سرها وعمقها. وإذا نجحنا بعد عراك، وربما بعد الاستعانة بالكبار، لم نجد أن الأمر يستحق كل هذا الجهد، فنعود بخيبة أمل، لا يفتأ أن يَقوى بعد حين، ونعيد الكرة، لتعود خيبة الأمل، ولا يبقى لنا في نهاية الأمر إلا المفاخرة بعدد «المقل» التي تتجمع عندنا، وتكون كرصيد التاجر في البنك.

وقد تكون فرحة البنات بالمقل أكثر من الأولاد، لأنه يأتي «المُقْل» وعليه شعر مثل الليف على النخلة، فتزيل البنت جزءاً منه، يكون بمثابة

الوجه للعبة، وتهيء باقي شعر «المقلة» شعراً للعبتها، إبنتها، وتضع فيه عينين وفم، وتفاخر به البنات الأخريات، اللاتي لم يحصلن على «مقلة»، ومنتهى ما لدى إحداهن قطعة من الصيني، جاءتها على أثر تحطم صحن أو «غرشة» «زبديه»، فتحكك في جانب من القطعة رأسا، ثم تلصق به «قمورة»، مما جادت به أمها، أو إحدى قريباتها، بعد أن سقطت هذه «القمورة» من مجولها، بعد أن حاولت أن تعيده إلى مكانهِ مستعملة في ذلك التمر، وهو لاصق ردىء لمثل هذا الشيء.

وإذا كان لنا نحن الصغار فرحة عارمة بعودة الحجاج، لنيل مثل هذه الهدايا، فإن للكبار فرحتهم بهدايا لهم كذلك، ونصيبهم مصحف كريم، أو أعواد أراك، تصبح مساويك للعام كله، حتى يأتي الموسم القادم، فيجود الخَيّرون من الحجاج بدفعة جديدة، تسعف من ينتظر، وهكذا رجل في عنيزة يستفيد من مجهود أعرابي نبش جذع

الأراكة في جوار مكة، واستخرج من جذورها الغضة مساويك للمحتسبين، منهم من يكون في أقصى المغرب، ومنهم من يكون في أقصى المشرق، يتساوون مع من منهم في مكة في المسعى أو عند أبواب الحرم، أو في الأسواق، وهي بضاعة رائجة إلى اليوم، وشجرتها مباركة، وإلا لما بقيت إلى اليوم، مع كل هذا الإلحاف، وقد فؤجئت قبل سنوات عندما كنت مع بعض الإخوان في رحلة إلى ميناء العقير، فرأيت شجرة الأراك هناك.

النص الذي سأذكره، وهو الذي أذكرني هذه الذكريات زاد، عما قلته عن الأراك والمقل، النعل، فلم نكن نذكر أن أحداً كان يأتي لعنيزة بنعال، لأن مهنة صنع الأحذية فيها كانت مزدهرة، وسرعان ما أصبحت مصدّرة إلى مكة شرفها الله:

قال عمر بن حيان الضرير:

كأن الحجيج الآن لم يقربوا مِنىً
ولم يحملوا منه سواكا ولا نعلا

أتـونـا فمـا جـاؤا بعـود أراكـة

ولا وضعوا في كف طفلي مقلا[1]

ليتنا نعرف ماذا كان يعمل طفل العراق حينئذ بالمقل، وهل كان لديه فكرة حضارية للاستفادة من هذه البضاعة المطلوبة.

والتزاحم حول الكعبة يحرص الناس عليه في كل زمان، ولا يفكر أحد في التفريط بالفرصة التي تسنح له لدخول الكعبة، بل إن الزحام بلغ في حالة من الحالات في الماضي إلى موت بعض الناس، لما كثروا بداخلها - شرفها الله - وكانوا فوق ما يحتمله المكان عدداً، فصار الناس بعضهم فوق بعض؛ هذا الحرص العظيم، والرغبة الجامحة في الدخول فيها، وصلاة سنة هناك، لم يشذ عنه إلا امرأة واحدة، قالت إنها لا تريد أن تدخل الكعبة، وإن كـان السـبب الـذي أبـدتـه، والحجـة التـي قدمتها، لا تخلوا من صفة الوسواس والتنطع، إلا

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٣٤.

أننا نسأل الله أن يثيبها على نيتها التي كانت ذات مرمى حسن:

قيل لامرأة: «ما يمنعك من دخول الكعبة؟» فقالت:

«والله ما أرضى قدمي للطواف، فكيف أدخل بهما الكعبة».[1]

وما دمنا اخترنا هذا القول عن امرأة، فسوف ننتقل إلى امرأة أخرى، لفتت بعملها، لما جاءت للحج، الأنظار، وفعلت ما لم يفعله أحد في زمانها، واحتالت بحيل ذكية للتغلب على بعض الصعوبات، التي قد يقابلها غيرها، فيحجم عما أراده بسببها، إلا أنها لم تحجم، وطوعت العاصي من الأمور لما أرادته، فأصبح عملها يُروى، وينقل، ودوّن في الكتب، وحدّرَه هذا التسجيل في سلم الزمن حتى وصل إلينا، ولا تنقص دهشتنا به عن دهشة أهل زمانه، ولا تقل طرافته بالنسبة لنا

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٣١.

عن الحجاج في تلك السّنة، أو من جاء بعدهم إلى يومنا هذا:

«حَجَّةُ جميلةٍ الموصلية، بنت ناصر الدين أبي محمد بن حمدان، أخت أبي تغلب، صارت تاريخاً مذكوراً؛ حجت سنة ست وثمانين وثلاث مئة، فسقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج؛ واستصحبت البقول المزروعة بالمراكي على الجمال، وأعدت خمس مئة راحلة للمنقطعين؛ ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار؛ ولم تستصبح عندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاث مئة عبد، ومئتي جارية، وأغنت الفقراء المجاورين». [1]

يجب عند التمعن في هذا ألّا ينظر إليه بعين اليوم، فعين اليوم غير مأمونة على الحكم على مثل هذا مما حدث في ذلك الزمن، فالأعداد الواردة في هذه القصة لا تفهم إلا في ضوء اقتصاد تلك الأيام، ولمعرفة ذلك يحتاج المرء إلى دراسة

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٣٤.

اقتصادية متأنية دقيقة عميقة، ولن يأتي بعد ذلك بالعلم اليقين، مادامت أعداد الحجاج في تلك السنة لم تحدد.

والخبر هذا يحتوي على عناصر رئيسة، تستحق أن يوقف عندها؛ فهذه أميرة من الموصل، والموصل جزء يقوم بأمورِ نفسِه بشبه معزل عن الخلافة العباسية الضعيفة حينئذ، وهي أقرب في تلك الفترة أن تعد من الثغور، وما جلبته الأميرة، وما ظهرت به يدل على حسن حال الموصل، وقوة الاقتصاد فيه.

هذا أمر والأمر الثاني قوة الطاعة التي أظهرتها هذه السيدة باحترامها للمشاعر المقدسة، وذلك بجعل عتقها لرقيقها في مكة، وجعل مصابيحها حول الكعبة لا توقد إلا بشموع العنبر، لرائحتها الفائقة، وعبقها الأخاذ؛ والتفاتتها إلى المنقطعين عن الحج، بإسعافها لهم، وبعدد غير قليل من الجمال، وإغنائها المجاورين، ولم تعطهم فقط، بل أغنتهم.

أما الشراب الذي جادت به، ومن وصفه يبدو أنه فاخر، وما صرفته عليه لابد أنه استهلك أموالاً طائلة، وجعلها إياه من هذا النوع الفاخر، يدل فعلاً على عمق الطاعة، واحترام البيت الحرام ومكة ومن فيها؛ ويكفي أن نتصور ما انفق على هذا الشراب بتخيل المبالغ التي صرفت على الثلج الذي وضع فيه، ليكون الخير متكاملاً؛ وكان الشراب هذا لكل الناس في مكة، في أيام موسم هو أشد المواسم ازدحاماً؛ ومن المؤكد أن من لم يشرب احتياجاً وعطشاً، شرب استطلاعاً وتطفلاً!

وهذا كله الخادم فيه المال، ولكن الأمر الجديد هو ما كان الخادم فيه مع المال العقل؛ فهذه السيدة لم ترد أن تخلو سُفرتها مما تعود عليه من يأكل على مائدتها بالموصل، فقد فكرت في نقل البقول، وهي خضرة لا تصبر على السفر، فهي إن لم تذبل من أول يوم من الحر ذبلت في اليوم التالي، فاحتالت، ونجحت حيلتها، إذ زرعت البقول في «مراكن»،

وتعهدتها بالسقي، فوصلت إلى مكة المكرمة طازجة، وبهذا حج بقدونس الموصل إلى مكة المكرمة، ووصلها سالماً.

وبعد ذلك بقرون، جاء رجل من أهل عنيزة أعجبته نخلة البرحي في البصرة، وقرر أن لا يحرم من رطبها في عنيزة، فاحتال مثل جميلة الموصلية، ووضع النخلة في وعاء فيه الطينة التي ولدت فيها النخلة، وحملها على الجمال، وتعهدها بالرعاية والسقيا، حتى أوصلها مع أخت لها، وربماأخت ثانية، إلى عنيزة، وغرسها هناك، والأمل يحدوه ألا يضيع الله تعبه، ولا يحرمه ثمرة كدحه وعناه، وأن ينبتها الله وأخواتها نباتاً حسناً، وقد استجاب الله دعاءه، ونظر إلى جهده، فأعطاه سؤله، وأقرّ عينه، بنجاح مسعاه، وبارك له فيه بركة ربما أنها لم تخطر على باله، إذ نمى عدد «البرحي» مع السنين، وانتقل أبناء النخلات الأولى غريسا وفسائل من حائط إلى حائط، ومن بستان إلى

بستان، ومن حديقة إلى حديقة، ومن بلدة إلى بلدة، ومن القصيم إلى غيره من أنحاء المملكة.

وأصبح للسكرية والروثانة، وأم حمام والشقراء، والحلوة، والقطارة، والونانة، وغيرها مما لا يكاد يحصى، ضرة حلوة جميلة تنافسهن، وتطغى عند بعض الناس عليها. وشمخ في وقت من الأوقات سعرها، حتى أصبح لا يخطبها، ناضجة بالغة، إلا خاطب، للذهب في جيبه رنين، ومن لم تصل ثروته إليها يكتفي بأخذ إحدى بناتها وهي في سن الرضاعة، يراعيها، ويصبر على تعبها ودلالها حتى تكافئه بما يتطلعه منها عندما تكبر.

وبقدونس الموصل في رحلته الميمونة، هو وما معه من زملائه البقول الأخرى، كان أحسن حظاً من بعض الحجاج في ذلك الزمن، الذين كانوا يعانون الأمرين في الطريق، فإذا لم ينقطعوا لموت جمالهم، عانوا من قلة نفقتهم، وقد يضلون الطريق، أو يتعرضون لبعض العوامل الجوية.

وإذا سلموا من كل ذلك، أو لم يسلموا، فإنهم قد يكونون ضحايا لقطاع الطرق، الذين امتهنوا سرقة الحجاج، وإخافتهم، وقتلهم أحياناً، إذا ما أبدوا مقاومة؛ وكان ذلك أمراً مستمراً لعدم وجود حكومة قوية، تسيطر على الطريق، وتحمي السابلة؛ حتى إن الخوف وعدم الأمن أصبح في ذلك الوقت هو المتوقع، فإذا لم يحدث شيء على الطريق فهو الأمر المستغرب.

ـ[1] ولهذا فالبقدونس لم يشك مما شكا منه أبو صوارة، أو أبو دقة حين قال واصفاً أطول الليالي الثلاث في نظره:

«أطول الليالي ثلاث: ليلة العقرب، وليلة الهريسة، وليلة جدة إلى مكة» .[2]

أما ليلة العقرب فقليل منا لم تطل معه ليلة لدغ العقرب، إما مصابا، أو مشاركاً لمصاب، ويا لها

---

(١) من هنا تبدأ الزيادة التي أضيفت إلى ما نشر في عكاظ.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٢٢٣.

من ليلة، ولعل عند معاصري أبي صوارة ما كان عندنا، حيث يطلب من الملدوغ ألّا ينام، وإذا ما أوشك أن ينام من الألم والإجهاد ضربوا عنده الطبول، لأن في نومه موتَهُ، كما يُظَنّ، وقد يكون لهذا صحة، أو لعله وهم.

أما ليلة الهريسة فلعله يشبهها أي أكلة دسمة، تربض في المعدة فلا تنهضم، فتسبب للمرء عسر هضم، يتبعه ألم، يتبعه سهر يطول، ولعلها ذكرت الهريسة بعينها لأن فيها من الإغراء، لحلاوتها ولذتها، ما يجعل الوقوع فيها سهلا مكرراً، ولعل المرء بعد أكلها والإكثار منها، والمعاناة من جراء ذلك، يحلف أيماناً مغلظة في ألا يعود لها مرة أخرى، ولكنه سرعان ما ينسى يمينه، ويشتاق للهريسه، فتبدأ آماله تغازل أكلها، حتى إذا ما وُضعت أمامه، انقض عليها انقضاض الغريم على غريمه، أو انقضاض الصقر على الحبارى.

أما ليلة السفر من جدة إلى مكة، فكثير منا

لا يزال يذكر صعوبة الطريق، وعمق الرمال، وكثرة غرز السيارات لعجلاتها؛ فإذا ما أضيف إلى أنّ ما تأوّه منه أبو صوارة كان أيام الجمال، وجمالٍ محملة متعبة من رحلة سفر يقرب من الشهر، تئن هذه الجمال بحملها من العراق أو الشام أو مصر، أدرك إلى أي مدى يمكن أن تطول هذه الرحلة، لأنها آخر مرحلة في الطريق قبل مكة شرفها الله، والقلوب معلقة بها، وآخر مرحلة في أي مشارطة هي أصعب المراحل، وقد يصل المرء فيها إلى أن يتنازل عن حقه مقابل عدم إتمام الأمر، وعندنا على هذا مثل مشهور هو: «مثل رضّاح العبس، يوم ما بقي إلا واحدة تركه».

وقصة المثل أن رجلاً إتفق مع آخر على أن يرضح نوَى تمرٍ ملء كيس، مقابل مبلغ من المال، فقام الرجل تجاهه بواجبه بهمّة ونشاط، ولكنه أجهده وأعنته لصلابته، وتطايره حوله، فلما لم يبق إلا نواة واحدة كان التعب قد بلغ منه مبلغه،

والحنق منتهاه، فقرر إيقاف العمل، وأوقف العمل فعلاً، وضاع عليه الشرط، فلم يستلم ما اتفق عليه مع صاحب النوى؛ ألا يمكن مع طول ليلة جدة أن يحدث لبعض القادمين مثلما حدث لرضاح النوى؟ ويعود دون إتمام الرحلة!

أما اليوم فطريق جدة - مكة متعة للمسافر لسعته، ولحسن تمهيده وتزفيته، وتنظيم السّير فيه، ووضع العلامات الإرشادية المختلفة؛ فلا تغريز، ولا ضياع، ولا جهداً البتّة، وقد أصبح أحد المجالات التي يخرج الناس عبرها للتسلية والنزهة؛ فسبحان مغيّر الأحوال!

في عصرنا هذا لم يبق من ليالي أبي صوارة إلا اثنتان، أما الثالثة فقد نجحت في الإختبار، وتركت الفصل، لقد تركت أختيها إلى الأبد، ولم تعد موجودة إلا في كتاب «عيون الأخبار»، لابن قتيبة، يقرؤها الحاج ولا يراها، أصبحت ذكرى، تثير في ابن اليوم حمد الله وشكره على النعمة التي بها

ينعم الحرم، وزوار الحرم: من تمهيد الطرق، وإقامة المرافق، حتى لم يعد لشاك شكوى من هذه النواحي، بل إن منظر الحرم نفسه اليوم وما أدخل عليه يسر الناظر.

وازدحام الناس في الحج هو شكوى كل زمان، لأن كل إنسان قادر يريد أن يتقرب إلى الله بهذه الفضيلة، ولا يلتفت إلى ما يسببه الأزدحام لكبير السن والمريض الذي جاء يحج فرضه، وهذا الذي يحج للمرة العشرين، لا يذكر إلا فضل الله الذي سوف يعود عليه بالخير؛ ويأخذ حث العلماء على الحج على أنه له، وأنه المقصود به دون سواه. وقد جرت عادة خطباء المساجد أن يحثوا الناس على الصوم ويبينوا أحكامه في رمضان، وكذلك يفعلون في الحث على الحج وبيان أحكامه قرب موسم الحج، فيقبل الناس على الحج وكأن عاشر سنة يحجون فيها هي أول سنة يؤدون فيها فرضهم. وعلى بعضهم خطر الرياء من حجه هذا،

فهو يتباهى بذلك في المجالس مما قد يحبط عمله.

ولو أن من سبق أن قضى فرضه، مسك أرضه، وترك الفرصة تقوىً واحتساباً للآخرين الذين لم يحجوا لَكَتَبَ الله له بهذه النيّة حسنات وحسنات، لأنه يلحقه إثم من المزاحمة، فقد يلحقه ذنب من موت الناس في الزحام، وإثم من مضايقة النساء في الطواف والسعي، وإيذاء العجزة، وكبار السن والمرضى، وقد يلحقه إثمُ من لم يجد مكانا في المشاعر مما اضطره إلى أن يقيم خارج المشاعر مما ينقص أجره.

وليس هذا هو ما يأتي من هذه المزاحمة من أذى للحجاج، ولكن يضاف إلى هذا صعوبة حركة التنقلات من وسائل خدمة الحجاج من شرطة وإسعاف وإطفاء ووسائل نظافة، مما يجعل الإعاقة لهؤلاء في بعض الأحيان خطيرة خطراً عظيماً، كإعاقة سيارات الاسعاف مثلاً، أو سيارات الإطفاء، مما قد ينتج عنه موت جماعة تلحق ذمة من

حج للمرة العاشرة سُنَّة، إلا من جاء مَحْرَماً، ومعضداً لعاجز.

وبعض العلماء في الزمن القديم تنبّه إلى هذا، ونبّه إليه الناس، ودلهم على طريق الخير الذي يجلب لهم الثواب وكأن قد حجوا، والقصة الآتية تُري مجهود عالم محتسب لإقناع آخر ممن استولت عليه هذه العادة، وتقليد الناس، دون فهم لأصول الدين ومراميه:

«... أن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث، وقال له:

قد عزمت على الحج، أفتأمرني بشيء؟

قال له بشر: كم أعددت للنفقه؟

فقال: ألفي درهم.

قال: فأي شيء تبتغي بحجك، نزهة أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله؟

قال: ابتغاء مرضاة الله.

قال: فإن أحببت رضى الله وأنت في منزلك،

وتنفق ألفي درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله، أتفعل ذلك؟

قال: نعم.

قال: إذهب فاعطها عشرة أنفس: مدين يقضي دينه، وفقير يَرُمُّ شعثه، ومعيل يحيى عياله؛ وعَدَّ له العشرة؛ وقال له: وإن قوي قلبك أن تعطيها لواحد فافعل، فإنه أبر من مئة حجة بعد حجة الإسلام، وأفضل. قم فأخرجها كما أمرتك.

فقال: يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي.

فتبسم بشر - رضي الله عنه - وقال له:

المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً، وتسرع إليه تظاهراً - يعني بأعمال الصالحين - وقد آلى الله تعالى على نفسه أن لا يقبل إلا أعمال المتقين». [1]

حاول بشر، بما أعطاه الله من فقه في الدين، وحب للنصيحة لله، أن يبصر الرجل بما هو أفضل

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/١٢٢٦.

له، وبما يأتيه بخير أكثر مما نواه، إلا أن بشراً أخفق أمام العادة والتقليد؛ وفسر رفضه بما رآه من أسباب تكمن خلف رفض الرجل، وتَحْكُمُ عملَه.

وأمثال هذا الرجل يوجدون في كل زمان، وتقوم الشكوى فيه منهم، وهم فيما اختاروه لأنفسهم من مضايقة خلق الله مصرون. قبل ما يقرب من خمسة عشر عاماً كنا في مجلس، وقال أحد الحاضرين مفاخراً:

«أننا لم ننقطع عن الحج منذ ثمانية وأربعين عاماً، لا نحن ولا عائلتنا، كنا نقوم بذلك عندما كنا نسكن مكة، واستمر عملنا هذا حتى بعد أن انتقلنا إلى الرياض».

وعلق أحدهم مندِّداً بذلك، وبمضايقة الناس، وبيّن مضار المزاحمة، وفائدة التصدق بهذه الأموال على المحتاجين، وما في هذا من الأجر الواضح، والثواب العظيم، والبعد عن الرياء، وتحطيم الأعمال الخيرة، وحرقها بالتظاهر والمباهاة.

ولكن الرجل لم يقتنع، وأخذ يجادل جدال المقلد المنساق وراء عادة خيّرة، لم يقبل ما هو أكثر خيراً منها، ولكني أعتقد أنه بعد ذلك اليوم سوف يحجم على الأقل عن ذكر حجه وحج عائلته في المجالس كما كان يفعل.

ويبذل العلماء في القديم جهدهم في تبصير الناس بأن الصدقة بمال الحج إذا كان سُنَّة خير ثواباً من الحج، ويسلكون لذلك طرقاً، منها قص القصص التي قد لا تكون كل وقائعها قد حدثت، ولكنهم تجاوزوا عما قد يكون أضيف عليها ما دامت للوعظ، وإقناع الناس بما هو خير؛ وإنها بحق قصص جذابة، ومبنية على أسس دينية أو منطقية، أو بما يقبله الناس في ذلك الزمان، ونجاح وعظ الناس يتم عادة بالغرف من مجتمعهم، وقد تكون القصص صادقة بأكملها فلا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى:

«حكى سبط ابن الجوزي في ترجمة عبدالله

ابن المبارك، قال:

كان عبدالله بن المبارك يحج، ومعه أحمال وصناديق، وخدم كثير؛ فنزلوا منزلاً عن مرو؛ وكان مع بعض خدمه قَبَجَه (طير من نوع الحجل) فماتت، فألقاها الخادم على الكناسة،

وشرعوا في الرحيل، وتجهيز الأثقال، وابن مبارك واقف على دابة له ينتظر المسير، فنظر إلى جويرية تخرج رأسها من باب صغير، وترجع، لعلها تجد فرصة لكي لا يراها أحد، فتغافل ابن مبارك عنها، فخرجت في إزار ليس عليها قميص ولا مقنعة، فحملت القبجة، ودخلت الدار تعدو.

فقال عبدالله لغلامه: إذهب إلى هذا الباب، وأسأل عن الجارية، ولم أخذت القبجة؛ فجاء الغلام، فطرق الباب، فخرجت الجارية، فسألها، فسكتت، فالحّ عليها. وجاء ابن المبارك فسألها، فقالت: أنا وأخت لي في هذه الدار، ليس في منزلنا

إلا ازار واحد، إذا لبسته بقيت أختي عريانة، فهو كسوتنا وفراشنا.

فقال: أليس لكم قيّم؟ فقالت: لا والله، كان أبونا رجلاً موسراً، فظلمنا وغصبنا أموالنا، وبقينا بحال تحل لنا الميتة.

فرق لها عبدالله بن المبارك، وقال لغلامه: إلحق فردّ الأثقال؛ وقال لوكيله: ما معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، قال: إعزل منها عشرين ديناراً، تكفينا إلى مرو؛ وصُبَّ الباقي في إزار هذه الجارية، ففعل الغلام.

وعاد إلى مرو، فقيل له ما الذي ردّك؟ فقال: استقبلنا ما هو أفضل من الحج؛ وفي رواية: ونزع الله من قلبي شهوة الحج في تلك السنة، وعدت إلى بلدي، وأقمت حتى جاء الناس من الحج، فخرجت أتلقاهم؛ فجعلت كل من أقول له: «قبل الله حجك»؛ يقول لي: «وأنت قبل الله حجك». وأكثر عليّ الناس، فبتّ مبكراً، فرأيت

رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا ابن المبارك لا تعجب، فإنك أَغْنَيْت ملهوفة من ولدي، فسألت الله أن يخلق على صورتك ملكاً يحج عنك إلى يوم القيامة، فهو يحج عنك، فإن شئت أن تحج، وإن شئت لا تحج.(١)

وليست قصة عبدالله بن المبارك هي الوحيدة في حث الناس على التصدق بما نوي إنفاقه على الحج على المحتاجين من الفقراء والمساكين، وأن ذلك أكثر قبولاً عند الله. بل هناك قصة أخرى مماثلة، ومجيء هذه القصة بصيغتها هذه، وسيرها مع منهج قصة عبدالله بن المبارك هي التي توحي بأن القصتين أُتي بهما للوعظ، وإرشاد الناس إلى ما هو أصلح في الدين من العادة المتمكنة من اتخاذ الحج عادة يتأذى منها الآخرون ممن يحجون فرضهم، ويحرم من نفقتها من هم في أشد العوز لها، وأكثر حاجة؛ واختيار مثل هذه الالتفاتات الروحية لها

(١) الدرر الفرائد: ٢/١٢٢٧.

تأثيرها على الناس أكثر من الوعظ المباشر المبني على الحقائق المجردة:

«ذكر أن بعض الأساكفة جمع بدمشق ثمان مئة درهم للحج، فتوجه ولده إلى جاره لحاجة، فعاد إليه وهو يبكي، فقال له ما الذي يبكيك؟ قال: دخلت عليهم، وهم يغرفون لحماً قد طبخوه، فلم يطعموني منه.

فقام أبوه، وقرع على جاره الباب، وكان له عليه إدلال، فلما خرج إليه لامه على ذلك، فدمعت عينا الرجل، وقال: حيث اطلعتم على الحال، وقلتم، فلابد من كشفه: إن لنا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً، فرأيت أن الميتة تحل لنا، وهي خير من السؤال، فخرجت فطلبت الميتة، وأخذت من لحمها شيئاً، وهو الذي نطبخ، وقد كرهت أن أطعم ولدك منه، وها هو حاضر على النار.

فلما علم الإسكاف حقيقية ذلك قال: يانفس هذا حجك، وحمل إليه ثمان مئة درهم بتمامها،

فتوسع حاله.

فلما كان عشية عرفة رأى ذا النون المصري - رضي الله عنه - في منامه قائلاً يقول له:

أترى يا ذا النون هذه الرحمة التي نزلت على أهل الموقف؟ نزلت لأجل رجل تخلف عن الحج، وحج بقلبه، فوهب الله له أهل هذا الموقف. فقال ذا النون: ومن هذا الرجل؟ قال: إسكافي يسكن دمشق اسمه فلان، فقصده ذو النون، وطلبه حتى ظفر به وزاره». [1]

مجرى القصتين متماثل، وهدفهما ومرماهما واحد، فالرجل في كليهما نوى الحج سنّة، ثم رأى فقيراً مدقعاً فاستخار الله عن الحج، وأعطى نفقته لهذا المحتاج، ثم رأى، أو رئي له، أن الله قبل منه.

وقد يُقبل من أجل الوعظ ما لا يقبل في غيره، ويُتغاضى عما قد يرد فيه من الأمور العجيبة أكثر مما يتغاضى عنه في غيره.

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/ ١٢٢٩.

والدخان وشربه آفة من آفات الصحة والمجتمع والجيب، ومهاجموه كثيرون، وكذلك الملصقات عنه، والمحاضرات الملأى بالتحذير، والوعظ والتشديد عليه على قدم وساق؛ وقد سمعت قبل سنوات في الطائف واعظاً في أحد المساجد يحذر منه، ويبين أضراره، وجاء بقصة تعضد ما قاله في غضب الله على شارب الدخان فقال:

«إن رجلا يبدو للناس خيّراً مستقيماً، لا أحد ينتقد عليه تقصيراً في الصلاة، ولا شحّاً في اليد، ولا بذاءة في اللسان، ولا تهاوناً بالواجبات، يحفظ حق أهله وجاره، ويعامل الناس معاملة حسنة، وكان الناس يرجون له خيراً عند الله.

فلما توفاه الله أخذوه إلى مقبرة العود في مدينة الرياض، فلما أنزلوه في قبره، وقبلوه القبلة، انقلب إلى خلافها، فأعادوه، فعاد، فصار هذا دأبه، كلما قبلوه القبلة انقلب بدنه إلى خلافها، فنظر الناس بعضهم إلى بعض، وتشاوروا بينهم

حيال هذه الظاهرة العجيبة التي لم يشهدوا لها مثيلاً من قبل، ولا عرفوا لها تفسيراً.

فاستقر رأيهم على الذهاب إلى بيت أحد العلماء الكبار يسألونه عن هذا الحدث وتفسيره، فقال لهم: لعله شارب دخان، فقالوا: ما شهدنا عليه بهذا. فقال: إذهبوا إلى زوجته، فإن كانت مثلكم لا تعلم عن ذلك شيئاً، فاطلبوا منها أن تبحث في جيب ثوبه.

فلما بحثت في ثوبه وجدت آثار ورق الدخان، وتبين للجميع أنه كان شارب دخان يخفيه، ونجح في أن لا يعرف عنه أحد حتى أقرب الناس إليه.

ولعلك تتوقع مثلي معرفة ما تم بعد ذلك مع الجثمان، فالواعظ لم يتحدث عن هذا، فقد وصل إلى المنحنى الذي يريده، وأكمل وعظه بالهجوم على شارب الدخان، ومصيره، وكيف أنه قد يصبح من غير أصحاب القبلة.

ولي دالة على هذا الواعظ، وحاولت أن أعرف

مصدر القصة، أو صاحبها، ولكني لم أفلح. وسألت أخا العالم الكبير، وهو عالم مثله، فابتسم وقال: «إنها لم تحدث، أما فلان الواعظ فابن (حلال) مجتهد!».

ومحاولة تصفية الحج من النيات غير المخلصة، والحرص على الإتيان به على الوجه الصحيح، ليؤمل المرء القبول، اهتم به العلماء، وجاء على لسانهم ما يصف بعض أنواع الحج التي عليها ملاحظات.

قال ابن مسعود - رحمه الله -:

في أواخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب، ويهون عليهم السفر، ويبسط لهم الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين القفار والرمال، وجاره مأسور إلى جنبه، ما يواسيه بصلة. تبّاً له ما أجهله.[1]

أليس ابن مسعود يكاد يصف بعض حجاج اليوم؟ لعل الظّاهرة قد بدأت في أيامه، ثم

(١) الدرر الفرائد: ٢/١٢٢٦.

استفحلت مع مرور الزمن، وضَعْفِ إيمان الناس، وحرصهم على المظاهر، وركضهم وراءها، وذلك محبط للأعمال، محرق للجهود.

وأنس بن مالك رضي الله عنه له مشاركة في هذا، ومشاركته قوية، لأنه يروي عن رسول الله ﷺ فإذا صح الحديث فقوته لا تجارى، وإن لم يصح فيكفى أن أنساً له دخل فيه، أو أحداً في زمانه، المهم أنه ينطبق على زماننا، رغم أنه قيل قبله بقرون:

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان تحج أغنياؤهم للنّزهة، وأوساطهم للتجارة، وقُرّاؤهم للرياء، وفقراؤهم للمسألة». (١)

والشعر، وأبو الشمقمق لهما مشاركة في هذا: يقول أبو الشمقمق:

إذا حججت بمال أصله دنس
فما حججت، ولكن حجت العير

(١) الدرر الفرائد: ٢/١٢٢٦.

لا يقبـــل الله إلا كـــل طيبـــة
ما كل من حج بيت الله مبرور[1]

فما بالك بمن يذهب للمشاعر، وليس في نيته الحج، ولكن القتل، لا تستغرب، فالقاتل مصرِّح بذلك قبل أن يقدم على فعلته، ومصمِّم عليها، واختار وقت الحج بعينه، ومع هذا وجد من يدعو له بأن لا يعذب وجهه في النار، وهذه هي القصة:

سمع أبو حازم امرأة ترفث في كلامها، فقال لها:

يا أمة الله ألست حاجة؟ أما تخافين الله؟

فسفرت عن وجهها، فإذا هي أجمل الناس، فقالت: أنا من اللواتي قال فيهن الحارث بن ربيعة:

أماطت كساء الخز عن حرّ وجهها
وردّت على الخدين برداً مهلهلاَ
من اللائي لم يحججن يبغين حجة
ولكن ليفـــتن الـبرىء المغفـــلا

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٣٥.

وقيل: «ليقتلن بدلاً من ليفتن».

قال: فإني أسأل الله الا يعذب هذا الوجه بالنار.

فبلغ ذلك سعيد بن المسيب، فقال رحمه الله، لو كان من عباد العراق لقال لها: أغْربي، يا عدوة الله، ولكنه ظرف عباد الحجاز.[1]

هذه صور متفرقة كلها عن الماضي إلا ما جاء عرضاً عن الحاضر، مما أوجبته المقارنة، أو سمح به تداعي الأفكار، أو أدى إليه الاستطراد، وهي صور طريفة لابن اليوم، ولا تخلو من عبرة لمن اعتبر.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/١٣٧، الأغاني: ١٧/١٢٠، عيون الأخبار: ٤/٢٩، حيث الرواية تختلف.

مكة في الماضي[1]

مكة قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يتّجه إليها ملايين من الناس يومياً في صلاتهم خمس مرات على الأقل، وتهفو إليها أفئدة المسلمين. والذي يرى مكة اليوم، ويرى المرافق المتكاملة، ويلمس الإزدهار والرخاء الذي تنعم به، لا يصدق ما كانت عليه في الماضي من أسباب العسرة والفوضى التي كان يعاني منها الحاج أو المعتمر؛ وأَخْذُ كتاب واحد من الكتب التي كتبت عن مكة في الماضي، وفَصَّلَت تاريخها، أو كتب الرحلات التي وصف أصحابها ما رأوه فيها ولمسوه، وعانوه أثناء زيارتهم لها، يكفي ليعطي فكرة يحمد الله من يراها اليوم على ما هي عليه من صورة جميلة ووضع متميز.

وسوف أقتطف بعض السمات التي كانت

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٤٨) في ١٠/ ١٢/ ١٤١٤هـ الموافق: ٢١/ ٥/ ١٩٩٤م

سائدة في فترات متلاحقة من تاريخها، وسوف أقتصر على كتاب واحد تقريباً، وأبين بعض ما سوف يدهش منه القارئ ، ولا يصدق أن هذا كان حادثاً في بلد الله الحرام. ولعل لبعد مركز السلطة عنها، ونأي مقر الخلافة، وضعفها أحياناً، والتطاحن بين حكامها، دخل كبير فيما عانت منه، فكانت مكة الضحية لهذا التطاحن والصدود، مما سهل أن يعبث في محيطها العابثون.

وكان بعض المسؤولين الذين يأتون إلى الحج، لقيادة الحجيج، يفزعون مما يرونه من أمور لا تليق بأطهر بقاع المسلمين، فيأخذون على عاتقهم تعديل المعوج، وإصلاح الفاسد، ووضع الأمور في نصابها، ويتم هذا بالقوة، ولكنهم إذا عادوا إلى بلادهم عادت الأمور الخاطئة إلى ما كانت عليه، إما لضعف الحكم المحلي، أو لانشغاله، أو لأن له مصلحة من بقاء الأمر المعوج.

وأغلب ما كان منتقداً كان يعود إلى تشجيع

الناس له، إما لأنه يحسن من دخلهم، أو يشبع عاطفة دينية قد يأتي منها مكسب، يكون مصدر رزق، إذ أن موسم الحج ومواسم العمرة فرصة فريدة للكسب المادي، سواء كانت كسباً للمقيم الدائم في مكة، أو للطارئ الذي جاء مؤقتاً ليؤدي فرضه، أو يتزود بالسنن.

وأول ما يلفت النظر زحف وسائل الكسب على مواطن العبادة، حتى تصبح التجارة مزاحمة للعبادة، ومتفوقة عليها، فالمسجد الحرام، وهو المكان الأول للعبادة، تزحف عليه جيوش التجارة، وتحتل منه أماكن مهمة إن لم تزحزح المصلين والمتعبدين فإنها تزاحمهم وتضايقهم، فلا يستطيعون معها التفرغ للعبادة، والتركيز عليها، هذا مع ما ينتج عن هذا من أوساخ لا تليق بمكان طاهر مثل الحرم، بما فيه من مصلين ومتعبدين، وما يعج به من حلقات دروس، تضم علماء ودارسين من جميع أنحاء العالم.

ومن النص الآتي الذي أورده «الجزيري» في كتابه «الدرر الفرائد»، يمكننا أن نأخذ صورة لما كان عليه الحرم حينئذ، وما هو عليه اليوم لنحمد الله على النعمة التي نتمتع بفيء دَوحتها:

«في سنة (٨٣٠) للهجرة ورد حكم سلطاني يمنع الباعة من بسط البضائع أيام الموسم في المسجد الحرام، ومن ضرب الخيام في المسجد الحرام». [١]

وهذا يدل على أن المنع انصب فقط على أيام الموسم لكثرة الناس وازدحامهم، وتوقع الأذى والضرر، أما في غير الموسم فبسطات البضائع تجد في الحرم خير مكان لها، ولعل الخيام المشار إليها نصبت لتظليل البضائع، وإيواء الباعة سواء أيام الموسم أو غيرها. ويلاحظ أنها كانت قائمة أيام المواسم الأخرى، وأن المنع طرأ هذا العام فقط.

ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي عانى منه

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٧١٥.

المسجد الحرام، ولكن هناك أموراً أشنع وأدعى للغرابة بعيننا اليوم، أما بعين أهل ذلك الوقت فلم تكن منتقدة إلا من أناس قليلين كانوا سبباً في اتخاذ خطوات لإصلاح ما فسد مع مرور الوقت، وتعود الناس عليه تدريجياً وهو يزحف دون أن يُلحظ اعوجاجه، والقول الذي سوف اقتطف منه هنا كان في حدود عام (٩٤١هـ):

«ثم جاء في الموسم الثاني مرسوم صحبة الركب... بمنع الكلاب والجواري الحاملات لقرب الماء والجمال من الدخول في المسجد الحرام، واستطراقه، والمرور فيه بغير حاجة».[١]

والناس وجدوا في براح الحرم وتوسطه فائدة تعوضهم عن ضيق الحارات، وتكدس البيوت، فالحرم متنفس لكل ذي مهنة يعرض بضاعته، أو يمر بها ليقصر طريقه، ويقل تعبه، والجارية حاملة الماء بحملها الثقيل تجد فيه بغيتها. والجمال

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٧١٥.

بأحمالها التي قد لا تتسع لها أزقة الحارات ومنحنياتها تجد في الحرم ما يحل عسرتها، فالحرم أصبح سوقاً تعرض فيه البضائع، وتنصب الخيام، وتعبر منه قطر الجمال ذاهبة آيبة، إلى أن جاء هذا المنع، فأعاد للحرم هيبته، وقصر عليه وظيفته، ووكل أمر المراقبة والتنفيذ لبوابين جدد عينوا، وعينت لهم مرتبات.

هذا عن إزالة بعض ما كان قائماً مما يدنس حرمة الحرم، ويتداخل مع وظيفته، وتهيئته للعمل الرئيس الذي جعل له، ولكن هذا جانب من جوانب الإصلاح، وما لم توضع أسس لحمايته فإنه سرعان ما يعود الأمر إلى ما كان عليه. ولهذا أضيف للمرسوم السابق أمور تؤكد عزم السلطان على بقاء نوافذ الإصلاح هذه مفتوحة ليأتي منها نسيم العمل الصالح المرجو:

«جاء في الموسم الثاني مرسوم صحبة الركب بأن تفتح الأبواب كلها، ويعزل البوابون القديمون،

وكانوا قضاة وفقهاء، ويولَّى على أبواب الحرم بوابون ليس لهم حرفة ولا صناعة ولا شغل، فقراء مساكين؛ فقرر لكل باب بواب، وعزل من كان بواباً قبل ذلك، وألزم البواب بملازمة باب الحرم ليلاً ونهاراً، وأن لا يغيب عنه إلا للضرورة، وأن يتعاهد البواب بابه بالكنس والرش والتنظيف.. ورسم السلطان أَن يقر لكل بواب عشرة أشرفية، معلوماً كل عام تحمل إليه من أوقاف الحرمين». [1]

إذا كانت الخطوة الأولى سلباً لخطأ كان قائماً، فهذه الخطوة إيجابا لعمل قادم، يمنع عودة الأمر المنتقد السابق. والنص واضح بما كان الأمر عليه، فالأبواب كانت شرفاً في يد من لا يقوم بحقها، لأن له مهنة أخرى أكبر من هذه، وإذا كانت هناك فائدة مادية، فإنه يأخذها من لم يتعب لها، وجاء التنظيم الجديد، فأعطى القوس

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٧١٥.

باريها، وجاء بأناس متفرغين، لهم رواتب ثابتة ومجزية، ووضعوا أمام مسؤوليتهم، وحدد عملهم، ومايلزم لنجاحهم فيها. فأخذ الحرم حقه من الكنس والتنظيف، ومنع دخول الكلاب، وحمايته من مرور الدواب، ونشر البضائع.

وقبل ذلك بأكثر من مئة وثلاثين عاماً، وبالتحديد في عام (٨٠٤هـ)، لم تكن حالة المسجد من حيث نظافته، والعناية به، بأحسن مما وصفنا، والنص التالي يبين ما كان عليه من حالة يرثى لها، مما اضطر أمير الحاج المصري أن يتخذ إجراءاً حازماً، اتّهم من أجله بأنه كان واجداً على أهل مكة:

«في سنة (٨٠٤هـ) كان أمير الحاج المصري الأمير بكتاي الأزدري، وتوجه الأمير بيشق الشيخي إلى مصر في ١٩ جمادى الأولى، ووكل في عمارة المسجد الحرام جماعة من غلمانه، وكان واجداً على أهل مكة، وأهان كثيراً منهم، وأمر بوابي المسجد

بملازمة أبوابه، وتنظيف الطرقات والأوساخ والقمائم، وألا يحمل السلاح بمكة، وإخراج بَنَات الخطأ والمخنثين، وغيرهم من أهل الفساد عن مكة» .[1]

وأمر البوابين هذا يبدو أنه كان معضلة، ولعل الحل الذي اتخذ بعد أكثر من قرن جاء بالعلاج الناجع، وهو ما أشرنا إلى حدوثه في عام (٩٤١هـ) وهذا النص يأتي بما هو أكثر بشاعة تؤكد ما يدل على إفساد الأخلاق في هذا البلد الطاهر، ومنع السلاح يدل على ضعف الأمان من كثرة تقاتل الفئات على الحكم، مما أوجب تدخل ممثل السلطان الذي يأتي في مواسم الحج بسلطات واسعة، قد تدخله في صدام مع الحاكم من الأشراف.

ويبدو أن اتخاذ المسجد الحرام متنفساً لأصحاب البضائع، لعرض ما لديهم قديم، ولم تبدأ الالتفاته إليه إلا عندما بدأ يضايق الناس في عبادتهم،

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٦٨٦.

ويتبين هذا أكثر فأكثر أيام المواسم، ولكن الأمر يهون في أعين الناس في الأيام التي يقل فيها الحجاج والمعتمرون، بل لعل هذا يساعد في أنه موقع متوسط يصله الناس من جميع الاتجاهات. يقول الجزيري في حوادث عام (٨٣٠هـ):

«وورد حكم سلطاني يمنع الباعة من بسط البضائع أيام الموسم في المسجد الحرام، ومن ضرب الناس الخيام في المسجد الحرام». [١]

ولم يكن الحرم وحده الذي كان يحتاج إلى التفاتة؛ بل كان المسعى أيضاً يعاني من سوء الاستعمال، فقد وجد فيه الباعة بغيتهم، فتدريجياً بدءوا يستفيدون منه «لبسطاتهم»، وعرض بضائعهم على جنباته حتى ضاق عن الساعين، مما أوجب اتخاذ خطوة حازمة تعيد إليه حقه من السعة والاحترام:

«سنة (٩٦٠هـ)، وفي ثاني المناداة ركب قاضي

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٧١٥.

مكة، ونائب جدة، وأزالوا جميع الدكك التي بالمسعى، ليتسع المسعى، وقد كان قديماً واسعاً، ثم ضيق بالأبنية، لتسامح الناس للكرا من هذا المشعر تعدّيا وظلماً؛ فقد ذكر في التاريخ أن عرض المسعى كان ستة وثلاثين ذراعاً، وقد ضاق في زمننا خصوصاً وقد وضع فيه الدكك، فيحصل الأذى أيام الحج» .(١)

وتضييق المباني للمسعى وللحرم أمر قديم، لعل أول من واجهه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتصرف تجاهه بما ارتأى أنه في صالح المسلمين. ولعل هذا الأمر لو درس، وتتبعت مراحل معالجته لكشفت الدراسة عن معلومات ممتعة:

«في سنة سبع عشرة وسع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد الحرام بدور اشتراها، ودور هدمها على من أبى البيع، وترك ثمنها لأربابها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد» .(٢)

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/ ٩٢٧.

(٢) الدرر الفرائد: ١/ ٤١٧.

وحَزْم عمر حقق له هذه الخطوة التي أفادت عثمان رضي الله عنه فيما بعد، فاقتدى به في توسعة الحرم، ورد على اعتراض من اعترض بما فعله عمر رضي الله عنه:

«في سنة ست وعشرين اعتمر عثمان بن عفان رضي الله عنه من المدينة، فأتى مكة ليلاً ودخلها، وطاف وسعى، ورحل قبل أن يصبح، ورجع إلى المدينة؛ وأمر بتوسيع المسجد الحرام بدور اشتراها، ودور هدمها على من أبى البيع، وترك ثمنها لأربابها في خزانة الكعبة، وأمر بهم فحبسوا؛ وقال قد فعل ذلكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يصيحوا به، فكلمه عبدالله بن خالد بن أسيد، فأطلقهم».[1]

ولم يكن الاحتساب فقط في التوسعة، أو منع عرض البضائع في الحرم، أو جعله ممراً للجمال والجمالين، أو حفظه من دخول الكلاب بل هناك

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٤١٩.

أمـور مبتـدعـة، نبتـت بـإغـواء إبليـس ألصقـت بالكعبة، فكان فيها من الإفساد ما كان، حتى قيض الله لهذه البدعة من اجتثها:

«سنة (٧٠١هـ)، وفيهاأزيلت البدعة التي كانت بالكعبة الشريفة، يقال لها «العروة الوثقى»، وهي من وضع الفجرة المحتالين، عمدوا إلى موضع عالٍ من جدار البيت المقابل لبابه، وأوقعوا في قلوب العامة أن من ناله فقد استمسك بالعروة الوثقى؛ فأحوجوهم إلى أن يقاسوا في الوصول إليها شدة وعناءاً، ويركب بعضهم فوق بعض، وربما صعد النسـاء فـوق الـرجـال، ولامسـن الـرجـال، ولامسوهن، فلحقهم بذلك أنواع الضرر ديناً ودنيا.

وسبـب إزالـة هـذه البـدعـة أن الصـاحـب زين الدين أحمد بن حنّا قدم مكة، فرأى هذه البدعة، فأمر بقلع هذا المثال، فزالت هذه البدعة، ولله المنة» (١).

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٦١٥.

قلع هذه الحلقة البدعة احتاج إلى سلطة مثل سلطة الصاحب، حتى يزال هذا المنكر، الذي لم يجد أحداً من حكام مكة وقضاتها يقدم عليها رغم وضوح الضلال فيه؛ والغريب في الأمر في تثبيت هذه الحلقة، ومن الذي أقدم عليه، وما هي سلطته في ذلك؟! هذا يدل على ضعف الحكم، وعدم تقديره للشرع وحامليه، مما سمح لمثل هذه الخرافة أن تحدث في حرم الله، وفي الكعبة!

ومن المظاهر التي كانت تتكرر سنوياً دون أن يوجد حل لتفاديها، كثرة الموتى بسبب الزحام، سواء في الكعبة أو عند أبواب الحرم، هذا والأعداد في تلك الأيام لم تكن بما نعرفه اليوم:

«سنة (٥٨١هـ) مات في الكعبة من الزحام أربعة وثلاثون نفساً»[١].

ومثلاً آخر في سنة (٦١٧هـ) «مات جماعة من الحجاج في المسعى من الزحام»[٢].

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٥٧٤.
(٢) الدرر الفرائد: ١/ ٥٨٧.

«وفي السنة التي تليها مات بالمسعى جماعة من الزحام، لكثرة الخلق الذين حجوا في هذه السنة من العراق والشام».[1]

ولا يستغرب الموت بسبب ازدحام الناس في المواسم، لأنهم يبدؤون تجمعهم تدريجياً في مكان لا يتحمل إلا عدداً قليلاً، فيزيد العدد قليلاً قليلاً، حتى لا يعود المكان يتسع، ويزيد الضغط من الخلف، وكل يحرص على الدخول أو المرور، ولا يدري عما أمامه، ويستمر الضغط، ويقوى بعدد من ينضم، فيقع من جراء ذلك في المقدمة أو في الوسط بعض ضعاف الجسم، أو كبار السن، أو من يتأثر بتزاحم الأنفاس، فيتسبب في وقوع آخرين، ثم تبدأ سلسلة التساقط، والوطء بالأقدام، ولا سيطرة للأجسام على نفسها، فالذي يُصرِّفها الضغط، ومن في الخلف لا يدري ما هو حادث في الأمام، ولا وسيلة لمن في المقدمة أن يخبر

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٥٨٨.

من في الخلف. ولا ينفرج الأمر حتى يستطع قوي الجسم، ومن يجد فجوة أن يشق طريقه، ويجلّي الأمر.

ـ[1] «وفي سنة (٧٨٤هـ) كان الحج بمكة كثيراً، وقال الشهاب بن حجر في: «أنباء الغمر»: بحيث مات من الزحام بباب السلام أربعون نفساً. أخبر الشيخ ناصر الدين بن عشاير أنه شاهد منهم سبعة عشر نفساً موتى، بعد أن ارتفع الزحام، وأن شيوخ مكة لم يروا أكثر منهم في تلك السنة».[2]

هذه نماذج لما كان يحدث من موت الناس بسبب الزحام المعتاد، وكانت تحدث حوادث مفاجئة أخرى من أسباب طارئة خارجة عن المعتاد يكثر فيها عدد القتلى، مثل ما حدث في عام (٦٧٧هـ):

«وفي يوم الخميس ١٤ ذو الحجة، حصلت

(١) من هنا تبدأ إضافة لما نشر في عكاظ.
(٢) الدرر الفرائد: ١/ ٦٨٦.

مزاحمة بين الحجاج عند خروجهم إلى العمرة من باب المسجد الحرام المعروف بها، بعد صلاة الصبح، فاعترضهم جمل في فم الزقاق في آخره، وهو زقاق ضيق جداً، فدفع بعضهم بعضاً، وزاحم الآتي الواقف، وترادف عالم لا ينحصر إلى أن دهك الناس الجمل، وأوائلَ الناس حوله، فخرج منهم القليل، وبقي الآخرون يموج بعضهم في بعض، فمات الجمل، ومات حوله جمع كبير، ما بين رجل وامرأة، فقيل (٣٢)، ويقال (٣٤)، ويقال (٣٥)، ويقال (٤٨)، وقيل (٥٢)، وقيل (٥٧)، وقيل (٧٧)، ويقال نحو الثمانين. وقيل منفرداً (١٢) ميتاً في موضع واحد؛ لم يدفنهم أحد إلى آخر النهار، وأما من نقل إلى منزله وفيه الروح، ومات عند أهله فكثير جداً. وبقي منهم أقوام بحشاشة الروح إلى أن مات بعيداً من الناس ومنهم من حمل في أول الأمر، قبل أن تأتي أعوان أمير مكة، وقال بعض من خرج من تحت الموتى

وعاش: عددت (٥٠) ميتاً إلا اثنين». [١]

ومن الأمور التي كانت تشغل الناس في ذلك الوقت، واضطرت السلطات العليا خارج مكة، أن تتدخل فيها، وأن تعيد تنظيمها، وهي تعدد صلاة المغرب حسب المذاهب، مما يسبب التشويش على المصلين، إضافة إلى مظهر التفرقة في الأمور الجوهرية في الإسلام:

«في موسم سنة (٨١١هـ) أبطل الناصر فرج صلاة المالكي والحنبلي والحنفي في صلاة المغرب، لأنهم كانوا يصلونها في وقت واحد، وبسبب اجتماعهم في هذه الصلاة يحصل للمكبرين لبس كبير، لاختلاف أصوات المبلغين. وهذا الفعل ضلال في الدين، وصار الشافعي يصلي بمفرده بالناس المغرب. واستمر ذلك إلى الموسم سنة ست عشرة». [٢]

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٦٠٥.

(٢) الدرر الفرائد: ١/ ٦٩٠.

قد لا نتصور اليوم أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث، ولكنه حدث؛ لأن أسباب الاختلاف كانت حينئذ قائمة، ولم يكن هناك من يستطيع أن يفرض الاقتصار على مذهب بعينه، إلى أن جاء ذلك من خارج الحكم فيها، فَفُرِضَ بسلطة الحكومة المركزية، مذهب بعينه، يتبعه جميع المصلين، واسترد للصلاة في أقدس البقاع المظهر الحق للدين الإسلامي.

ولكن هذا لم يدم فسرعان ما جاء أمر بعد خمس سنوات من صاحب مصر يعيد الأئمة إلى ما كانوا عليه من الاشتراك في صلاة المغرب:

«سنة (٨١٦هـ) ورد أمر المؤيد، صاحب مصر، أن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب جميعاً كما كانوا يصلون قبل ذلك، ففعلوا ذلك». [١]

وعلى هذا عاد المظهر المنتقد، وعاد المصلون إلى المعاناة من تداخل تكبير المبلغين. وبقي الأمر

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٦٩٦.

كذلك إلى أن قيض له من يعالجه.

وأن يحدث بمكة غلاء لسبب أو آخر مثل الذي حدث في عام (٤٤٧هـ) فليس غريباً خاصة أنه كان موسمها الحج في المقام الأول والعمرة في المقام الثاني، فإذا حدث في البلدان التي يأتي منها الحجاج أو المعتمرون هزة اقتصادية، أو حصل خوف في مكة أحجم على أثره كثير من الحجاج، فإن العسرة في المعيشة في مكة تطل برأسها، وتضغط بقوة على الناس هناك:

«سنة (٤٤٧هـ) كان بمكة غلاء شديد، بلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذر وجوده، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك، فأرسل الله تعالى عليهم الجراد حتى ملأ الأرض، فتعوضوا هذا الغلاء. وسببه عدم زيادة النيل بمصر، فلم يحمل منها الطعام إلى مكة»[١].

أما الغريب في ما يحدث في مكة فهو ما يقوم به

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٥٤٧.

الناس من أعمال تتنافى مع العقل أو الدين أو المنطق، مما يجعلنا في يومنا هذا نستغربها، وندهش لوجودها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الجزيري نقلاً عن ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر»:

«ومن عجائب أهل مكة أنهم كانوا يمشون بين يدي الخطيب يوم الجمعة بمقلاع يُضرب على غفلة، يزعج المكان والناس، فأنكرت هذا؛ فقالوا: هذا شعار لهم؛ فقلت: بئس الشعار، هذا مكان يجب احترامه عن رفع الأصوات، والأذان يكفي». [1]

وهذا يهون عند فعل آخر فرضه بعض الحكام البعيدين عن فهم تعاليم الإسلام، ومحاولة فرض هيبتهم عن طريق طقوس يبتدعونها، نجدها اليوم مرذولة، ونستغرب من وجودها في ذلك الزمن، وإن كنا عند التمعن نجد أن استغرابنا يزول عند التبصر فيما هو أسوأ منها من أفعالهم في غير هذا المجال:

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ١٨١٥.

«وفي هذه السنة (٣٩٦هـ) أمر الناس في الحرمين بالقيام عند ذكر صاحب مصر في الخطبة؛ لأن ذلك عادتهم بمصر والشام، بل كانوا إذا ذكر قاموا وسجدوا في السوق، وموضع الاجتماعات»[1].

هذه بعض الملامح الغريبة التي مرت على أديم مكة الطاهر، وعانت منها، وهي أمور نستغرب أن تحدث في مهبط الوحي، ولكنها حدثت، لأن الأسباب مهدت لها، وأهم هذه الأسباب ضعف الحكم، والفوضى التي كانت ضاربة أطنابها هناك، مما زعزع الأمن وأخاف السبل. وما عددناه نماذج مختصرة، اقتبسناها من سيل جارف من الحوادث المتتابعة على مر ما يقرب من عشرة قرون منذ أن بزغ نجم الإسلام، حتى اليوم الذي حج فيه الجزيري وسجل ما رآه في حجه إلى بيت الله الحرام في كتابه القيم: «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» الذي قام

---

(١) الدرر الفرائد: ١/ ٥٣٥.

بتحقيقه ونشره الأستاذ الكبير حمد الجاسر، من ضمن منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

وهذا الكتاب هو واحد من بين عدد كبير من الكتب التي كتبت عن مكة وتاريخها، وكتب الرحلات التي قام بها مسلمون جاؤا إلى الحج أو العمرة، أو غير مسلمين جاؤا مختفين تحت ستار الإسلام لأغراض مختلفة.

ومقارنة ما قلناه عما كان في مكة من أمور، وما كان يحدث فيها من حوادث بما هي عليه اليوم من تقدم في مرافقها، وأمن في سبلها، وخدمة لحجيجها ومعتمريها، وتوسعة في طرقها وفي حرمها وساحاته، وسهر على أن يكون ما يؤتى فيها متمشياً مع السنة، مبعداً عن أي خرافة أو بدعة، يحمد المرء الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة الجُلَّى، ويسأل الله أن يديمها، وأن يجزي القائمين عليها خير الجزاء.

رسول الكبر[1]

الشيب هو رسول الكِبَر، يأتي فيطرق الباب، وينبئ عن الكبر، وفي كل يوم له خبر، أو جزء من خبر، لا يني عن الإخبار، ولا يمل من طرق الباب، لا ينسى يوماً، ولا يغفل طرقة واحدة، لا يخلف ميعاده، ولا يهمل في أوقاته، إن لم يزد في الطرقات لم ينقص، وإن لم يقوِّها لم يضعفها.

هو ضيف مرحب به وغير مرحب، محبوب وغير محبوب، خفيف وثقيل، مقبول وغير مقبول؛ فأما حالات الترحيب والقبول والرضى وخفة الوطء فلأنه دليل امتداد العمر، وطول بقائه، وأن هادم اللذات لم يزر ليهدم، ومفرق الجماعات لم يأت بمعوله ليقوض، وأن الله سبحانه وتعالى قد مدّ في عمر المرء، وأمكنه من حياة طويلة؛ وأما أنه ثقيل وغير مقبول فلأنه يأتي

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٥٥) في ١٧/ ١٢/ ١٤١٤هـ الموافق: ٢٨/ ٥/ ١٩٩٤م

تدريجياً ومعه علامات الهرم والشيخوخة، وطروق الأمراض، ومنغصات الصحة، من ضعف السمع والبصر، وألم المفاصل، وأوجاع المعدة والأمعاء، وغير ذلك مما لم يكن من سمات الشباب؛ مع سرعة التعب، وقلة النوم، وانعدام الجهد.

والشيب وبياض الشعر الرسول النذير بالكبر، وهو أول ما يظهر للناس، ويفضح السن، ويقلق المرء، لأنه ينفِّر الغانيات، ويزهدهن في الرجل، وهو قلق عظيم ظهر في شعر الشعراء، فكان نفثة حارة لما يشعرون به في هذا المجال، وهم الذين يحملون في شبابهم راية الغزل، وعلم التشبيب، ويفاخرون بحق، أو بغير حق، بإعجاب الفتيات، وعشقهن لهم؛ واليوم مع الشيب وإنذاره، يُدبر المقبل، ويرفض المقبول، ويهزأ بالموقر، وتحل الرحمة محل الإعجاب، والذم مكان المدح، ويصبح المرء في أعينهن من سقط المتاع، بعد أن كان ملء السمع والبصر، وبعد أن كان ذكره على الأفواه،

وفي المحافل؛ تنقله الركبان، وتحمله معها القوافل، واليوم يصبح في ركن قصي، ولايزيد عن أن يكون ذكرى من الذكريات؛ يُستدعَى أحياناً، وينسى أحايين، يُرد إلى أرذل العمر بعد أن كان في أعزه، ويؤول أمره إلى أن يساوي الأطفال حيلة وعقلاً، ونظرة من الناس، وقد يؤول إلى عجز، فيكون عبئاً ثقيلاً، وحملاً لا يطاق.

لهذا كانت نفثة الشعراء تجاه الشعيرات البيضاء المتسللة إلى مُدْلَهَمّ غابة الشَّعر السوداء الداكنة، شعراً مرعباً، ينفعل الشاعر به، وهو القادر على تصوير شعوره، فيصور رعبه هذا بصور متعددة، مرة بالمغالطة، ومرة بالتأويل، ومرة بالتفسير المزوّق الجميل، ومرة بالاستعارة الكاذبة، ومرة بالمثل المضلل؛ ويخدر الشاعر نفسه بهذا، ويتخدر معه غيره من الشعراء، لأنه كأنه يتكلم باسمهم، إذ أنه يصف حالهم، ويظهر شعورهم. ثم يبقى الشاعر يقول الشعر منذ أن تنبت في وجهه أو رأسه

شعرة بيضاء حتى آخر يوم من عمره، يلوّن في شعره عن المشيب والكبر، وينوع في أفكاره عن ذلك.

وما قيل في الشيب شعراً يكاد لا يحصى، بل إن أحد المستقصين ألف فيه كتاباً، لم يجمع فيه إلا قليلاً من كثير. وهذا السيل الجارف من الشعر يدل على اهتمام الشعراء في هذا الجانب، وتأثيره عليهم، ومخايلته لهم ليلاً ونهاراً، وفي كل وقت يزين فيه الشباب، ويشين الشيب، أمام الغواني في التزين والعرض، وأمام المواقف التي تحتاج إلى جهد وقوة؛ فهذا محارِبٌ يقف في الميدان بجهد محدود، يرى الشباب يصولون ويجولون، يأخذون الفخر، ويخطفون البصر، ويستولون على الألباب، بما يقومون به من أفعال، وما يأتون به من أعاجيب البطولة، وفنون الشجاعة، خاصة الفرسان على خيولهم، والرماة خلف أقواسهم، والمبارزين مع سيوفهم، وهو معه شَيْبُه، يُحمل على

الفرس حملاً، ويده ليس بها من القوة ما يشد القوس، أو يحمل ثِقْل السيف.

وهذا شاب يجوب البراري والقفار على قدمه، لا يشكو تعباً، ولا يهمه جهد يبذله، أو مسافة يقطعها، هدفه أمامه، وما عليه إلا أن يسير إليه حتى يصله، أما الشيخ فإنه أضحى يدب دبيباً، يعد الخطوة، ويحسب حساب الأرض الرخوة يمشي عليها، والحَزْن يصعده.

وليس الشعراء وحدهم من شكا من الشيب والكبر، ولكنهم أكثر من سُجِّل له ذلك، لطبيعة الشعر، وحفظه، وسوف نأتي هنا على نماذج مما قالوه، مما يكشف عما كان يدور في أذهانهم، ويقلقهم، فيخرج هذا الشعر شعراً مذابا، شفافاً بما في داخلهم:

هناك شاعر شكا من الشيب، وكرر الشكوى، فلم يجد له ناصراً، ومن ينصره على نظام الكون الذي أحسن الله سبحانه وتعالى ترتيبه، وأتقن

صنعه، والشاعر يعرف هذا، ويعرف عجزه وعجز الناس، فأخذ الأمر بيده، واعتبره عدواً لشبابه، فامتشق حسام الصبغة، وراح بالفرشة وآلاتها يسود وجه المشيب، جزاء له على تسويده وجهه مع الناس، وخاصة النساء، وخاصة إذا كان ينوي زواجاً جديداً، يدلس به في مأمن من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول هذا الشاعر:

شكوت من الشيب حتى ضحرت
فدب إلى عارضي واشتعل
وسود وجهي فسودته
فعلت به مثل ما قد فعل[1]

والمرأة دائماً في ذهن الشاعر، وهو ينظر إلى شيبه، وكثيراً ما يتخيلها أمامه، تجادله وتحاوره، وتعيب شيبه، وتعيره به، وتذله وتنزل قدره؛ فيخترع الحجج ليغالط، ولكنه في النهاية يستسلم للحقيقة، ويقر بالواقع، ويكسر مركب إبحاره،

(١) المحاسن والمساوىء: ٣٥١.

فهو ليس كفيًّا لخوض لججه، ومكابدة أمواجه:

وقائلة لما رأت شيب لمتي
أسترّه عن وجهها بخضاب
فقلت لها كفي ملامك إنها
ملابس أحزاني لفقد شبابي[1]

وبعض الشعراء يُسَلِّم من أول الأمر، ولا «يفتعل معركة»، ويكتفي بوصف الواقع الذي بدأ معه، ويقر بالشيب وطبيعته، وما هو مأمور به فيما قدر على ابن آدم إلا أنه يشكو من مجيئه مبكراً:

ولو أن الشيب رزء حلّ بي
وقت ما استحققت شيباً لم أُبَل
بل أتاني والصِّبا يرمقني
مثل ما يأتي الكبير المكتهل[2]

وأسامة بن منقذ أميرٌ ابنُ أمير، وقائدٌ ابنُ قائد، رضع الفروسية منذ صغره؛ ماهر في الصيد

(١) الكشكول: ١/ ٢٩٣.
(٢) المحاسن والمساوىء: ٣٤٩.

والقنص، مثل مهارته في ركوب الخيل والطراد، والمبارزة والحرب؛ وهي أمور تحتاج إلى شباب وقوة وفتوة، وهي متوفرة في الشباب، ولهذا كان من الذين هَمَّتهُم بوادر الشيب؛ لأنها تعني فقده لما تعوّد عليه، وأصبح حياتَه، وبدونه يصبح في عداد الموتى. ولهذا نفر من بياض الشعر، وعلامات المشيب، وجاء بنفثات متتالية، يعبر بها عن شعوره، ويكشف بها عما يعتمل في نفسه من رعب وخوف، وهو البطل الشجاع، وقد صرح بكره الشيب من جميع الناس، وناب عنهم في تعبيره هذا، يقول في هذا:

ونور الشيب مكروه وتهوى
سواد الشعر أصناف العباد[1]

وهو مثل بقية الشعراء يقلقه من الشيب نظرة الفتيات، ونقص بضاعتهن عنده، وانتقالها إلى غيره، ويتخيل جدلاً قام بينه وبين إحداهن، ويأتي

---

(١) معجم الأدباء: ٥/ ٢٠٧.

بالجدل مرّاً كاوياً، يعبر بدقة عن شدة ألمه، وينهى الأمر برفسة قوية، تماماً مثل ما يرفس حصان راكباً بليداً:

بكرت تنظر شيبي　　وثيابي في يوم عيد
ثم قالت بهزء　　ياخليقا في جديد
لا تغالطني فما تصـ　　ـلح إلا للصدود[1]

وقد أتقن أسامة بن منقذ وضع المسرح الذي أجرى عليه التمثيلية، فرجل وامرأة يتجادلان، والجدل في يوم عيد حيث يلبس المرء أحسن ما لديه، والشائب يصبغ شيبه، ويكحل عينيه، ويحاول أن يجعل كل شيء جديداً، ولم يفت المرأة هذا التزويق والتجميل، فاتخذته سلاحاً، استفادت منه في المقارنة بقدمه أمام جديده، وبفنائه أمام بقاء ملابسه.

إن مما يلاحظ على هذه الأشعار جمال التعبير، ورسم الصورة البديعة، التي يكاد معها الإنسان

(١) معجم الأدباء: ٥/ ٢٢٥.

يمد يده ليلمس الموصوف، وهي مقدرة فنية تنافس، بل تفوق في نظر بعض الناس، ما يرسمه الرسامون، وأنا أجد فيها دائماً حرية الخيال الذي لا أجده في صورة مرسومة بالفرشة والألوان، التي يفرض عليّ رسامها خياله، ويرغمني على قبول فكره، ويقيدني بقيد لا أستطيع معه أن أتحرك قيد أنملة.

وشاعر يتلاعب بالمنطق من أجل الشيب، فهو يخضب الشيب لأنه عيب، وهو بهذا يريد أن يغطي العيب، ثم يعود فيقول: إن الخضب هو أولى أن يسمى عيباً. ويدعي دعوى يخالف بها غيره، ويقول إنه لا يخشى هجر الخليل، ويؤكد مرة أخرى أنه لا يخشى من ذلك عيباً، ويضيف ولا عتاباً، ثم يأتي بعد كل هذا التمرجح والمراوغة، فيقول: إنه المشيب بدا ذميماً فعاقبه بالخضاب، وهكذا استقر الرأي أخيراً، وعلّل فعله مع الشيب، وأسباب الخضاب، والشاعر هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن سليمان الفارسي:

خضبت الشيب لما كان عيباً
وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل
ولا عيباً خشيت ولا عتاباً
ولكن المشيب بدا ذميماً
فصيرت الخضاب له عقاباً[1]

والوزير أبو بكر محمد بن عبدالملك بن زهر الأندلسي، يحلق في الخيال كما هي عادة شعراء الأندلس، فيصور نفسه واقفاً أمام مرآة مجلوة، ويصب فكره عن الشيب في حوار مع المرآة يكشف فيه ما يشعر به تجاه الشيب وما يأتي به، وقد نطقت المرآة وما نطقت؛ ولم يُخْفِ أن الغواني حاضرات في ذهنه وهو يفكر في الشيب، ويصف بإيجاز تغيرهن نحوه:

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا

(١) معجم الأدباء: ٧/ ٢٥٢.

رأيت فيها شيخاً لست أعرفه
وكنت أعرفه من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالأمس كان هنا
متى ترحّل عن هذا المكان متى؟
فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت
قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
كان الغواني يقلن يا أخي ولقد
صار الغواني يقلن اليوم يا ابتا[1]

وعمرو بن قمية بن قيس بن ثعلبة جاهلي من ربيعة يصف ضعفه مع الشيب وصفاً محدداً، لا استعارة فيه، ولا تزويق، ولا خيال، وكأن المرء يراه، ولم يتطرق إلى ما يحرمه منه الشيب، أو يتحسر على شيء سبّبه له الكبر:

على الراحتين مرة وعلى العصا
أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي[2]

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ٢١٨.
(٢) من اسمه عمرو: ٣٢.

وعلى خلافه دعبل بن علي، فرغم أنه لم يقل إلا بيتاً واحداً، إلا أنه خاطب المرأة، دليل اهتمامه بها وهو يفكر في الشيب، ونظرتها إليه، واستعمل البيان في جعل بياض الشعر ابتسامة المشيب المضيئة، وتلاعب في جزأي الصورة فأضحك وأبكى:

لا تعجبي ياسلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى[1]

وشاعر آخر إختار الحقيقة ممزوجة بالخيال، والتقرير مع صورة بيانية، فشبه الشيب في الرأس بالقناع، وأرى رحلة الشباب المتردد، والمختفي تدريجاً:

أصبح الشيب في المفارق شاعا
واكتسى الرأس من بياضٍ قناعا
وتولى الشباب إلا قليلاً
ثم يأبى القليل إلا نزاعا[2]

---

(١) الإعجاز والإيجاز: ١١٨.
(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٣٣٤.

ومعاوية بن أبي سفيان لابد أنه نظر في المرآة، حين أفزعه ما عملته السنون بمرها، والأيام بكرها، فتمثل بالأبيات الآتية، مقرراً في كل شطر من أشطر البيتين قولاً صحيحاً، ووصفاً دقيقاً:

أرى الليالي أسرعت في نقضي
أخذن بعضي وتركن بعضي
حَنَيْنَ طولي وتركن عرضي
أقعدنني من طول النهض[1]

ويبدو أن معاوية بدأ يدقق النظر في ضعفه، وأخذ الزمن بعضه، ومنها أسنانه، حتى أنه احتاج إلى ما يعزيه في فقدها، ولابد أن ألمه كان ظاهراً لجلسائه، حتى أن أحدهم أحسن في قول أراد به عزاءه، وتخفيف مصابه فيها، وهي كما قال عبدالملك مرة معتذراً عن شد أسنانه بالذهب، وملمحاً إلى أن ذلك لتحسين النطق في الخطب،

---

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٦٠.

وتجميل المنظر للنساء؛[1] وقد يكون في ذهن معاوية لما سقطت أسنانه ما كان في ذهن عبدالملك:

دخل رجل على معاوية، وقد سقطت أسنانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأعضاء يرث بعضها بعضا، والحمد لله الذي جعلك وارثها، ولم يجعلها وارثتك.[2]

وعمر بن شبه عالم من علماء القرن الثالث لما انقطع عن زيارة أصدقائه عاتبه أبو جعفر بن إسحاق بن البهلول القاضي التنوخي فأنشأ يقول:

أشُدُّ من نفسي وما تشتد
وقد مضت ثمانون لي تعد
أيام تترى وليال بَعد
كأن أيام الحياة تعدو[3]

وعتاب القاضي التنوخي تسبب في هذين البيتين

---

(١) يقول عبدالملك: «لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت»، البيان والتبيين: ١/ ٦٠.
(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٣٤١.
(٣) تاريخ بغداد: ١١/ ٢٠٩.

الصادقين، والثمانون شكاها كثيرون ومنهم الشاعر الجاهلي الذي يقول:

إن الثمانين، وبلغتها
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وهي السن التي يبدأ الإنسان فيها حقيقة الشكوى، وما زاد عمر بن شبه عن أن وصف الأيام وكرها، وأكلها حياة الإنسان، والسرعة في ذلك، فما أنقص من الحقيقة الواقعة ولا زاد.

هذه بعض الآراء والنفثات التي تنفس بها الشعراء تجاه الشيب والمشيب، وللنثر حظُّه ونفثاته، تأتي أحيانا دون استدعاء، وأحيانا على أثر سؤال من خليفة أو أمير، ولعل هؤلاء الكبار إذا سألوا هؤلاء الشيوخ يجدون في جوابهم طرافة، وفي قولهم متعة، لأنهم يرسمون صورة صادقة وبديعة للكبر في حد ذاته، أو بالمقارنة بأيام الشباب.

وبعض هذه الأقوال تجري هكذا:

دخل الهيثم بن الأسود بن العريان، وكان خطيباً شاعراً على عبدالملك بن مروان، فقال له: كيف تجدك؟

فقال: أجدني قد أبيض مني ما كنت أحب أن يسودّ، وأسودّ مني ما كنت أحب أن يبيض، واشتد مني ما أحب أن يلين، ولان مني ما أحب أن يشتد.

ثم أنشد:

سوف أنبيك بآيات الكبر
نوم العشاء وسُعالٌ بالسحر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر
وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وسرعة الطرف وتحميج النظر
وتركي الحسناء في قبل الطهر
وحذراً أزداده إلى حذر
والناس يبلون كما يبلى الشجر[1]

---

(1) العمر والشيب: ٦٦، البيان والتبيين: ١/ ٣٩٩، البيان والتبيين: ٢/ ٦٩، بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٧، عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٥.

لقد أجاد الهيثم تلخيص علامات الكبر في مقدمة الأبيات التي ساقها، وأكمل فيها ما رأى أنه يتوج ما قاله، ويتم ما بدأ به.

وبالطريقة نفسها جاء سؤال، وجهه سائل إلى شيخ عن كبره، وعما بقي له فيه من أيام الشباب، فقال الشيخ المجرب قولاً دقيقاً، ووصف ما بقي له من تلك الأيام وصفاً أميناً:

قيل لشيخ مرة:

ما بقي منك؟

قال: «يسبقني مَنْ بين يدي، ويلحقني من خلفي، وأنسى الحديث، وأذكر القديم، وأنعس في الملا، وأسهر في الخلا؛ وإذا قمت قربت الأرض مني، وإذا قعدت تباعدت عني».(١)

لقد أجاد هذا الشيخ إجادة تامة، ودلت أقواله الرصينة، وأفكاره الدقيقة، وصوره الصادقة البديعة على أن ما دهى جسمه لم يصل إلى رأسه،

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٩٠، عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٥.

فعقله سليم، وذهنه صاف يقظ.

وكل واحد من هؤلاء الشيوخ يأخذ أمر الكبر من الجانب الذي يهمه أكثر، ومما يشغل ذهنه في هذه المرحلة بعينها، فعلى هذا كل واحد يبث في الحقيقة شكواه، ولكنها شكوى غيره كذلك.

ومثل ما سأل عبدالملك بن مروان الهيثم بن الأسود بن العريان عما يشعر به بعد أن داهمه المشيب سأل معاوية بن أبي سفيان قبل ذلك عمرو بن مسعود السلمي:

فقال له: كيف أنت وحالك؟

فقال: «ما يسأل أمير المؤمنين عمن سقطت ثمرته، وذبلت بشرته، وأبيض شعره، وانحنى ظهره، وكثر منه ما يجب أن يقل، وصعب منه ما كان يجب أن يذل؛ وترك المطعم وكان المنعم، وهجر النساء، وكن الشفاء؛ وقصر خطوه، وذهب لهوه، وكثر سهوه، وثقل على الأرض، وقرب بعضه من بعض؛ فقل إيحاشه، وكثر

ارتعاشه؛ فنومه سبات، وهمه تارات». [1]

ومعاوية وعبدالملك من بين الخلفاء الذين همهم الكبر والمشيب، وحفلت بذكره مجالسهم، فإن لم يذكروه بسؤال غيرهم ذكَّرهم به سواهم؛ هذا عبدالملك يصبح المسؤول في هذا الأمر، وهو عادة السائل:

«قيل لعبدالملك:

أسرع إليك المشيب!

قال: فكيف لا أشيب وأنا أعرض عقلي على الناس في كل أسبوع مرة أو مرتين - يعني الخطبة». [2]

ومرة يجيب بعبارة أخرى تؤدي المعنى نفسه فيقول: «أشاب بي طلوع المنابر وتوقع اللحن».

وإذا كان معاوية وعبدالملك اعتنيا في هذا الجانب من حياة الإنسان، فإن غيرهما من الملوك

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٥، قارن هذا بما جاء في صفحة ٦٥ من كتاب: «العمر والشيب».

(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٣، عيون الأخبار: ٢/ ٢٨٢.

السابقين قد اهتموا بالشيب والكبر، وأخذ حيزاً من تفكيرهم، وأقربهم زمنا للإسلام كسرى الذي يروى عنه ما يأتي:

«نظر كسرى إلى رجلين من مرازبته، أحدهما قد شاب رأسه قبل لحيته، والآخر قد شابت لحيته قبل رأسه، فأراد أن يعرف جواب كل واحد منهما عن حاله تلك:

فقال لأحدهما، لم شاب رأسك قبل لحيتك؟

قال: لأن شعر رأسي خلق قبل شعر لحيتي، والكبير يشيب قبل الصغير.

وقال للآخر: لم شابت لحيتك قبل رأسك؟

قال: لأنها أقرب إلى الصدر موضع الهم والغم»[1].

لقد أعطى هذا الاختلاف في بدء الشيب مرة في اللحية ومرة في الرأس فرصة لكسرى ليزاول هواية الملوك في بعض مجالسهم، وقد كشفت الإجابتان

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٣.

أن المسؤولَين يستحقان بجوابيهما الفائقين أن يكونا من مجالسي الملوك، لما ظهر في القولين من منطق وعقل، ومن الجليسين من أدب، وحسن تصرف.

ـ[1] والحجاج عامل الملك في العراق، والوالي صورة مصغرة ممن ولاه، يطبق سياسته، ويظهر بمظهره، ويحاول أن يكون مجلسه صورة مصغرة من مجلس الخليفة، حتى يكون تنفيذ مظاهر الحكم واحداً؛ ولهذا نرى الحجاج يشبه ما يجري من أحاديث في مجلسه ما يجري في مجلس الخليفة، وكان أحد المواضيع الكبر ومظاهره:

«سأل الحجاج رجلا من بني ليث قد بلغ سنا كبيرة:

قال: كيف طعمك؟

قال: إذا أكلت ثقلت، فإذا تركت ضعفت.

قال: كيف نومك؟

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة عكاظ.

قال: أنام في المجمع، وأسهر في المضجع.

قال: كيف قيامك وقعودك؟

قال: إذا أردت الأرض بعدت عني، وإذا أردت القيام لزمتني.

قال: كيف مشيتك؟

قال: تعقلني الشعرة، وأعثر بالبعرة» .[1]

وهذا وصف دقيق لما يفعله الكبر بالإنسان، شارك هذا الرجل فيه آخرين، وجاء لنفسه بجديد، ولعل للأسئلة وتفصيلها دخل في تفصيل الإجابة وتنويعها بهذه الصورة التي رأيناها.

وهناك أمور عن الشيب والكبر تخرج عن هذا المنهج، أوحاها الشيب لشباب هم في معزل عن الكبر الآن، ولم يذوقوا مرارته بعد، ويكادون يجدون حلاوة في مرارة مذاق الآخرين؛ وهذا شاب يلمز شيخاً على انحناء ظهره فيقول:

«زاحم شاب شيخا في طريق، وقال يماجنه:

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٢.

كم ثمن هذا القوس؟ يعيره بالانحناء.

فقال الشيخ: إن طال عمرك فإنك تشتريه بلا ثمن». [1]

وتشبيه إحديداب الظهر وتقوسه ليس غريبا، وإن كان أحيانا يُؤْتَى به من خلف الستار؛ ينشد أبو الطيخان القيني بيتين يضمنهما صورة بديعة، كأنها تمثيلية مجسمة تمر أمامك مع خيال خصب، وتتابعٍ جميل مدهش:

حنتني حانيات الدهر حتى
كأني خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآني
- ولست مقيداً - أني بقيد

وآخر يقول، وهو مثل سابقه يأخذ صورته ورسمه من ميدان الصيد وعدته:

رماني الزمان بنشابه
فحل به الظهر والركبتين

(١) البصائر: ١/ ٦٠.

فقـــربـــت أمشي بعـــد انبســـاط

كمشي المقيـــــــــد في الحلقتين[1]

وصورة أخرى يتمثل بها سفيان بن عيينة:

أليس ورائي إن تراخت منيتي

لزوم العصا تحنو عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت

أدبّ كـأني كلمـا قمـت راكـع[2]

وهنـاك شـاب آخـر أراد أن يعيـب على شيـخ كبره، ويهزأ منه غمزاً ولمزاً، فرد عليه الشيـخ رداً حكيما:

«مر شيخ من العرب بغلام، فقال له الغلام: أحصدت يا عماه!

فقال: يا بني وتختضرون (أي تموتون شباباً)».[3]

---

(١) يقول الشاعر:

الـدهـر أبـلاني ومـا أبليتـه والـدهــي غيّرني ومــا يتغير
والـدهـر قيـدني بحبـل مبرم فمشيـت فيه وكـل يـوم يقصر

العمرو والشيب: ٦٥، العمر والشيب: ٧٢.

(٢) العمر والشيب: ٧٤.

(٣) عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٨.

وقد تستثير الملاحظة - عن حسن نية - شيخاً أسيء الظن به بسبب الشيب، وكبر السن وما يسببه، كما حدث في القصة الآتية:

«حدث رجل من الأزد قال: كنت جالساً في مجلس بني حنيفة، فمرّ بنا شيخ يتعقل في مشيته، فقال بعض القوم:

أرى الشيخ سكران!

فسمعها الشيخ، فرجع حتى وقف علينا فقال:

معاذ إلٰهي لست سكرانَ يافتى

ولا اختلفت رجلاي إلا من الكبر

ومن يك رهناً لليالي ورهنها

تدعه كليل القلب والسمع والبصر[1]

ومع هذا فبعض ما سجل يؤكد ما يجده الشيوخ في الكبر من ميزات رغم ما فيه؛ فهو علامة طول العمر، وما كان عليه الجسم في شبابه من مكابدة الزمن، وأنه لم يضعفهم صغاراً، وهم يدعون

---

(١) العمر والشيب: ٦٣.

للمرء أن يبلغ الثمانين، ويدعون عليه بأن يقصر دونها، وأن لا يبلغها، كما في القصة التالية:

«دخل يونس بن خبيب المسجد يهادي بين اثنين من الكبر. فقال له رجل، كان يتهمه على مودته:

بلغت ما أرى يا أبا عبدالرحمن!

قال: هو ما ترى، فلا بلغته». [1]

ولشاعر بيت شطره يؤكد هذه الدعوة:

«يا عائب الشيب لا بلغته». [2]

ونعود مرة أخرى إلى الشعر، ففيه صور فريدة لمعاناة الشاعر، وهو خير من يصف شعوره، وشعره أحرى بأن يدوم ويسجل ويحفظ:

وقال ابن أبي الدنيا أنشدني الحسن أبو علي الخرساني:

شاع هذا المشيب عارضيا
طالما جهده مسيئاً إليّ

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٤.
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٤.

سبــق الأربعين ظلمــاً وغــدا
رفعــه عنــي الشبــاب الهنيــا
ولقــد كنــت آخــذ الفَــدَّ منــه
بــالمقــاريــض غــدوة وعشيــا
وأداويـــــه للعيـــون فلمـــــا
عــزّ أحفــى مــا يكــون لــديّــا
صرت أثني على المشيب كما قد
كنـت أثنـي على الشبـاب بـديّـا
ولئن كان حظّ من قدري الشيـ
ـب لقد كنت بالشباب حفيا[1]

هـذه المعـانـاة الشـديـدة، والشكـوى المرة مـن علامات الشيب التي جاءت في غير وقتها، اعتبرها الشاعر ظلماً، وتجاوزاً لحدود العدل، ولم يكن أمامه إلا استعمال المقراض لقص ما يظهر بين الشعر الأسود من شعيرات بيضاء، ويعالج بعضها عندما زادت مداهمتها بالصبغ والتغيير، حتى

(١) الأشـــراف: ١٦٧.

تعدى الأمر طاقته، فعاد يكتفي بذكريات الشباب التي أخذ منها بحظ وافر.

ومظهر آخر للمعاناة يصف فيه الشاعر ما يلاقيه من الكبر عند القيام والقعود والجلوس، ويتوجد على أيام مضت، وشباب ذبل، ويبحث عن طبيب يرفع عنه معاناته، ويداوي ما يشكو منه؛ ثم ييأس، فيزيد توجده على شبابه، ويجتر ذكرياته، بحرقة بالغة، وألم شديد:

يقول ابن أبي الدنيا أنشدني أبو عبدالله بن فنن قوله:

أصبحت أنهض مثل الطفل معتمداً
على اليدين كذاك الشيخ يعتمد
من عاش أخلقت الأيام جدّته
تكرها وجفاه الأهل والولد
نطوي الليالي فتطوينا فتخلقنا
وهن من بعد ما أخلقننا جدد
طال التأوه للضعف الذي أجد
وباد نومي وطال الهم والسهد

وصرت أرسف بعد الشر من كبر
رسف المقيّد بل بي فوق ما أجد
فهل لشيخ كبير لا حراك به
من الزمان طبيب عنده رشد
أين الشباب الذي كنا نعيش به
عيشاً رضياً وأين الجد والجلد
فقدت للشيب لذاتِ الشباب ألا
كل اللذاذة بعد الشيب تفتقد
أَمْسَى كثيري قليلا يستدل به
على الفناء ولكن بعدُ لي أمل(١)

وكان من جملة ما كنا نحفظ في المرحلة الابتدائية بعض الأشعار عن المشيب، وذهاب الشباب، ولم يكن يعنينا منها إلا حفظها وإنشادها، ولم يكن للمعاني قيمة عندنا، ولا نلتفت إليها إلا بقدر ما تستحقه الإجابة في الإختبار، وما نطمح إليه من درجات، ولعل اختيارها من قبل مدرسينا في تلك

(١) الأشـراف: ٢٣٩.

الأيام كان نتيجة بلوغهم السن التي بدأ معها قلق الشيخوخة، وأفول شمس الشباب، وكان يعزيهم أن يسمعوا معاني الأبيات تردد وتعاد، ومن هذه الأبيات:

ذهب الشباب فما له من عودة
وأتى المشيب فأين منه المهرب

وبيت آخر:

ألا ليت الشباب يعود يوما
فأخبره بما فعل المشيب

ولا نعدم في خضم هذا العدد الشاكي للمشيب، الباكي على ذهاب الشباب، أن نجد من شام في المشيب فائدة، وعثر على جانب منير فيه، أو لعله قنع به عما هو أشد هولاً منه، والقصة الآتية تبين هذا:

«دخل سليمان بن عبدالملك، فرأى شيخاً كبيراً فدعابه:

فقال: يا شيخ، أتحب الموت؟

قال: لا.

قال: لِمَ؟

قال: ذهب الشباب وشره، وجاء الكبر وخيره؛ فإذا قمت قلت: بسم الله، وإذا قعدت قلت: الحمد لله، فأنا أحب أن يبقى لي هذا». [1]

هذا الرجل لم يذهب به خياله مثل الآخرين، ولم يجادل فتاة، ولم يخاطب مرآة، ولا التفت إلى شبابه، يتحسر عليه، وهو يعلم أن التحسر لا يفيد، ولم يَشْكُ المشيب، وهو يعلم أن لا نجدة سوف تأتيه من أحد، ولم يبحث عن طبيب يعالج كبره، ولا صبغة يخفي بها بياض شعره، فهو يعرف عجز الطب عن هذا، والصبغة وإن خدعت غيره فهي لا تخدعه.

ولقد آمن بالأمر الواقع، والتفت إليه يستفيد منه لأخراه لا لدنياه المولّية، وأخذ يسعى لتزيد

(١) العمر والشيب: ٥٧.

درجاته، ولتربو حسناته، ويأمل أن يكون عند الله وجيهاً، وقد وضع برنامجاً ثابتاً، يذكر اسم الله حينا، ويحمده حينا، ويؤمل أن يطول عمره حتى لا يقف برنامجه الخيّر هذا.

ولعل في ذهنه ما روي عن رسول الله ﷺ من أن خير الناس من طال عمره وحسن عمله.(١)

فأمل هذا الشيخ أن يكون من جملة الخيرين بعمله الطيب هذا، ولعل رده لم يفاجئ سليمان ابن عبدالملك، فلا أحد يهوى الموت، أو يرغب تعجيله، خاصة وأن الرجل كان في المسجد دليل أنه لم يكن في أغلب الأحوال معوقاً، فهو يقوم ويقعد ويعقل، ولكن المفاجأة جاءت في إعطائه السبب، فلم يتمنّ، ولم يتعلق بالخيال، وإنما بقيت رجلاه في الأرض، وقال ما لابد أنه نال عليه الاحترام.

وعدم الرغبة في الموت، ومضاعفة حب الحياة

(١) العمر والشيب: ٤٦.

هو المتوقع، وقد قال أحد الشعراء:

والمرء يسأل عن سِنيهِ فيشتهي
تقليلها، وعن الممات يحيد[1]

وليست محاولة تصغير المرء نفسه، على هذا، خاصة بزمننا، لأن هذا البيت يدل على أنهم كانوا مثلنا؛ ومحاولة تصغير النساء سنهن أمر مقبول، أما الرجال فأمرهم عجيب، لأن كشف الزيف معهم سهل، ولكن يبدو وأنها جبلة في الإنسان لا ليغالط الآخرين، ولكن يأمل أن يقنعهم فيقنع بعد ذلك نفسه، وهذا أغرب.

والشيب والكبر درجات، وكل ما وصل المرء إلى بدء عشر سنين جديدة بعد الخمسين راح يتلمس لها ميزات، يتشبث بها، ولا يرى أنه كبر مهما كبر، وهو أبداً يرى سنينه قليلة، والقصة التالية تبين أنه كلما طال الأمد بالمرء أمل في سنين أكثر:

(١) العمر والشيب: ٥٤.

«ذكر رجل من باهلة قال:

دخل قوم على أعرابي يعودونه، فقال له بعضهم:

كم أتى عليك؟

قال: خمسون ومئة سنة.

فقالوا: عُمرٌ والله!

فقال: لا تقولوا ذاك فوالله لو استكملتموها لاستقللتموها»[1].

هذه بعض الأقوال في الشيب والكبر، شعرها ونثرها، وهي قليلة من كثير، ومنها ما لم نذكره، وما لم نأت به مما تطرقنا له؛ وفيه للمتتبع طرافة مفرحة، لأن الكثير منه من إنتاج عقول رزينة، بردود مبهجة معجبة، وصور صادقة متقنة؛ وعلى هذا فهي تستحق الملاحظة والحصر.

---

(١) العمر والشيب: ٥٥.

تآخي العقل مع التجربة[1]

يتآخى العقل في الغالب مع التجربة، تآخي صداقة وانتفاع، ولا يكون أحدهما غائباً عن الآخر، أو معادياً له إلا إذا كان الإنسان غير سوي، وفي تكوينه العقلي بعض الخلل، وإلا فهما يسيران معاً، أحدهما ظل للآخر لا يفارقه، ولعل بقاء العالم عامراً هو بسبب ما أوجد الله بينهما من صلة.

فالعقل يهدي التجربة، قبل أن تبدأ، بأن يضع لها المخطط، ويرسم لها الخطوات، ويهيىء لها المواد الأولية التي تحتاجها في سيرها، ثم يسير معها خطوة خطوة، ينير طريقها، ويهدي سبيلها، وينبهها إن رأى منها حياداً عن الطريق الذي يعتبره موصلاً، ويكاد يكون عدوه الوحيد في علاقته بها العاطفة، التي تأتي أحياناً وتضلل التجربة، وقد

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٦٢) في ٢٤/ ١٢/ ١٤١٤هـ الموافق: ٤/ ٦/ ١٩٩٤م

تقضي على نجاحها، وتنتهي إلى كارثة.

وإذا برزت العاطفة قبل بدء التجربة أو أثناءها وطالت رقبتها، وقويت شوكتها، واستبد سلطانها، ابتعد العقل، وضعف دوره، وانزوى في ركن بعيد يتحسر وهو يرى الشخص يسير في تجربته إلى الهاوية؛ ولو كان إنساناً لبكى ولطم لأنه يعرف من المقدمات ما يؤول إليه السعي الذي تقوده العاطفة، ويبعد معه العقل.

والعقل لا يرفض العاطفة، لا في التجربة ولا في غيرها، ولكنه يريدها طوع أمره، وفي حدود ما يرسمه لها، ويوجهها إليه، وأن تكون في خدمته، ولجامها بيده، تنطلق إذا أراد لها ذلك، وتتوانى أو تقف إذا اختار هو ذلك، ويريدها خادمة وعبدة، لا سيداً متسلطاً؛ بل إنه في بعض الأحيان لا يستغني عنها، ويعتبرها عنصراً مهماً للتجربة، فخطيب في ميدان حرب، يريد اندفاعاً وتضحية، وأن ينسى المقاتلون أنفسهم وأهليهم، يحتاج إلى

العاطفة المندفعة إلى آخر حدود الاندفاع، ولكن لجامها لابد أن يكون في يد العقل.

وللتجربة تقلب الأرض، ويوضع فيها السماد المقوي، والبذر المختار المحتاج، ثم تسقى وترعى ويعتنى بها، ثم تخضر الأرض وتزهر وتثمر، ويأتي العقل ويختزن الثمرة، ويقسمها أقساماً في طواياه وثناياه، ويستدعيها عندما يحتاج لها في تجربة أخرى، وتنمو مخازنه، وتكثر محتوياته، وتزدهر السلع الداخلة إليه، والخارجة منه، وجيوب مستودعاته في نمو، تتكدس نتائج التجارب فيها، وهو يوزع، ويشكل ويغلف ويرسل.

والعقول تختلف - كما تختلف التجارب - حيال الاستفادة مما في هذه المخازن من مدخرات، فقوة العقل الفطرية الموروثة، والثقافة المستقاة، تلعب دوراً رئيساً في مدى الاستفادة من المخزون، ومعرفة الموجود منه، واستدعائه عند الحاجة. فبعض الناس لا يدري أن عنده حصيلة كاملة في

مخازنه من التجربة التي هو على وشك أن يمر بها، أو لا يدري أن عنده بعض قطع الغيار التي تفيده في بعض جوانب تجربته الجديدة. وبعضهم عنده من الذاكرة واليقظة، ما يجعله عارفا بكل صغيرة أو كبيرة، فإذا أقبلت التجربة وإذا هو مستعد لها، فلا يعيد التجربة مرتين إلا إذا كان يعيدها ليعيد نجاحها، والا فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

والسير في التجارب ينمو النجاح فيه مع نمو الإنسان وفكره، فالصغير يبدأ وكل أمر له تجربة، سواء كان هذا الأمر صغيراً أو كبيراً، فوضع يده على شيء تجربة، وبدء المشي تجربة، ولمس البارد تجربة، ولسع الحار تجربة، وهو يتعلم من هذه التجارب الصغيرة، ويضع لها الدلائل، وهذا يعطيه الملكة للاستفادة من التجارب، ويستمر في تقوية هذه الملكة.

ثم تكبر تجاربه بكثرة الرياض التي يدخلها،

وحقول الحياة التي عليه أن يمر بها: فمن محيط البيت وهو صغير إلى خارج البيت وخضم الحياة ومعركتها: من مدرسة إلى مدرسة، ومن مرحلة إلى مرحلة، ومن المدارس إلى الكليات، ثم المهنة، وتبدأ الحياة الزوجية، ثم الأولاد وتربيتهم وتعليمهم، وما يقابله في هذا من مشاكل، يقوم بحلها، والتغلب عليها، أو الإخفاق فيها.

كل هذا يتطور معه بتجاربه، ونجاحه فيها أو إخفاقه، والعقل معه، قوياً كان أو ضعيفاً، مستفاداً منه استفادة كاملة، أو بعض الاستفادة، أو مهملاً متروكاً.

وقد يغفل أحدنا عن الصلة التي بين العقل والتجربة حتى يفكر في الأمر، ويجد الصلة، واستقراء تجارب الأولين، وما مر عليهم في حياتهم، وما سجلوه عن التجارب، حوادثها أو تعريفها أو ما يتصل بها يذكِّر الإنسان بكثير مما قد يكون غفل عنه.

وسوف أختار بعض النصوص الخاصة بالتجربة ونظرة السابقين إليها، وبعض الحوادث التي تسجل بعض التجارب، وسنجد أن هناك من الطرافة والفائدة ما يبرر إزجاء الوقت الثمين في تتبعها:

«قد قيل:

تجارب المتقدمين مرايا المتأخرين، كما يُبصر فيها ما كان، يتبصر بها فيما سيكون، والشاعر قال:

والدهر آخره شبه بأوله

ناس كناسٍ وأيام كأيام»(١)

لقد أحسن القائل في قوله هذا، وأجاد في هذا التشبيه، إن الإنسان اليوم مثل الإنسان في زمن معين في عمله، فإذا عمل أحدنا اليوم عملاً توفرت فيه الأركان للعمل الذي عمله إنسان منذ قرون، فإن سير الحوادث واحد والنتيجة واحدة، فابن

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ٣/ ١٥٠.

اليوم يرى في عمل السابقين عمله مكرراً، وقد توج أبو حيان التوحيدي هذا القول بهذا القول الصادق.

«لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب».[1]

فالخطأ غيوم تمر على شمس التجربة، فتحجبها مرة وأخرى، ثم بعد مرات تشرق شمس الصواب، وكل تجربة تنبه الإنسان إلى جانب من جوانب الخطأ يتفاداه في اللاحقة، حتى يقضي على العيوب، وتصفو الحقيقة.

وكل أمر مهما صغر أو كبر تنضجه التجربة، بدءاً بالطفل يحاول الكلام أو المشي، ونهاية بالعالم في معمله يحاول حل لغز في الطبيعة، حتى يصل بعد محاولات عدة إلى بغيته، حتى الحيوان أحيانا له تجارب من هذا القبيل يحاول حتى ينجح بعد تجارب عدة، ومن نظر إلى ابن الظبية ساعة مولده، ورأى محاولته المشي أدرك فائدة التجربة له، فهذا

(١) تسهيل النظر: ١٥.

الخشف بغريزته يضع عينه على أمه، ويحاول القيام ويسقط عدة مرات، وفي كل محاولة يكسب تحسنا حتى يستوي قائماً، ويمشي قوياً مستقيماً، ويساير أمه بعد دقائق.

وهناك قول يؤكد ما قلناه عن الصحبة التي بين العقل والتجربة:

«كل شيء يحتاج إلى العقل، والعقل يحتاج إلى التجارب»[1].

ومادام كل شيء يحتاج إلى العقل، فالتجارب تحتاج إليه، وهو ما لم يرد في النص هذا، ولكنه مؤدٍّ إليه، فالتجربة لا تثري مخزون الإنسان، وتكون ذات فائدة له إلا إذا كانت مجراة بعقل حتى لو اختلفت العقول في هذا صغراً وكبراً، قوة وضعفاً، وعقل الطفل الصغير والشاب والرجل والكهل والشايب، والمرأة والرجل في هذا الاختلاف سواء.

وما لم يستفد العقل من التجارب، فإنه خاسر

(١) تسهيل النظر: ٢٥.

خسراناً مبيناً، ويصبح الأمر كما قلنا مثل مخزون التاجر الفوضوي الذي لا يدري عن مخزونه، ويصبح المرء أخرقاً أو مغفلاً؛ ولنتصور إنساناً يوقد كبريتا قرب مخزون غاز أو بترول، فتشتعل النار وتأتي على الرطب واليابس، فيعيد الكرة مرات، ويقضي على ما يملكه من بيت وأثاث، ولهذا قال بعض الحكماء:

«من لم تلقح رأيه التجارب عقمت همته». [1]

أي أنه لا يأتي منه خير، وينقطع نفعه، فلا ينمو تفكيره، ولا يستفيد مما يمر به في هذه الحياة، ويصبح الحيوان في بعض جوانب الحياة خيراً منه،

ومن الأقوال التي تتحدث عن الصلة بين العقل والتجارب، وما يستفيده العقل منها، وما يكمله منها، القول الآتي:

«لئن كان العقل مستقلاً ببصيرته، فقد يزداد بالتجارب تيقظاً، وبممارسة الأمور تحفظاً،

(١) تسهيل النظر: ٢٥.

فلا يلتبس عليه حزم، ولا ينتقض عليه عزم» .[1]

واكتمال العقل نعمة من نعم الله، فإذا كانت هذه الهبة الإلهية جاءت لصاحبها بالفطرة والوراثة فإن التجارب تزيد العقل يقظة تجاه الأمور التي تحتاج إلى يقظة وانتباه، وبُعدٍ عن الغفلة والتماهن، حتى لا يفوت مقصود، ولا يفلت مطلوب، وتزيد بصيرة العقل وتدبره عدم اندفاع، وتحثه على الاناة والروية فيما تجب فيه الروية والأناة، وهما جزء مهم في الحزم والعزم، وعدم اتقان كل واحد في مكانه ووقته يضيع الأمر، ويجعله عرضة للإلتباس والتردد ثم الضياع.

والتجارب التي مرت بالأجيال السابقة لم تَضِع كلها بموتهم، ولم تتبخر في الهواء، أو تطحنها السنون، وتذرو الرياح دقيقها، ولكن كثيراً منها دون وسجل فحفظ، ويستفيد منه القارئ اليوم، كما استفاد منه قارئ أمس؛ وهذا يعفيه من

(١) تسهيل النظر : ٢٥ .

خوض التجربة، والتعرض لخطر الاخفاق والمعاناة؛ وإن حدث شيء من الإخفاق فهو لدى قارئ التجربة أقل بكثير من إخفاق من لم يقرأها، وهناك أثر من آثار الماضين يشير إلى هذا:

«استر عورة الحداثة، بدراسة كتب المتقدمين، واستعن على إدراك الأحوط بحفظ آثار الماضين». (١)

والتجارب مع مرور الزمن تزداد تدويناً، وتزداد بالرواية والحديث عنها انتشاراً، وقد يستفيد اللاحق تجارباً أكثر من السابق، لكثرة الحصيلة، وزيادة التجارب، وكثرة تكرارها وتحسينها، وتوقع إتقانها، بتشذيب عيوبها، وإكمال نواقصها؛ وهذا يلقي عبأً على كل جيل بأن يدون تجربته، ويشرح جوانبها، ويفصل موجزها، ويوضح غامضها، حتى يستفيد منها جيل قادم، ويزيد في إطارها، وينمي منها ما يحتمل التطوير، وإذا كان السابقون قد أدركوا

(١) تسهيل النظر: ٢٥.

هذا، ودعوا إليه، فإننا في هذا الزمن أحوج إلى الأخذ بهذا؛ ولقد رأينا فائدة ذلك في التجارب العلمية، وما أوصلت إليه من تطور لا يزال يأتي بالمدهش المعجب، وكل ما جاء اختراع نتيجة التجارب المتواصلة قيل إنه اختراع العصر، ولا تمر سنوات قليلة إلا وقد نسخ ما اعتبر أنه اختراع العصر باختراع آخر:

فهذا «المذياع» جاء معجزة في نقل صوت مئات الآلاف من الأمتار أو الكيلومترات، حاكما الموجات الصوتية عن أن تتبدد في الهواء، أو تتلاشى في الأثير، حتى إنهم اليوم يطمحون إلى لم شعث ما مر من أحاديث وجدل منذ قرون، وتجميعه من الفضاء حيث هو، ولايزال هذا الأمر طموحاً، وكم حققت التجارب من طموح.

ثم نسخ «التلفاز» المذياع، بأن جاء ناقلاً للصورة والصوت بلونين اثنين، فكان ذلك معْجزة العصر في وقته، ثم أوصلته التجارب إلى أن يكون

بالألوان الطبيعية، وترى وأنت في المملكة العربية السعودية حوادث تحدث في كندا، تراها وهي تحدث، وأنت ومن يشاهدها بعينه المجردة في كندا في اللحظة التي حدثت فيها واحد، بل قد يكون حظك خيراً من حظه، لأن المصور في موقع أفضل من موقع المشاهد.

ثم جاء «الكمبيوتر» بعد الحاسب الآلي، وجاء على أثرهما «التلكس» ثم الفاكسميلي، وقد تجاوزنا عن ذكر الهاتف، لأنه اختراع ساذج إذا ما قورن بهذه الموجات الأثيرية من ضوئية وغيرها.

والطموح العلمي الآن هو أن توصل التجارب العلمية كما يؤملون إلى نقل الأشياء المادية من مكان إلى مكان عن طريق تفتيت المادة إلى موجات أو ذبذبات ونقلها، ثم إعادة تجميعها، فهل ينجحون؟ وهل تجد أن البضاعة التي طلبت من مصنع يبعد عنك آلاف الأميال، قد وصلت إلى مخزنك أثناء اللّيل، وما عليك، إذا كنت أميناً، أو

إذا كان النظام دقيقا وحازماً، إلا أن تشعر سلطة الجمارك بذلك، أو لعلها قد علمت لأن هناك وسيلة قد وضعت تعلمها بذلك.

إن حظّ الأجيال القادمة سيكون أوفى من حظ من سبقها في رؤية التجارب المتتابعة والاستفادة منها، وقد قال السابقون عن هذا:

«وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا، على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا»[1].

ودقة الملاحظة في التجارب مهمة لأخذ العبرة منها، وإتقان العمل في ضوئها؛ فقد تكون الحادثة عابرة، فلا يفطن لها إلا اللبيب الأريب اليقظ، وفي التراث ما يدل على شيء من هذا؛ فهذا أبو حيان التوحيدي في كتابه: «البصائر» يشرح في نصين مختلفين كيف توصل الأطباء إلى إزالة الماء

---

(١) الحيوان: ١/ ٦٨.

من العين، فيبصر الأعمى، ويزول عنه ما أصابه من بأس:

يقال إن بعض الأطباء قال:

«كان القدح مجهولاً على قديم الدهر إلى أن رأوا كبشاً كان عمي بِنُزول الماء في عينيْه، فَقَدَحَتْه شوكة، وهو يرعى، فأبصر»[1].

وقال في موضع آخر:

«زعم الأطباء إن القدح في العين لم يعرف حتى رأوا كبشاً أعمى، وكان يرعى، فقدحت شوكة عينه فأبصر»[2].

وإذا صح هذا الخبر، فإن هذا يؤكد ما ذكرناه من فائدة التبصر والتدبر في التجربة حتى تكمل الاستفادة منها؛ والغريب لي أن أعرف تقدم الطب في هذا المجال من تلك الأيام، وليس استغرابي هنا بأقل من استغرابي أن أقرأ، قبل مدة، في أحد

(١) البصائر: ٦/ ٩٣.
(٢) البصائر: ٥/ ١٤٦.

النصوص التي تتحدث عن العصر العباسي، أن أحد الخلفاء العباسيين، ابتلى بحصوة في الكلى، أو لعلها في المجرى، فأعطي الأدوية النافعة عادة في مثل هذا، إلا أنها لم تفلح، وقرروا في اليوم التالي أن يجروا له عملية، واختاروا الحلاق النطاسي في مثل هذه الحالة، على أن يأتي في الصباح لإجرائها، ولكن الله منَّ على الخليفة بالشفاء قبل الموعد، إذ خرجت الحصوة أثناء الليل.

وما ذكر عن أن الصدفة لعلاج العين من الماء جاءت نتيجة لملاحظة ما حدث للكبش في مرعاه، يذكرنا بما تم من اكتشاف أحد علماء الروس منذ ما يقرب من عشر سنوات لطريقة في تقوية نظر العين لضعيفي النظر، وذلك بتشريط جزء معين فيها، واهتدى الطبيب إلى ذلك نتيجة ملاحظة دقيقة متأنية متبصرة لعين تعرض صاحبها لحادث شرط زجاج السيارة المتطاير جزءاً منها، فزاد إبصارها بعد أن برئت جروحها، وبقيت ندوبها!

ولا يكتفي أبو حيان باتحافنا بتجربة واحدة، وإنما يأتي بأخرى لعلها أبعد زمنا، وتحتاج إلى دفعة أقوى لتصديقها:

«قال بعض الأوائل: لكل شيء علاج، ولكن ربما جهل، كالحقنة: زعموا أنه لم يكن لها أصل حتى رأوا طائراً يحقن نفسه من ماء البحر، ويقال إن هذا حكاه أفلاطون»[1].

وليس الاطلاع على الكتب وحده هو الذي يمكن عن طريقه كسب تجارب الآخرين، واقتباس ما مروا به، وما طوروه، والاستفادة من مجهودهم في هذا، فهناك وسائل أخرى مثل الأسفار إلى بلاد أخرى؛ والبلدان الأخرى فيها من العادات والتقاليد الفعلية ما يدهش القادم، لأن أسلوب الحياة يكون مختلفاً، إما لأن الطقس تطلب هذا، أو أن تأثيراً طارئاً في زمن مضى، أثر تأثيراً بقي في هذا المحيط، وتلون بلونه، وأصبح هو العادة المقبولة.

---

(١) البصائر: ١٤٦/٥، البصائر: ٩٣/٦.

يجد الزائر لبلد آخر ما يأخذه من هذا البلد مما يعتبر جديداً على بلاده ومفيداً لها، وقد يجلب معه أفكاراً من بلاده تفيد البلد الوافد إليه، وتحل ما قد يكون لديه من إشكال، أو تحسن وضعاً قائماً، باضافة أمر إلى آخر، أو تعديل نقص وإتمامه، وهناك مثل طريف اقتبسه أندلسي من رحلته إلى المشرق، وحل به إشكالاً، ورأب به صدعاً، كاد يَستشري أذاه بين جارين:

قال محمد بن عمر بن لبابه:

«حضرت وقد خاصم إلى القاضي سليمان بن أسود الغافقي رجل في فرن بناه صاحبه، فأضر الدخان به وبالجيران - وهذه مسألة يقول ابن قاسم فيها: «إن ذلك من الضرر الذي يجب قطعه، ولا يباح اتخاذه» - فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك: أن يجعل أنبوباً في أعلى الفرن، فيخرج الدخان من أعلاه، فلا يضر ذلك بمن جاوره.

قال محمد: أحسب أن سليمانَ بن أسود رأى

تلك الصيغة، أو بلغته عن أفران المشرق، فإنها مصنوعة على تلك الشاكلة التي ذكر، فاستحسن ذلك، فأمر بامتثاله بالأندلس» .[1]

إن الثقافة العامة الواسعة من أهم الروافد لحكم القاضي، فلم يحل القاضي سليمان قضية واحدة بما علمه مما لم يعلمه الآخرون، وإنما وضع قاعدة، منعت قيام إشكالات على هذا الأساس في المستقبل؛ من يعلم فقد يكون بادخاله ذلك في الأندلس قد قربه للإقتباس من قبل الأوربيين!

وكل في حقله خبير، وفي مهنته مجرب، والعقل يوجب أن «تعطي الخباز خبزك ليخبزه ولو أكل نصفه»! لأنك لو قمت بذلك بنفسك، فقد يضيع عليك العجين بكامله، مع عدم تفادي التعب والعناء. وفي المهن التجارب، وترداد القيام بها مهم، وصاحب المهنة يتعلم بالاستماع والرؤية، ولكنه لا يتقن العمل إلا بالمران، ومراقبة نتيجة

(١) قضاة قرطبة: ١٦٥.

المجهود، ومعرفة أسباب الخطأ، وعدم الاتقان، وقد يكون الثمن باهظاً. هذا الحجاج يرشف من معين تجربة الفلاح، الذي يبدو أن التجارب قد حلبت من درها ما أرواه، وعصرت من رحيقها ما أغناه، يتكلم كلام الواثق، ويتحدث عن مبادئ رآها تحكم العمل:

«خرج الحجاج إلى القاوسان، فإذا بأعرابي في زرع، فقال له:

ممن أنت؟

فقال: من أهل عمان.

قال: فمن أي القبائل؟

قال: من الأزد.

قال: وكيف علمك بالزرع؟

قال: إني لأعلم من ذلك علماً.

قال: فأي الزرع خير؟

قال: ما غلظ قصبه، واعتم نبته، وعظمت حبته، وطالت سنبلته.

قال: فأي العنب خير؟

قال: ما غلظ عموده، واخضر عوده، وعظم عنقوده.

قال: فما خير التمر؟

قال: ما غلظ لحاؤه، ودقّ نواه، ورق سحاه». [1]

لقد أعطى هذا الفلاح المتقن لعمله، صاحب التجربة المتغلغلة في نفسه، رائق هذه التجربة للحجاج، الوالي الخطير، وإدرار ضرعها، وصافي لبها، أعطاه درساً وافياً مختصراً، حاوياً جامعاً مانعاً، يستطيع أن يستفيد منه في حكمه للناس.

والحجاج مغرم بالاستفادة وطلب المعلومات، ومغرم باعطاء المعلومات لمن حوله، وكأنه إذا فكر ودبر، ووصل إلى نتيجة في ذلك أحب أن يعطيها جلساءه، ولا يبخل بها، أو يختزنها لنفسه، والأمثلة على ذلك متعددة، ونكتفي بواحدة منها أو اثنتين:

---

(١) القشرة، البيان والتبيين: ٢/ ١٤٦.

«قال الحجاج لجلسائه:
ما يذهب بالإعياء؟
فقال بعضهم: التمريخ.
وقال آخر: النوم.
قال: لا، ولكن قضاء الحاجة التي أعيا بسببها». [1]

لقد كدّ الحجاج ذهنه، وأمرّ عليه ما مرّ به من تجارب، فوصل إلى النتيجة التي ارتاح إلى صدقها، واقتنع بأنها تفوق الأخريات، وأحب أن يتأكد مما توصل إليه، فسأل جلساءه، فكدوا هم أيضاً ذهنهم، واستعرضوا ما مر بهم مما قد يكون فيه الجواب، ولكن ما جاؤا به لم يرق - في نظر الحجاج - إلى ما توصل إليه.

وفي جلسة أخرى سأل الحجاج جلساءه سؤالا يسير على طريق مماثل للسؤال الأول، ولعل في ذهن الحجاج قالب يصب فيه ما يريد طرحه، وفي

(١) البصائر: ٤/٩٩.

كل مرة يضطرب في جادة أخرى، ويأخذ سبيلاً مغايراً، في الموضوع والمعنى، أما المنهج فلا يتغير، وقد لا تكون عادة الحجاج، ولكنها عادة المجتمع في تلك الفترة، وما هذا إلا نموذج لما كان سائداً حينئذ. ولعل في تتبعه متعة، وقد يكشف عن حصيلة طريفة، توضح جانباً من حياة المجتمع حينئذ، وما يقضون وقتهم فيه:

قال الحجاج يوماً لجلسائه:

أي صوت سمعه أحدكم أرق فأعجب به؟

فقال بعضهم: ما سمعت أرق في سمعي من صوت قارئ حسن القراءة لكتاب الله في جوف الليل.

قال: إن ذلك لحسن.

وقال آخر: ما سمعت أعجب من صوتِ حادٍ في مسير.

قال: إن ذلك لحسن.

وقال آخر: ما سمعت أعجب من أن أترك امرأتي ماخضا، وأخرج إلى المسجد مبكراً، فيأتي آت ويبشرني بغلام.

فقال الحجاج: واحسناه!

فقال آخر: ما سمعت صوتاً أعجب من أن أكون قائد جيش فأسرج نحو العدو، فبينا أنا كذلك إذ جاءني البشير بالفتح.

فقال الحجاج: واحسناه!

وقال شعبة بن علقمة التميمي: لا والله ما سمعت صوتاً قط أعجب إليّ من أن أكون جائعاً فأسمع قعقعة الخوان.

فقال الحجاج: أبيتم يا بني تميم إلا حب الزاد». [1]

ترى هل أحد منافسي تميم اخترع هذه القصة؟!».

ـ[2] ومقام الحجاج، وثقافته، وتجربته في الحياة،

---

(١) البصائر: ٤/١٠٣.

(٢) من هنا تبدأ إضافة ملحقة لما نشر في عكاظ.

تقتضيه زيادة معلوماته في المجالات المختلفة، التي تخص بيئته، وتستوجب اهتمام المجتمع في تلك الفترة؛ والخَيل مادة مهمة، وحديث المجتمع عنها لا ينقطع، في معرفة أمورها، والإحاطة بخصائصها، والتعمق في الدخول إلى ما لا يعرفه عنها إلا الخبير، المعايش لها، المجرب لأحوالها، وأنواعها وطبائعها؛ والحجاج حريص على أن تكون معلوماته عنها كاملة، وأن يأخذها من خير من يعرفها، ولهذا انتهز الحجاج فرصة وجود ابن القرِّية عنده فسأله عنها؛ ويبدو أن الحجاج يثق بمعلومات ابن القرية في الحياة وأمورها، فكثيراً ما يسأله عن أشياء توجب السؤال، وجوابه يستحق أن يركض وراءه، ويستقصى عنه، وقد سأل الحجاج سؤالا جاءه جوابه شافياً:

«وصف ابن القرية يوماً للحجاج فرساً فقال:

أصلح الله الأمير! طويل الثلاث، قصير الثلاث، صليب الثلاث، [رحب الثلاث، منيف

الثلاث، أسود الثلاث].

قال: فاستوى. وكان متكئاً، وقال:

فسِّر أثلاثك، أو لأضربنّ عنقك.

قال: نعم، أصلح الله الأمير.

طويل العنق والسبيب والساق، قصير الظهر والعسيب والشعر؛ صليب الكاهل والدخيس والعجب، حديد السمع عريض اللبة والجبهة والخد؛ منيف القوائم والجوانح والقذال، أسود العين والحافر والذكر.

قال: فعجب الحجاج منه، ووهب له ألف دينار». [1]

الخبرة الطويلة، والتجربة المتكررة هي التي جعلت ابن القرية يعرف هذه الأوصاف، التي تجعل من الفرس جواداً جيداً، ولقد قبل الحجاج منه ما قال، لأنه لابد أنه يتفق مع ما يعرف منها، وقد أكسب هذا ابن القرية ألف دينار.

---

(١) البصائر: ٤/ ١٦٤.

ورجل عالج رجلاً، ولم ينقص علمه عن علم الطبيب، وما كان مصدر علمه إلا التجربة، التي جاءت نتيجة المشاهدة والتبصر، والقياس العقلي السليم:

قال الجنيد:

«دخلت على السري، وعنده رجل قد غشي عليه، قلت له: ما له؟

قال: سمع آية من كتاب الله تعالى.

قلت: فتعاد عليه.

قال: فأعيدت، فأفاق.

فقال السري: من أين لك هذا؟

قلت: إن يعقوب ذهب بصره من جهة يوسف، فلما ألقي عليه القميص أبصر؛ فأخذت هذا من ذاك»[1].

إذا صحت الرواية فإن الجنيد استفاد من تجربة سابقة، قاس عليها، فنفعه قياسه، ولعل مرد ذلك

---

(١) البصائر: ٢/ ١٦٠.

إلى أن الانفعال واحد، فالمدخل إليه هو المخرج منه، لأن القوة واحدة، والتأثير واحد.

والفراسة قوامها العقل والتجربة، يتكاتف الاثنان، فيأتيان بما يدهش ويعجب، ويخيل للمتعجل، وقليل الإدراك، أن هناك نبوءة، أو سحراً، أو استعانة بالجن؛ وما وراء الأمر إلا الخير كله، لأن إعمال العقل فضيلة، والاستفادة من التجربة فضيلة، فإذا اجتمعت فضيلتان قامت خيمة الصواب، وانتصب البناء، وارتفع عماده.

وبعض أمور الفراسة يأتي عميقاً، أو مركباً متداخل الأجزاء، وبعضه يأتي بسيطاً، ويدخل في باب السهل الممتنع، وهو يثير الاستغراب في أول أمره، فإذا فسر غامضه، وجلي وأظهر خبيؤه، تبين أنه لم يكن بعيداً عن أن يعرف كنهه:

«مرّ إياس بديك ينقر الحب، ولا يقرقر، فقال:

ينبغي أن يكون هذا هرما، فإن الهرم إذا ألقي

له الحب لم يقرقر، ليجتمع إليه الدجاج، والشاب إذا ألقي إليه الحب قرقر، واجتمعت عليه الدجاج». [1]

وهكذا جميع أمور الفراسة: تعمى في أول الأمر، ثم تحل ألغازها بما يجعل الإنسان يخجل من نفسه، لبساطة التفسير، وقربه من المتناول، إلا أن الفكر لا يسقط إليه إلا بدلالة خبير مجرب، وما أمر العربي في أيام الجاهلية الذي سأل ثلاثة عن جمله، فقالوا: أهو أعور؟ قال: نعم، فقالوا: أهو أملح، فقال: نعم. فقالوا: ورعى في الأرض الفلانية، فقال: نعم. فقالوا: لم نره. ولما حاكمهم إلى الكاهن، تبين أنهم رأوا أثره، واستدلوا به على أوصافه:

فعرفوا أنه أعور، لأنه يرعى في اتجاه جانب واحد، وأحيانا يكون المرعى الطيب تجاه عينه العوراء، فيتركه إلى الجانب الآخر؛ ورأوا ندفاً من

(١) تاريخ القضاة: ١/ ٣٦٥.

صوفه عرفوا منها لونه، وفتوا شيئاً من بعره، ورأوا النّبت الذي رعاه بالأمس أو قبله، فعرفوا الأرض، وعرفوا بذلك من أين أقبل.

والتعليل الذي فسروا به قولهم بيّن بساطة الأمر في نهاية الأمر.

والتجربة علمت إنساناً عاقلاً أن يقوم بعمل يفيده، ولم يصل إليها إلا بالعقل الناضج، والتفكير المتأني:

قال ابن عائشة:

«كان شبيب بن شيبة رجلاً شريفاً، يفزع إليه أهل البصرة في حوائجهم، فكان إذا أراد الركوب تناول من الطعام شيئاً، ثم ركب.

فقيل له: إنك تباكر الغداء!

فقال: أجل، أطفئ به فورة جوعي، وأقطع به خلوف فمي، وأبلغ به قضاء حوائجي؛ فخذ من الطعام ما يذهب عنك النهم، ويداوي من الخوى». (١)

إن ما جاء في هذه الكلمات الموزونة، والمعاني

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٥٢.

المنتقاه، هو عصارة التجربة، قامت بها آلة عقل ناضج، وصبتها في بوتقة شريفة. إن شبيب بما يفعل سد ثغرات، وتغلب على صعوبات، وبلغ غايات؛ كل غرض من الأغراض التي ذكرها، تؤمن على كلامه بلسان فصيح، بأنه صدق وحق.

ونحن نزيد فائدة من العصر الحديث، لعله استفادها، ولم يتنبه لها، أو لعله تنبه لها، ولم ير ذكرها، وهي أن قمعه للشهية بعداً عن النهم، لم يقتصر على مظهر النهم، في سرعة الازدراد، وحجم اللقم، وإنما في تقليل الأكل، وإفادة البدن بالابتعاد عن التخمة؛ لأن إعطاء المعده فرصة لهضم اللقيمات التي أخذها تقفل باب الشهية، فلا يكثر الأكل من الطعام، ويكتفي بالقليل منه، وهي وصية الطب الحديث، ويدخلون إليها من ناحية التأني في الأكل، وإطالة الفترة بين صنف وصنف.

والتجربة هدت رجلاً إلى أمر اجتماعي، اتخذ

فيه خطوة لم يتبنه لها غيره، فأفادته، وأنجحته في مسعاه، وجاء يهدي التجربة للآخرين ليستفيدوا منها، ويالها من نصيحة!

قال عبدالله بن داوود:

سمعت سفيان الثوري يقول:

«إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم»[1].

وسفيان الثوري ليس من عامة الناس، وإنما من علمائهم البارزين، له علم واسع، ودين قوي، وعقل رزين، وفكر ثاقب، وإذا كان قال هذا القول، فلابد أنه جاء نتيجة تفكير عميق، واستقراء تام لحالات رآها، أو سمع من ثقة عنها، أو رأى بعضها، وسمع عن بعضها، فهو لا يرسل الكلام على عواهنه، ولا يطلقه جزافاً، وإنما يزنه بميزان الذهب، خصوصاً إذا كان الأمر، مثل هذا، يخص الحياة العائلية، ومستقبل الشخص فيها.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/١٣٨.

ولابد أن سفيان رحمه الله درس الناحية النفسية للأمهات، وتشددهن في البحث عن مصلحة بناتهن عند الزواج، وتدبَّرَ تأثير الهدية، وتليينها ما قسى، وفتحها ما أغلق، فوجد أن الهدية للأم تأتي بالنفع الذي يطلبه الخاطب، فأعطى نصيحته الغالية هذه.

وأم الزوجة، وأم الزوج، أو «الحماة» بتعبيرنا اليوم، لها حيز في تفكير الناس، خاصة في بعض البلدان العربية، فهي تلعب دوراً فعالاً في شقاء بيت ابنتها أو ابنها، وفي سعادتهما. وتأخذ حيزاً من تفكير الزوجين وتصرفهما؛ ومن يتابع الصحف، وما فيها من أقوال طريفة، أو صور هزلية، يعرف أي مدى وصل إليه هذا التأثير.

هذه لمحات سريعة عن التجربة والعقل، وسيرهما معاً، يداً بيد وخطوة بخطوة، والنجاح اللذان يحرزانه، ومدى استفادة البشر من ذلك، وهي لمحة سريعة تذيق ولا تشبع، وتُري ولا تشفي؛ ومن

أراد المزيد فكتب الأدب والتاريخ ملأى بعصارات التجارب، وأضواء العقل، وما على المرء إلا أن يقرأ ويستوعب، ويستفيد من ذلك لمقابلة متطلبات الحياة ما ابتسم منها وما كشر عن أنيابه، وما أضاء وما أظلم.

مقـــلب[1]

مقلب هذه الكلمة العامية التي تحمل في ثناياها معنى محدداً، وأقرب معنى لها وقوع الإنسان في مشكل أوقع نفسه فيه دون أن يقصد، أو نَصب له آخرون شركاً فأوقعوه فيه، وقد لا يتضح معناها، ولا يتحدد مدلولها إلا بضرب الأمثلة التي تبين أنواعها، وتشرح مبادئها، وحوادثها، ونتائجها. وغالباً ما تكون محاطة بطرافة وفكاهة.

ولا أعرف لها معنى يلابسها قدًّا وقواماً في العربية الفصحى، ولم أجد ضيراً في استعمالها، لأن اشتقاقها عربي، ولعلها مأخوذة من القلب، أي عكس الشيء، لأن المقلب يأتي خلاف الخطة الظاهرة الموضوعة لمجراهُ، فمثلاً لنا أن نتصور أن هناك شخصاً في طريقه، ومرّ بشخص جالس، وفجأة مد الجالس رجله أمام السائر، فتسبب في

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٦٩) في ٢/١/١٤١٥هـ الموافق: ١١/٦/١٩٩٤م

عثوره وانقلابه.

إن لم يتبين أن لها مسمى فصيحاً غاب عن ذهني الآن، أو لم أسمع به لغرابته، ووحشيته، فإنه لابد لي من الاستفادة من هذه الكلمة، بعد الاستئذان طبعاً من اللغة العامية، التي لم أعهدها بخيلة، خاصة إذا كانت المستعيرة اللغة العربية، وأبقى الله لنا اللغة العامية نلجأ إلى رفدها عند الحاجة، فتسعفنا بما لديها خيراً لنا من اللجوء إلى اللغات الأعجمية.

ولا أرى بأساً من استعارة كلمة من اللغة العامية، إذا كان تصريفها واشتقاقها عربياً، إذا لم يكن في الفصحى ما يلابسها، خاصة في المدلولات الحديثة. ولا أنسى حادثة ربما أني سبق أن قصصتها، وهذه القصة تدلل على أن العامة أحياء بسليقتهم يأتون بالكلمة المناسبة، خيراً من المجامع العربية، والقصة هي:

قبل ما لا يقل عن أربعين عاماً، وفد إلى بيتنا ضيف صغير السن، وبعض مدن القصيم في المملكة

لم يروا «المكوى» أو يعرفوه، ولم يكونوا يكوون ثيابهم، أو يفكرون في هذا. فاحتاجت إحدى السيدات في بيتنا في مكة إلى المكوى، وكان في غرفة أخرى، فقالت للشاب الصغير: احضر المكوى من الحجرة الثانية؛ فذهب وعاد، وقال إنه لم يجد مكوى، فقالت له إنه موضوع على طرف المائدة التي في الغرفة، فذهب يبحث عنه حسب الوصف، ولكنه عاد معتذراً بأنه لم يجده.

كان الشاب يبحث عن الأسياخ التي تحمى ويكوى بها المريض، أو توسم بها الدابة، ولكنه لم ير أثراً لشيء من ذلك الذي يعرفه جيداً لو رآه. فاضطرت السيدة أن تقوم، وتحضر «المكوى»، وتريه إياه، فشهق شهقة المستغرب وقال:

أهذا هو المكوى؟ لم لا قلت: «المِدْماك»؟.

وأشهد أنه على حق، فهذه الكلمة هي اللائقة بالمكوى وأهل مكة استعملوا كلمة «مكوى» لأن القليل منهم يعرف عن مكوى الأمراض، أو ميسم

الحيوانات، ولهذا فلا يخشى عليهم اللبس.

على أي حال نحن بأي المسمين بخير عن مسمى «المكوى» في شمال أفريقيا حيث يسمونه: «الحديدة» مأخوذاً من اللغات الأوروبية، ولأحد أصحابنا من الأخوة العرب من المشرق قصة مع أحد الأخوة من شمال أفريقيا تخص «الحديدة» ليس هذا مجالها.

نعود إلى المقلب بمسماه الذي ارتضيناه، فنقول:

إننا لو تتبعنا المقالب لوجدناها أنواعاً مختلفة، تنطلق منطلقات متعددة الجوانب والاتجاهات؛ وأذواق الذين يرتبونها تختلف، وطرقهم أحيانا لا تتماثل؛ وهناك يمكننا أن نقول إن عندهم ملكة في توجيه المقالب الناجحة، بعضهم يسعى لها ويخطط، ويختار ضحاياه من أناس لهم مواصفات لا تخيب معها المقالب، ويضمن لها معهم النجاح.

وأحياناً يهدي المقلب نفسه، ويأتي جاهزاً، فما على من تنبّه له إلا أن يضع يده عليه، ويوجهه؛

وأصحاب الملكة في المقالب يبدو أنهم خير من يلحظ ما يصلح مقلباً، وهو قادم، قبل أن يصل، فيمهدون له الطريق، ويفرشون له السجاد الأحمر، وسرعان ما تطبق المصيدة، فيقع فيها من قسم له أن يقع.

وسأضرب مثلاً لقصة روتها الصحف المصرية في إحدى السنوات الأربعينية الميلادية، وهذه القصة توضح كيف ينتهز صاحب الملكة الفرصة، فلا يدعها تمر، وإنما يحولها إلى مقلب رنّان.

كان البرلمان المصري منعقداً يناقش أمر «كهربة خط حلوان» وكان الموضوع طويلاً، أخذ من الوقت ما جعل كثيرين، خاصة كبار السّنّ، ينامون، ومن بين هؤلاء أحد الباشوات، كبيري السن والمقام، وهو رئيس فريق المعارضة في الحزب الذي خارج الحكم.

كان المتكلم المطيل من الحزب الحاكم، وبعد أن انتهى من كلامه صفق الأعضاء طويلاً، وربما أن

هذا التصفيق الحاد، لم يكن لإجادة العرض، وإنما لأنه أراحهم بانتهائه.

هذا التصفيق الحاد أيقظ الباشا من نومه العميق، فسأل نائباً مستقلاً يجلس بجانبه، عرف بحياكة المقالب، ماذا قال النائب المتكلم حتى يستحق هذا التصفيق، فسأله هذا النائب:

ألم تسمع ما قال، ياباشا، لقد كان مؤثراً حقاً، وعرض رأيا إنسانياً وطنياً، هزّ المشاعر.

سأل الباشا، وعن ماذا، وما قال:

قال النائب:

كان الحديث كما تعرف معاليك عن «كهربة خط حلوان»، ولكن يبدو أن النائب أقنع المجلس بنبذ الفكرة، وإحياء قطارات الجمال، من باب اللوق إلى حلوان، بحيث تكون مستمرة، ليل نهار، يجدها الشخص متى جاء إلى المحطة، وفي هذا إعادة لمجد الجمال، هذه الثروة الحيوانية المهملة، وأصحابها الضائعون المنسيون.

فاستشاط الباشا غضباً وغيظاً، وطلب الكلمة، وصعد المنبر، وهاجم الفكرة هجوماً عنيفاً، وهاجم الحكومة على استخفافها بعقول المواطنين باقتراح مثل هذه الأفكار الرجعية، وهذه السخرية الصارخة، التي سوف تجعل مصر أضحوكة للعالم.

وحاول رئيس الجلسة أن يقاطعه، ولكنه كان ينهره، ويذكره بحقه في الكلام، وعدم المقاطعة، والأعضاء في دهشة عما يتكلم عنه، وما دَخْل الجمال في كهربة خط حلوان!

وعندما انتهى الباشا، وأفهمه الرئيس الخطأ، قال: إن فلاناً هو الذي قال لي ما قال. ونزل بعصاه يبحث عن النائب، ولكنه قد وصل بيته حينئذ، وسلم من قتلة من «شون» الباشا.

والمقالب محببة للناس، وقد عاش طلاب البعثة في الأربعينات في مصر في مقالب ورد مقالب، ولو جمعت هذه المقالب لكونت كتاباً ضخماً طريفاً،

وقد دون بعضاً منها معالي الدكتور حسن نصيف في كتابه «مذكرات طالب»، وسأقتصر هنا على حادثة توضح كيف يهدي المقلب نفسه لأصحاب المقالب:

يوم الاثنين من كل أسبوع رُتب أن يكون الصحن الرئيسي في الغداء ملوخية بالأرانب أو الفراخ، وكل أربعة طلاب لهم فرخة، يتفقون على من يأخذ الصدر، ومن يأخذ العجز، وقد يتناوبون ذلك. وفي أحد الأيام غاب أحدهم، ونبّه على أحد زملائه بأن يأخذ حصته من الدجاجة، فيصبح له بهذا نصف كامل. ووضع الخادم النصف أمامه، فالتحق به على المائدة أحد الأربعة، ولما رأى هذا زميله يأكل حصة الذي لم يأت بعد، تعجب، فقال له صاحب المقلب:

أما علمت أنه تقرر أن يكون للطالب نصف كامل، استجابة لطلب الطلاب، وهذا سوف يريحنا من مسألة صدر وعجز، الآن كل واحد له نصف الصدر ونصف العجز. ثم تساءل: ألم تر

التنبيه المكتوب بهذا، والمعلق على الباب.

هذا شجع المخاطَب فاستولى على الجزء الرابع الباقي، وبعد أن أكله وصل الطالب الرابع فسارع صاحب المقلب يقول له إن فلاناً أكل حصتك، وأني نبهته، وأنه أصر، وقال: سوف أنتهي إن شاء الله قبل أن يصل فلان، وها أنت وصلت، واللهم أشهد أني بلغت، وقام من مكانه، لأنه قد أنهى الأكل. وترك شاربي المقلب في موقفهم المزري: هذا آكل حق، وهذا مأكول حق.

في البدء لم أكتب هذا عن المقالب الحديثة، ولكن الاستطراد قادني إلى ذلك وكان الهدف أن أكتب عن التراث، وفي التراث ثروة لا يستهان بها، تمثل طرائف مسلية وممتعة، تكشف عن حياة الناس المرحة في تلك العصور، وسأقتصر على قليل منها مما يعطي نموذجا فقط.

والمقالب نوعان في التقسيم العام، نوع يوقع فيه الإنسان نفسه دون أن يدري، ونوع يَحْبِل فيه

شخص لآخر.

ومن أشهر مقالب النوع الثاني المقالب التي حاكها نعيمان في زمن الرسول ﷺ:

«مرّ نعيمان، ذات يوم، بمخرمة بن نوفل الزهري الضرير في المسجد، فقال له مخرمة:

«خذ بيدي حتى أبول».

فأخذ بيده، حتى إذا كان في أقصى المسجد قال له:

«إجلس».

فجلس يبول، فصاح به الناس.

«يا أبا المسور إنك في المسجد».

قال: ومن قادني؟

قالوا: نعيمان.

قال: والله لأضربنه بعصاي هذه إن وجدته.

فأتاه نعيمان، وقال له:

«يا أبا المسور هل لك في نعيمان؟»

قال: «نعم».

فأخذه بيده حتى أوقفه على عثمان بن عفان، وهو خليفة، وتنحّى عنه، فعلاه بعصاته ضربا.

فصاح به الناس.

«ضربت أمير المؤمنين!»

قال: ومن قادني؟

قالوا: نعيمان.

قال: لاجرم، لا تعرضت له أبداً». [1]

هذا مقلب مركب، أوله أهدي لنعيمان، صاحب المقالب المشهورة، وذي الطرائف المعروفة، حتى مع النبي ﷺ. ولكنه لم يكتف بما تم في أول الأمر من فرصة انتهزها، وإنّما أتبعها أخرى مهد لها بما أنجحها أتم نجاح.

ولنعيمان ثانية لا تقل عنها في الطرافة، ولا تنقص عنها في النّجاح، ويبدو أن الناس في زمنه يتقبلونها منه، ويستطرفونها، وإذا صح ما روي، فإن الرسول ﷺ يبتسم منها، ويقبل من نعيمان

(١) المحاسن: ٦٠١، عيون الأخبار: ١/ ٤٤١.

أحياناً التعليل وأسباب ارتكابها:

قدم تميم الداري من الشام، وكان تاجراً، فأتاه نعيمان وقال له:

هل لك في غلام تاجر، له فضل ودين؟

قال: وكيف لي به؟

قال: إنه إن علم ببيعنا إياه لم تنتفع به، ولكن انطلق معي حتى أريكه، فإنه عندنا بمنزلة الولد.

قال: فأدخله المسجد، فأراه سويبط بن عبدالعزّي، فنظر إليه تميم فأعجبه، فقال:

بكم؟

قال: بمئة دينار.

قال: هي لك.

فأخذ منه المئة دينار.

فلما حضر شخوصه أتى نعيمان فقال:

«الغلامَ».

فمضى معه إلى المسجد، وقال:

«دونك الغلام».

فجاء تميم، وسويبط يصلي، فصلى إلى جانبه ركعتين ثم قال له: «خفف».

فخفف، وقال له: ما حاجتك؟

قال: قد باعك أهلك مني.

قال: وأي أهلي؟

فارتفع الكلام بينهما حتى خرج رسول الله ﷺ وقال: ما شأنكم؟

قال تميم: يارسول الله باعنيه أهله.

فقال ﷺ: إني لأظن نعيمان صاحبه، عليّ به.

فلما جاء قال له: ويحك ما هذا؟

قال: بأبي وأمي يارسول الله! تزوجت امرأة ولم يكن عندي نفقة ولا صداق أدفعه إليها، ولم أجد إلا ما رأيت، فتبسم رسول الله ﷺ.

وقال لتميم: هي لك عندنا.[1]

ولنعيمان ثالثة: وهي ثالثة الأثافي، ولا تختلف كثيراً عن سابقتها، إلا أنها جاءت نتيجة غيظ وحنق:

(١) المحاسن: ٦٠١.

«روى وكيع عن ربيعة عن الزهري عن وهب بن زمعة قال: قالت أم سلمة: خرج أبو بكر في تجارة، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكانا شهدا بدراً، وكان سويبط على الزاد، فقال له نعيمان، وكان مزاحاً:

أطعمني.

فقال: حتى يجيء أبو بكر.

فقال: أما والله لأغيظنك، فمروا بقوم فقال لهم نعيمان:

أتشترون عبداً لي؟

قالوا: نعم.

قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم: «إني حر»، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا علي عبدي.

فقالوا: بل نشتريه منك بعشر قلائص.

ثم جاؤا فوضعوا في عنقه حبلا وعمامة، واشتروه.

فقال سويبط إن هذا يستهزئ بكم، وإني حر.

قالوا: قد أخبرنا بخبرك.

وانطلقوا به، وجاء أبو بكر فأخبروه، فتبعهم، فردّ عليهم القلائص، وأخذه،

فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه، فضحك هو وأصحابه منهما حولا». (١)

ومجتمع الصحابة والتابعين ليس مجتمعا متزمتاً، بل إن للبسمة فيه إضاءات، تكشف عن بعض ما يلجؤون إليه للتسلية، فيستغلون ما حبا الله به بعضهم من روح مرحة، تضفي على مجتمعهم ما ينشطهم، ويضفي على حياتهم لوناً بهيجاً:

سأل غالبُ ابنَ سيرين عن هشام بن حسان فقال:

توفي البارحة، أما شعرت؟

فجزع واسترجع، فلما رأى ابن سيرين جزعه قرأ:

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣٦.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ .(١)

هذا نوع من القلب لم يستمر فيه صاحبه، ولم يترك الموجّه إليه يذهب إلى أهل هشام بن حسان ليعزيهم، فيقع في الإحراج المتوقع.

وقد يكون الإحراج في ذلك المجتمع للأذى:

أراد رجل بالمدينة أن يسوء عبيدالله بن العباس ابن عبدالمطلب، ويضاره، فجعل يأتي وجوه أهل المدينة، فيقول:

«قال لكم عبيدالله بن العباس تغدوا عندي».

فجاء الناس فملؤوا عليه الدار، وعبيد الله غافل؛ فقال:

«ما شأن الناس»؟

قالوا: جاءهم رسولك أن يتغدوا عندك.

فعلم ما أريد به، فأمر بالباب فأغلق، وأرسل

(١) سورة الزمر، آية: ٤٢.
عيون الأخبار: ١/ ٤٣٥.

إلى السوق في أنواع الفاكهة، وذكر الأترج والعنب والموز، فشغلهم، وأمر بالأطعمة فطبخت وشويت، فلم يفرغوا من الفاكهة حتى أتوا بالطعام حتى صدروا عنه:

فقال عبيدالله: أموجود هذا كلما شئت؟

فقالوا: نعم.

فقال: ما أبالي من أتاني.(١)

ومن المقالب التي يجلبها الإنسان على نفسه القصة التالية:

«مدح شاعر الحسن بن سهل، فقال له:

«إحتكم»، وظن أن همته قصيرة.

فقال: ألف ناقة.

فوجز الحسن، ولم يمكنه، وكره أن يفتضح، وقال: ياهذا، إن بلادنا ليست بلاد إبل، ولكن ما قال أمرؤ القيس:

---

(١) مجالس ثعلب: ١/٣١، راجع أيضاً سراج الملوك: ٢٨٩، حيث سماه عبدالله بن عباس.

إذا لم يكـــن إبـــل فمعـــزى
كـــأن قـــرون جلتهـــا العصي

قد أمرت لك بألف شاة، فالق يحيى بن خاقان، فأعطاه بكل شاة ديناراً». [1]

لقد وقع الحسن وقعة كسرت أضلاعه، وكان جر ذلك على نفسه، وهو يدري ولا يدري، ولكن هناك من وقع في مقلب دون أن يدري، ولكنه هو الملوم:

«كـان زياد بـن عبيدالله الحـارثي، خـال أبي العبـاس، أمير المـؤمنين، واليـاً لأبي العبـاس على مكـة، فحضر أشعـب مـائـدتـه في أنـاس مـن أهـل مكة، وكان لزياد بن عبيدالله صحفة يُخَص بها، فيها مضيرة من لحم جدي، فأُتي بها، فأمر الغلام أن يضعهـا بين يـدي أشعـب، وهـو لا يعلـم أنهـا المضيرة.

فقال: ياغلام، الصحفة التي كنت تأتيني بها.

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٥٥.

قال: قد أتيتك بها - أصلحك الله - فأمرتني أن أضعها بين يدي أبي العلاء.

قال هنئ - والله - أبو العلا، وبورك له.

فلما رفعت المائدة قال:

يا أبا العلا، وذاك في استقبال شهر رمضان، قد حضرنا الشهر المبارك، وقد رققت لأهل السجن لما هم فيه من الضيق، ثم لانهجام الصوم عليهم؛ وقد رأيت أن أصيرك إليهم، فتلهيهم بالنهار، وتصلي بهم في الليل؛ وكان أشعب حافظاً.

فقال: ألا غير ذلك - أصلح الله الأمير؟

قال: وما هو؟

قال: أُعطي الله عهداً أن لا آكل مضيرة جدي أبداً». [1]

ـ[2] وللشعراء، حظّ في المقالب يتناسب مع ثقافتهم وذكائهم، والأخطل من أسبق من يتوقع منه أن يأتي منه ذلك، لذكائه، ولتجربته في الحياة،

---

(١) البخلاء للبغدادي: ٦٧، عيون الأخبار: ٣/ ٢٨٤.

(٢) يبدأ الجزء الذي لم ينشر في عكاظ، وقد زيد فيما بعد.

وقد وقع غِرٌّ في مصيدة نصبها له، أخذ الأخطل يرقص عليه فيها، ويشويه على سفود حار، وعبدالملك بن مروان ينظر إليهما مبتهجاً:

دخل الأخطل على عبدالملك بن مروان، وهو مغموم، وعنده رجل كان يحسده الأخطل، ويقارضه.

فقال الأخطل: يا أمير المؤمنين، عهدي بأبي هذا الفتى وهو سيدنا معشر جشم، وشيخنا الذي نصدر عن رأيه.

فاهتز لهذا الفتى، وقال:

يا أمير المؤمنين: هو أعلم بنا قديماً وحديثاً.

قال الأخطل إن أباه أمرنا ذات يوم، وقد نوّرت الرياض، أن نخرج إلى روضة في ظهر بيوت الحي، فنتحدث فيها؛ فخرجنا، وانبسطنا لعبا؛ وخرج الرجل بالبكرة الكوماء، وبالخروف والجدي؛ وقام الفتيان فاجتزروا، واشتووا، ودارت السقاة علينا.

فبينما نحن كذلك رعف أنف أبيه، فما تركنا

في الحي روثة حمار إلا نشقناه إياها، فلم يَرْقَأ دَمُه.

فقال لنا شيخ: شدوا خصي الشيخ عصباً، ففعلنا ذلك، فرقأ الدم، فوالله ما دارت الكأس إلا دورة حتى أتانا الصريخ عن أمه أنها رعفت، فبادرنا إليها، فوالله ما درينا ما نعصب منها، حتى خرجت نفسها.

وعبدالملك يفحص برجليه ضحكاً، والفتى يقول:

«كذب والله».

فقال عبدالملك: ألم تزعم أنه أعلم الناس بقديمكم وحديثكم؟(١)

وهناك نوع من المقالب اتصف بالإغراء والتحدي، وهما أمران يعميان ويصمان المرء، فلا يرى المزالق التي توضع لقدميه، ويعمى عن الحبال التي تبرم حول عنقه، يسير دون عقل وإرادة أمام الإغراء، وغالباً ما يكون مادياً، أو خلفه تحد

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٤٠.

يوهم أن عدم السير فيه ينقص من شرفه، أو مقامه، ويبهره بريق الإغراء فلا يرى إلا هو، وما يرمي إليه، ولا يتنبه للهوة التي يمكن أن يقع فيها إلا بعد أن يقع فعلا:

قال الرياشي عن الأصمعي:

«خاطر [راهن] رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد، فيضع يده على كفله ويقول:

«سبحان الله، يا أمير المؤمنين، ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند!».

ففعل ذلك، فلما انفتل معاوية عن صلاته قال:

«لا يا ابن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل، فخذ ما جعلوا لك»، فأخذه.

ثم خاطر أيضا أن يقوم إلى زياد، وهو في الخطبة، فيقول له:

«أيها الأمير، من أبوك؟».

ففعل. فقال له زياد:

«هـذا يخبرك»، وأشـار إلى صـاحـب الشرطـة، فقدمه فضرب عنقه.

فلما بلغ معاوية، قال:

«ما قتله غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية»[1].

وقد اشتق العامة في نجد من هذا مثلاً:

«خِير ما له يِطيح بطبّال الأذناب».

أي مآله سوف يكون مثل نهاية الذي يدور على الأكفال فيضع يده عليها، كما فعل الرجل مع معاوية، وما انتهى إليه أمره مع زياد.

وقد يحصل المراهن على الجعل الذي راهن عليه، ولا يأتيه أذى مباشر، وربما جاءه الأذى بعد حين، ويبدو فيما بعد وكأنه ليس انتقاماً لذلك العمل المشين الذي أقدم عليه قولاً أو عملاً:

«جعل رجل جعلاً لرجل على أن يقوم إلى عمرو ابن العاص، يسأله عن أمه؛ فقام إليه، وهو

(١) العقد الفريد: ١/ ٥٣.

يخطب على منبر تنيس، فقال له:

أيها الرجل أخبرنا من أمك؟

فقال: كانت امرأة من عنزة، أصيبت بأطراف الرماح، فوقعت في سهم الفاكه بن المغيرة، فاشتراها أبي، فوقع عليها».

«إنطلق وخذ ما جعل لك على هذا». [1]

إن كلمة عمرو الأخيرة فضحت الرجل، أمام الخلق، في أنه يتكسب بقلة الأدب والمشاغبة، وما أردأها من مهنة.

وقد لا يُجعل للمرء جعل، ولكنّ نفسه الأمارة بالسوء، قد تجعله يقدم على عمل يبدو صاحبه وكأنه استؤجر ليقوم به، ولم يكن ما دعا إليه إلا الحسد والحقد للشمعات المضيئة في المجتمع، لأنه هو لم يستطع أن يكون مثلهم فأختار أن ينتقم منهم، بعد أن ملأه مديح الناس لهم، وحمدهم، بالغيرة:

---

(١) عيون الأخبار: ١/٣٩٨، ربيع الأبرار: ٤/١٩، وفيه تفصيل.

«جاء رجل إلى الأحنف بن قيس فلطم وجهه، فقال: بسم الله يا ابن أخي ما دعاك إلى هذا؟

قال: آليت أن ألطم سيد العرب من تميم.

قال: فبرّ بيمينك، فما أنا بسيدها، سيدها حارثة بن قدامة.

فذهب الرجل، فلطم حارثة: فقام إليه حارثة بالسيف، فقطع يمينه.

فبلغ ذلك الأحنف، فقال: «أنا والله قطعتها». [1]

إن خطة الأحنف مثل خطة معاوية، فيها استدراج موصل، والعقل يجري على قضيب قطار واحد، كل من الأحنف ومعاوية يمتاز بالعقل والحلم، وقد جنيا ثمار ذلك.

ويوقع التقليد المقلد أحيانا في مقلب، لضعف إدراكه، وعدم ملاحظة الفروق بين الأمور التي قد تبدو متشابهة، والساذج في هذا الأمر غالباً يصبح

(١) المحاسن: ٥١٩.

ضحية سذاجته التي تقوده إلى التقليد الأعمى أولاً ثم إلى المشكلة ثانياً:

قال الأصمعي:

قيل لأعرابي: من لم يتزوج امرأتين لم يذق لذة العيش، فتزوج امرأتين، ثم ندم فقال:

تـــزوجـــت اثنتين لفـــرط جهلي
بمـــا يشقـــى بـــه زوج اثنتين
فقلـــت أصير بينهمـــا خـــروفـــا
أُنعَّـــــم بين أكـــــرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسي
تُـــــداول بين أخبـــــث ذئبتين
رِضى هذي يهيّج سخط هذى
فما أعرى من إحدى السخطتين
وألقـــى في المعيشـــة كـــلَّ ضر
كـذاك الضـــر بين الضـــرتين
لهـــذي ليلـــة ولتلـــك أخـــرى
عتـــاب دائـــم في الليلتين

فإن أحببتَ أن تبقى كريما
من الخيرات مملوء اليدين
وتدرك ملك ذي يزن وعمرو
وذي جدن وملك الحارثين
وملك المنذرين وذي نواس
وتبّع القديم وذي رعين
فعش عزبا فإن لم تستطعه
فضربا في عراض الجحفلين[1]

ويبدو أن الزواج بأكثر من واحدة عند الأعراب مصيدة سهلة، ومقلب أسبابه يسيرة، فليس الأعرابي الذي سقنا قصته، وقد أصبحت مشهورة، هو الوحيد الذي وقع في مقلب الزواج من أكثر من واحدة، فهناك من غرر به، وتزوج أربعا، وندم «ندامة الكسعي»، وكان المقلب ناجحاً إذ لم يفلت من عواقبه المضرة، وكان الذي وضع المصيدة التي أطبقت عليه دون رحمة هو

(١) الأمالي: ٢/ ٣٥، وبهجة المجالس: ٤١.

عامل العراق: الحجاج بن يوسف:

«دخل أعرابي على الحجاج فسمعه يقول:

لا تكمل النعمة على المرء حتى ينكح أربع نسوة، يجتمعن عنده.

فانصرف الأعرابي، فباع متاع بيته، وتزوج أربع نسوة، فلم توافقه منهن واحدة:

خرجت واحدة حمقاء رعناء، والثانية متبرجة، والثالثة فارك، أو قال فروك، والرابعة مذكرة.

فدخل على الحجاج فقال:

أصلح الله الأمير! سمعت كلاماً أردت أن تتم لي به قرة عين، فبعت جميع ما أملك، حتى تزوجت أربع نسوة، فلم توافقني منهن واحدة، وقد قلت فيهن شعراً، فاسمع مني، قال قل، فقال:

تزوجت أبغي قرة العين أربعا
فيا ليت أني لم أكن أتزوج
ويا ليتني أعمى أصم ولم أكن
تزوجت بل يا ليت أني مخدّج

فواحدة ما تعرف الله ربها
ولا ما التقى تدري ولا ما التحرج
وثانية ما إن تقر ببيتها
مذكرة مشهورة تتبرج
وثالثة حمقاء رعناء سخيفة
فكل الذي تأتي من الأمر أعوج
ورابعة مفروكة ذات شرّه
فليست بها نفسي مدى الدهر تبهج
فهن طلاق كلهن بوائن
ثلاثا، ثلاثا، فاشهدوا لا تلجلجوا

فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره.

ثم قال له:

كم مهورهنّ؟

قال: أربعة آلاف درهم.

فأمر له بثمانية آلاف درهم». [1]

لعل الحجاج شعر بالذنب في أن يقع مثل هذا

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤.

الأعرابي المسكين في هذا المقلب نتيجة تصديقه قول أميره؛ وقد تحمس في التطبيق، فشرب من كأسه حتى الثمالة.

ويرصد الحجاج رصداً لبعض ضحاياه، ويهيء لهم مقلباً، يأتي له بمتعة رغم ما فيه من ألم، هذا على اعتبار أن القصة صحيحة وواقعة، خاصة تلك القصص التي تسيء إلى الحجاج بطريق أو آخر:

«تنكر الحجاج وخرج، فمر على المطلب، غلام أبي لهب، فقال له: أي شيء خبر الحجاج؟

فقال: على الحجاج لعنة الله.

قال: متى يخرج.

قال: أخرج الله روحه من بين جنبيه.

قال: أتعرفني؟

قال: لا.

قال: أنا الحجاج.

قال له: أتعرفني؟

قال: لا.

قال: أنا المطلب، غلام أبي لهب، معروف بالصرع، أصرع في كل شهر ثلاثة أيام، واليوم أولها، فتركه ومضى». [1]

ويبدو أن الحجاج مغرم بنصب الفخاخ للعامة الذين لا يعرفونه، ويقع الواحد منهم في المصيدة المعدة؛ لأنه لا يخطر بباله أن الحجاج يمكن أن ينفرد عن حراسه خاصة في البرية، وهو تفكير وجيه، قد يوصل التفكير المركز فيه إلى التدليل على نحل القصة، وربما أن القاص استوحاها من قصة قديمة تروى وتتداول عن أحد ملوك الفرس، الذي انفرد عن حرسه خلف طريدة أبعدت به عنهم؛ وهذه قصة الحجاج الثانية:

«انفرد الحجاج يوماً عن عسكره، فلقي أعرابياً، فقال له:

كيف الحجاج؟

قال: ظالم غاشم.

---

(١) أخبار الظراف: ١٥٣.

قال: فهلا شكوتموه إلى عبدالملك؟

قال: هو أظلم وأغشم.

فأحاط به العسكر، قال:

«أركبوا البدوي».

فلما ركب سأل عنه فقيل له:

هذا الحجاج.

فركض إليه، وقال:

«ياحجاج».

قال: ما لك؟

قال: السر الذي بيني وبينك لا يطلع عليه أحد.

فضحك منه، وأطلقه». [1]

وابن عمر وضع نفسه عرضة لمقالب خيرة متعددة، اختارها، وتلذذ بها، وأمّل منها أجراً عظيماً، لأنه فرض على نفسه فرضاً قد يكون استُغِلّ بطريقة قد لا يكون الظاهر فيها مثل الباطن:

(١) أخبار الظراف: ١٥٣.

كان ابن عمر إذا رأى واحداً من عبيده يحسن الصلاة يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له، فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: «من خدعنا في الله انخدعنا له»[1].

تظاهرهم بالدين رياءً لم يكن هو الهدف مما قصده عبدالله بن عمر، والعتق كان نتيجة للديانة، لا سبباً لها، وهذا ما يجعل عبدالله في مقلب مع نفسه، ولكنه لم يندم في وقوعه في مصيدة أطبقها غلمانه، بل رجا من الله حيالهم الخير، اللهم اقبل منه!

وابن عمر - رحمه الله - يبدو أنه يعجبه وضع نفسه في مثل هذا الموقف، وكأنه يريد شيئاً يساعده على السير في هذا الطريق السوي، وكأنه يقول لغلمانه: «طالبوني به»:

قال ابن عمر:

---

(١) سراج الملوك: ٤٢٩.

إذا سمعتموني أقول لمملوك: «خزاه الله»! فاشهدوا أنه حر.[1]

ونُتبع هذه الأقوال والقصص بمقلب حاكه ساذج لنفسه، قاده الطمع الوهمي إلى أن يحكم الطوق على نفسه، ولم يدر أنه وقع فيما نصبه لنفسه إلا «بعد أن وقعت الفأس في الرأس».

«في الهند أن ناسكا كان له عسل وسمن في جرة، ففكر يوماً، فقال:

أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري خمس أعنز فأولدهن في كل سنة مرتين، ويبلغ النتاج في سنتين مئتين، وأبتاع بكل أربعٍ بقرة، وأصيب بذراً، فأزرع وينمى المال في يديَّ، فأتخذ المساكين والعبيد والإماء والأهل، ويولد لي ابن فأسميه كذا، وآخذه بالأدب، فإذا هو عصاني ضربته بعصاي برأسه.

وكان في يده عصا، فرفعها حاكيا للضرب،

(١) سراج الملوك: ٤٣٤.

فأصابت الجرة، فانكسرت، وانصب العسل والسمن على رأسه». [1]

وهناك مقلب تسبب فيه رجل مهم لنفسه دون أن يعلم ولكنه سرعان ما تدارك الأمر، وأراد أن يقلب المقلب على أناس غافلين، فتداركوا أنفسهم بحيلة تتماشى مع عقلية هذا الرجل:

«أتى زياد بن عبيدالله الحارثي، وهو أمير المدينة، بسلال خبيص، هدية، فظن أنها فاكهة رطبة، فقال: «ضعوها، وأدعوا مساكين المسجد».

فلما جيء بهم، وفتحت السلال، إذا فيها الخبيص اليابس، مما يبقى، فلم تسمح به نفسه، فقال:

إذهبوا بهؤلاء إلى السجن.

قالوا: ولم - أصلح الله الأمير -؟

قال: لأنكم تقيلون في المسجد، وتصلون بغير وضوء.

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٧٤.

قالوا: فإننا نحلف ألا ندخل المسجد أبداً.[1]

قصته هذه مع هؤلاء المساكين تشبه قصته مع أشعب عندما أعطى أشعب مضيرة من لحم جدي في القصة السابقة، فإما أن يكون ذلك نمط لتفكير زياد لَوَّن سياسته مع الناس، أو أن هذه قصص لفّقها من لفقها على زياد، ونحى فيها منحى واحداً: يعطي زياد كلاًّ أكلا خطأ، فيكتشف ذلك، فيجازي المُعْطى وهو لم يذنب، ثم يمهد لدخوله السجن، ثم يحلف الضحية يميناً ينجيه من دخول السجن!

والأكل يجرنا إلى مقلب آخر جرى من طفيلي على طفيليين، والأكل والطفيلي متلازمان:

أولم طفيلي على ابنته، فأتاه كل طفيلي، فلما رآهم عرفهم، ورحب بهم، ثم أدخلهم فرقّاهم إلى غرفة بسلّم، ثم أخذ السلم حتى فرغ من إطعام الناس، فَلَمَّا لَمْ يبق أحد أنزلهم وأخرجهم.[2]

---

(١) البصائر: ٤/ ١٨٧.

(٢) البصائر: ٤/ ٢٠٢.

وقد يقبل الرجل أن يأتيه المقلب من رجل مثله، أما أن يأتيه من امرأة فأمر يحتج عليه بنو جنسه من الرجال، خاصة إذا كان «شارب» المقلب شخصاً معروفاً، ومن كبار الكتاب والأدباء، مثل الجاحظ، ويزيد الطين بلة أن الجاحظ لا يعرف المرأة، ومع هذا مشى خلفها كالشاة، دون أن يعلم عن الهدف:

يقول الجاحظ:

«ما خجلتني إلا امرأة حملتني إلى صائغ فقالت: «مثل هذا».

فبقيت مبهوتاً. فسألت الصائغ، فقال:

هي امرأة استعملتني صورة شيطان فقلت:

لا أدري كيف أصوره، فأتت بك، فقالت: مثله». [1]

ويهون عند الرجل مقلب توقعه فيه امرأة إذا ما قورن بمقلب يقوده إليه إبليس، فلا يدري عنه

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٥٣.

حتى يخبره بما هو فيه عبدالله بن عباس؛ وتكاد أعمال إبليس، وإغواؤه كله للبشر أن تكون مقالب، لأنه يأتيهم بظاهر العمل، ويلبسه بما يريد كذباً وزوراً وبهتاناً حتى يلتقم أحدهم الطعم، ويقع في السنارة، أو يدخل الشبكة، فيكون حينئذ في يده - أخزاه الله - يفعل به ما يشاء:

«أتى رجل ابن عباس فقال:

نذرت أن أبيت على قعيقعان عريانا حتى أصبح.

فقال ابن عباس:

انظروا إلى هذا، أراد الشيطان أن يكشف عورته، ثم يضحك منه هو وأصحابه. إنطلق إلبس ثيابك ثم صل عليه [الجبل] حتى تصبح»(١).

أرأيتم سخرية إبليس بابن آدم، وكيف أن هذا

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٩٠.

الرجل نذر نذراً خاطئاً ليس له من ورائه هدف أو مصلحة إلا الانصياع لوحي إبليس وإغوائه، والنذر عادة لله إذا منّ على عبده بنعمة كأن يشفي له مريضاً، أو يعيد غائبا، أو يزيد له في خير، أو يربح تجارة، أو يفرج عسرة، أما أن ينذر معصية يشهد عليها عباد الله فأمر لا يخطر بالبال.

وإبليس يعيد الكرة التي سبق أن جربها قبل ذلك فلم يفلح، وآب مخذولاً منها مدحوراً، وذلك عندما أنسى شخصاً أين وضع نقوده، فاستشار أحمد بن حنبل، الذي يعرف مداخل إبليس، فأشار إليه أن يقوم يصلي طوال الليل، وسوف يذكرها حينئذ، فلما رأى إبليس إنه جاد في صلاته ذكر موضع النقود من أول ركعة.

فعاد الرجل إلى الإمام أحمد وأخبره، فقال: لقد علمت أنه لا يدعك تصلي، أفلا بقيت على صلاتك شكراً لله.

إن خير من يعرف طرق إبليس وحيله هم

العلماء، خاصة أئمتهم، ولقد ضحك الإمام أحمد على إبليس ضحكة لعلها تجاوبت مع ضحك الملائكة في السماء، لأن عمل أحمد هو من توفيق الله وهديه.

ولعل إبليس في قضية هذا الرجل جاء ينتقم لنفسه بعد سنين مما عمله به ابن عباس - رضي الله عنه - على أي حال هو لا ينتظر في عمل الشر حتى يكون عمله انتقاماً، وإنما يبتدئ الشيء ابتداءًا.

ونعود إلى مكيدة الإنسان للانسان، وهو الأمر المعتاد في أغلب المقالب، وسوف تكون الحادثة الآتية هي إقفال القوس في حديثنا عن المقالب:

خاطر [راهن] الحسن بن وهب أبا العيناء، وكان الخطر عشرة أرطال ثلج، فغلب الحسن، فطلب الثلج، فلقيه أبو بكر بن إبراهيم بن عتاب فقال:

«الحسن بن وهب يحب لقاك».

فذهب ودخل قبله، وقال:

وجب عليّ عشرة أرطال ثلج، وجئتك بعدل منه.

ثم نادى أدخل يا أبا بكر.

فقال الحسن: أوفيت وزدت». [1]

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٤١.

رقة الحاكم[1]

سجّل التاريخ، ودوّنت كتب الأدب، ولهجت ألسن الناس بقصص عن رقة بعض الحكام، وعطفهم على من يحكمون، وحدث هذا في وقت كان الذين نالهم هذا العطف في حاجة إلى الرقة، والمعاملة الحسنة. ومثل هؤلاء الحكام ينطلقون من نظرة اتخذوها، ومبدأ تبنوه، وقد آمنوا به إيماناً عميقاً، فانعكس هذا على تصرفاتهم، وتبين هذا في أعمالهم، وعرف في معالجتهم لما يعرض عليهم، أو يمر بهم أثناء حكمهم؛ ونظرتهم هذه، والمبدأ الذي حمدوه، هو أنهم ينظرون إلى أبناء شعبهم كما ينظرون إلى أبنائهم؛ فهم يشجعون المحسن، ليزداد إحسانه، وليكون قدوة في مجتمعه يحتذى، ويجازون المسيء بحزم، حتى يأخذوا على يده، ويمنعوا شره من أن يتعدى إلى غيره، وأذاه من أن

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٧٦) في ٩/١/١٤١٥هـ الموافق: ١٨/٦/١٩٩٤م

يمتد إلى الآخرين.

ولذتهم في مكافأة المحسن، وتشجيعه، لا يعدلها إلا ألمهم عند اضطرارهم لمجازاة المسيء، فهم يجازون المخطئ، وبودهم أنه أحسن الناس، ولهم أمل أن الجزاء سوف يؤدي به إلى التحسن، وهم خير من يعرف فائدة الفرد الصالح في المجتمع، وهم أول من يفاخر به، وأولى من يفرح له. وما مجازاتهم للمسيء إلا كما قال الشاعر:

قسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيانا على من يرحم

وليس الحاكم المسلم حريصاً على الجزاء، أو سريعاً إليه، أو مصراً عليه، إذا وجد ما هو أرأف منه، وأقل ألماً، حتى في الحدود يأخذون ما أمكن باتقائها بالشبهات، اقتداء بالرسول ﷺ وصحبه الكرام.

وهذا معاوية يصرح بأنه يحرص على اتخاذ الجزاء الأقل، ويجعل ذلك مبدأ له، وأمراً يجعله له عادة ومنهجاً لا يحيد عنه، وهو يعلنه بملء فيه، فيقول:

«لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت».

قيل: وكيف ذاك؟

قال: كنت إذا مدّوها خلّيتها، وإذا خلّوها مددتها.(١)

وهي رقة تمثل دوحة في قلبه، ظلها العطف والرحمة بالناس، وحسن سياستهم بما لا يؤدي إلا إلى التلاحم بين الحاكم والمحكوم، خاصة في تلك الفترة التي يَعتبره كثير من مواطنيه أنه مغتصب، وأن هناك من بيت النبوة، والمهاجرين الأولين والأنصار، من هو أولى منه بالملك؛ وأن السياسة العنيفة قد تقود إلى فتن هو في غنى عنها، ووجد أن في الرقة والعطف الحل الذي لا يكلفه إلا الصبر الطويل، والحلم الواسع.

وإذا كانت هذه السياسة قد اتخذت في أوائل

(١) عيون الأخبار: ١/ ٦٢.

الحكم الأموي، فإن عمر بن عبدالعزيز، وهو أقرب إلى نهاية ذلك الحكم، فضّل الرقة كذلك، وتلمّس أسباب العطف، يقول رحمه الله:

«إني لأُجمع أن أُخرج للمسلمين أمراً من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأُخرج معه طمعاً من طمع الدنْيا، فإن نَفَرَت القلوب من هذا سَكَنَت إلى هذا»[1].

إنه لا يفكر في هذا، ولا يخطر مثله في بال حاكم، إلا إذا كان يهتم بمصلحة شعبه، وراحتهم، فهو يريد أن يردهم إلى جادة الحق والعدل، بعد أن أبعدوا عنها، وتعودوا على غيرها، فيجد أن هذا صعب عليهم، وأن مثل هذا الأمر الحازم سوف يرهقهم، ويرهقه هو أيضاً؛ لأن ما يرهقهم في نهاية الأمر يرهقه، فيخفف عنهم هذا بحيلة نبيلة يلجأ إليها، لمعرفته نفسيات الخلق، وحبهم لدنياهم، فيجعل مع الأمر جاذباً

(١) عيون الأخبار: ١/ ٦٢.

من جواذب الدنيا، وغالباً ما يكون ذلك مالاً، وهو بمثابة تلبيس الدواء غطاء من الحلوى، يشجع على أخذ الدواء، بطعمه اللذيذ، ويخفي الدواء المر الذي رُجي منه الشفاء.

وعثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الخليفة الراشد، لا يستغرب منه عطفه على رعيته، وحدبه عليهم، وهو أولى من يتلمس الشبهات، ليتفادى بها الجزاء، وقد فرح مرة على الأقل فيما روي، عندما أعفاه الله سبحانه وتعالى من التصدي لقضية انتهت قبل أن يباشرها، ويقال إن فرحته بذلك بلغت القمة، لأنه أعتق رقبة إذ أعتقه الله من معالجة هذا الأمر:

«روي أن عثمان بن عفان دُعي إلى قوم، ليأخذهم على ريبة، فافترقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق عثمان رقبة، شكراً لله تعالى، أن يكون جرى على يديه فضيحة رجل مسلم». (١)

---

(١) سراج الملوك: ٣٢٢، ربيع الأبرار: ٢/ ١٤٢، البصائر: ٦/ ٢٣٦.

وعندما نعرف أن أحد رواة هذا الخبر سعيد بن المسيب، الذي لم يروه إلا اقتناعاً بما فعله عثمان، ولابد أن سعيداً أفتى به فيما بعد، وانتفع به تلاميذه، وتسلسل الخبر مباركاً، فانتفع بالاقتداء به كثير من الحكام عبر العصور.

والخلفاء الراشدون لا يستغرب منهم الإسراع إلى العتق أو الصدقة، تكفيراً عن تقصير، أو حمداً لله وشكراً على نعماء تفضل بها عليهم، هذا عمر رضي الله عنه يسرع إلى عمل برٍّ كبير ليكفر به ما ظنه تقصيراً في واجب ديني:

«خرج عمر رضي الله عنه إلى حائط له، فرجع وقد صليت العصر؛ فقال: حائطي على المسلمين صدقة، وذلك لفوت الجماعة»[1].

وعمر نفسه يرسم حدوداً لأسعد الولاة، وأقربهم لرضاء الله سبحانه وتعالى مخاطباً أحد ولاته:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٤٧.

«كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رحمه الله:

إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وأشقاهم من شقوا به، وإنك إن ترتع يرتع عمالك؛ فيكون مثلك مثل البهيمة رأت أرضا خضرة، ونباتاً حسناً، فرتعت تلتمس، وإنما حتفها في سمنها»[1].

وحث عمر رضي الله عنه على إسعاد الرعية، والبعد عما يشقيها، وعدم الغفلة عنها بالمصالح الخاصة المنتقدة، رِقَّةً منه وعطفاً على من هم في ذمته.

ويبدي عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي رقةً وعطفاً في قصة تروى عنه مع الحجاج:

كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان أن يحمله على أخذ أموال السواد، فكتب إليه:

«لا تكن على درهمك المأخوذ أحرصَ على

(١) تسهيل النظر: ٢٥٧.

درهمك المتروك، وأبق لهم لحوما يعقدوا بها شحوما». [1]

لعل الحجاج إلتفت في هذا الخبر إلى إفادة خزينة الدولة من أموال أراضي السواد التي فيها من الخيرات ما يُطمع فيه، ولكن عبدالملك، وهو الخليفة الذي هو أكثر من الحجاج رقّةً ورأفةً، وأبعد نظراً، وبصيرته ثاقبة، وسياسته أكثر إحكاماً، وأسلم في المدى الطويل، رأى أن ما يؤخذ من السواد، مثل غيره، كافٍ، ولا داعي لأثقالهم بما لا يطيقون، فينقلب الخصب إلى قحط، والازدهار إلى كساد، إذ تقل المادة في أيدي الناس فلا يستطيعون مواجهة متطلبات أراضي الإنتاج، ويقل الربح فلا يجد الفلاحون، وأصحاب الأراضي من الكسب ما يغريهم بالتعب وبذل الجهد، وقد يتحولون إلى غير ما هم فيه، أو ينزلون إلى الحضيض في موجودهم، فيحصل

(١) تسهيل النظر: ٢٥٨.

المحذور الذي لم يتنبه له الحجاج أو من أشار عليه.

إن عبدالملك لم يرد أن يذبح الدجاجة التي تبيض الذهب، وإنه كسب كسباً عظيماً بنيته الطيبة في الرفق بمجموعة من رعيته، وهو حاكم يعرف أن ازدهار دولته من ازدهار أمور رعيته.

وعُرف عن المأمون رقته مع رعيته، ما عدا الفتنة التي قِيد إليها في أمر خلق القرآن، وما عداها فقد عرف عنه فقهه في الدين، وسعة اطلاعه وثقافته، وتشجيعه على ذلك، وعرف عنه عطفه على أفراد رعيته، واشتهر عنه العفو إلى حد أن جاءه منه بعض اللوم:

عفَا المأمون عن إبراهيم بن المهدي، ثم قال:

«لو علم أهل الجرائر لذّتي في العفو ما ارتكبوها».

وروى عنه أيضاً:

لو عرف الناس رأيي في العفو لما تقربوا إليّ إلا بالجنايات.[1]

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٤٥.

وتظهـر رقـة المـأمـون في معـاملتـه للعلمـاء، والحادثة التالية تبرز هذا:

«دخل محمد بن عبادة على المأمون، فجعل يعممه بيده، وجارية على رأسه تبتسم؛ فقال المأمون:
مِمّ تضحكين؟
فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، تتعجب من قبحي، وإكرامك لي.
فقال: لا تعجبي، فإن تحت هذه العمة مجداً وكرماً». [1]

ويأخذ الحاكمَ الغضبُ أحياناً لأمر أثاره، وقد يكون الأمر جللا، خاصة إذا كان فيه رائحة ما يهدّد كيان الدولة، ولكن الحاكم غالباً يمتن من التذكير بما يوجب عدم غضبه، وعدم إنزال عقاب يمليه الغضب، ويَعمى معه عن أن يرى جوانب أخرى للأمر، هي أولى بالرعاية والإلتفات، ويَحمد من المذكِّر تذكيره، ويهدأ

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٤٤.

غضبه، ويحل محل الغضب العطف والرقة اللذان كان يجب أن يلازماه أبداً:

أراد المنصور خراب المدينة لإطباق أهلها على حربه مع محمد بن عبدالله بن حسن.

فقال له جعفر بن محمد:

«يا أمير المؤمنين، إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف قدر فغفر، وقد جعلك الله من قبيل الذين يعفون ويصفحون»[1].

وهناك نظرة رقة وعطف من عمر بن عبدالعزيز، تجاه فرد من أفراد الرعية أراد والي عمر على عمان أن يتعدى فيما أراده له حدود الله، فلم يرد عمر أن يكون من الظالمين، أو الفاسقين، أو الكافرين، وإنما اختار أن يكون من المؤمنين الراحمين لخلق الله:

كتب عامل عُمان إلى عمر بن عبدالعزيز:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٦.

«إنّا أُتينا بساحرة، فألقيناها في الماء فطفت».

فكتب إليه عمر:

«لسنا من الماء في شيء، إن قامت البيّنة، وإلا فخلّ عنها»[1].

لم يقبل عمر أن يأخذ بموازين البشر، وكان قاضياً عدلاً، إذا رُفع إليه الأمر، ولابد من فتوى، فاختار في ذلك دين الله سبحانه وتعالى الإسلام.

وهناك نوع من مظاهر الرقة مع الرعية، والعطف عليهم، والإهتمام بأمرهم، والحفاظ على حقوقهم، وهو نوع تماثل فيه الحكام العادلون المدركون مسلمون وغير مسلمين، وذلك يدور حول عدم قبول الوشاية ورفضها، وتبكيت الساعي فيها، لأن هذا الباب لو فتح دخل منه ضرر كبير على الحاكم والناس، واستفاد منه ضعاف النفوس؛ ورقة الحاكم مع رعيته تجعله يقظاً لمثل هذا، لأنه يتنافى مع علاقة الأبوة التي

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٢٨.

تربط الحاكم الراعي مع رعيته، وتوجب منه التغاضي عن الزلات، وعن التخرص في أمور النيات التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى:

«رفع رجل من العامة إلى كسرى بن قباذ:

إن في بطانة الملك جماعة قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم بقتله بزرجمهر؛ وقد همّوا بما لم يفعلوا، وهم غير مأمونين على المملكة، منهم فلان وفلان؛ فإن رأى الملك أن يعاجلهم فعل.

فوقع: إني إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر».[1]

وبهذا أقفل كسرى باب فتنة أراد شخص أن يفتحه مستغلاً قتل كسرى لبزرجمهر، ولعله أراد بهذا أن يكيد لبعض أعدائه، أو أراد أن يتقرب من كسرى، فلم يعط الفرصة.

ومثل ما حدث مع كسرى حدث مع السفاح:

---

(١) البصائر: ٢/ ١٨٤.

«دفع بعض السعاة إلى أمير المؤمنين السفاح قصة بسعاية على بعض عُمَّالِه، فوقع فيها:

«هذه نصيحة لم ترد بها ما عند الله، ونحن لا نقبل قول من آثرنا الله عليه»[(١)].

وشرير آخر في زمن العباسيين كتب إلى وزير الدولة، يغريه بأخذ أموال طفلة يتيمة، تقرباً ونفاقاً، فجبهه الوزير:

«قد مات فلان، وخلّف خمسين ألف دينار عيناً، ولم يخلِّف غير طفلة، فإن رأى استعراض المال إلى أن تبلغ الطفلة، ففي عقارها وأملاكها كفاية»!

فوقّع على ظهر كتابه:

«الطفلة جَبرَها الله، والمال ثَمَّرَهُ الله، والسّاعي لعنه الله، لا حاجة للسلطان إلى المال»[(٢)].

الفرق شاسع بين الرجلين، والبون بعيد بين النيتين، والاختلاف واضح بين النظرتين، نظرة

---

(١) تمام المتون: ٢٣٢.

(٢) تمام المتون: ٢٣٢.

حسد، ونظرة رقة وعطف وعدل.

وقد تعرض المهدي الخليفة العباسي، لما تعرض له السفاح ومن قبله كسرى:

قال رجل للمهدي:

«عندي لك نصيحة يا أمير المؤمنين:

قال: لمن هي؟ لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك؟

قال: لك يا أمير المؤمنين.

قال: ليس الساعي بأعظم عورة، ولا أقبح حالاً، من قابل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفي غيظك، أو عدوّاً فلا نعاقب لك عدوك».

ثم أقبل على الناس فقال:

«لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رِضَى الله، وللمسلمين فيه صلاح، فإنما لنا الأبدان، وليس لنا القلوب، ومن استتر لم نكشفه، ومن أخطأ أقلنا عثرته.

إني أرى التأديب بالصفح أبلغَ منه بالعقوبة،

والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة؛ والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم». [1]

لقد شارك المهدي كسرى في قوله إنه لا يملك إلا الأجساد، وأنه لا يملك النيات والقلوب، ولقد زاد في إظهار سياسة الرقة تجاه رعيته، فرسم مبادىء تخط بماء الذهب، ولا يستغنى عن السير عليها حاكم يطلب النجاح.

ـ[2] وللخليفة الواثق موقف يدل على عمق في الرقة تجاه رعيته، ومقدرة فائقة على تحكيم العقل، ونظرة واقعة للأمر؛ فلم ينفعل ويغضب من موقف مُغضب؛ ولو لم يكن رقيقا مع رعيته كان يمكن أن يلجأ إلى العقاب الصارم للذي كان بذيئاً في حديثه عن خليفته وإمامه، والقصة تجرى حوادثها هكذا:

---

(١) تمام المتون: ٢٣٥.

(٢) من هنا يبدأ جزء لم ينشر في عكاظ.

«حكي أن أمير المؤمنين القادر بالله أحمد، بينما هو ذات ليلة يمشي في أسواق بغداد إذ سمع شخصاً يقول لآخر:

قد طالت علينا دولة هذا المشؤوم، وليس لأحد منا عنده رزق.

فأمر خادماً كان بين يديه أن يتوكل به، ويجهزه بين يديه؛ فسأله عن صنعته فقال:

إني كنت من السعاة الذين يستعين بهم أرباب هذا الأمر على معرفة أحوال الناس، فمذ ولي أمير المؤمنين أقصانا، وأظهر الإستغناء عنا؛ فتعطلت معيشتنا، وانكسر جاهنا عند الناس.

فقال: أتعرف من في بغداد من السعاة؟ قال: «نعم».

فأحضر كاتباً فكتب أسماءهم، وأمر بإحضارهم.

ثم إنه أجرى لكل واحد معلوماً، ونفاهم إلى الثغور القاصية، ورتبهم هناك عيونا على أعداء الناس.

ثم التفت إلى من حوله وقال:

إعلموا أن هؤلاء ركب الله فيهم شراً، وملأ صدورهم حقداً على العالم، ولابد لهم من إفراغ ذلك الشر؛ فالأولى أن يكون ذلك في أعداء الدين، ولا ينغص بهم على المسلمين». [1]

لقد كان القادر بالله عالماً نفسياً تغلغل داخل نفس المشتكي، الداعي على الخليفة، فعرف أنه حانق لمصلحة افتقدها، فكشف عن ذلك، فوجده، ووجد أنه كان من الجواسيس الذين كانوا ينبثون بين الناس، ولكنه يبدو أنه أبطل هذا النشاط عندما جاء للخلافة، ففقد مجموعة من الناس عملهم، الذي تعودوا عليه، ولا يتقنون غيره، والقادر بالله يعتبره عمل شر، لهذا أبطله، وبقي الشريرون يسنون سكاكينهم، فلم يتركهم عاطلين، ولم يصرف ما يقيتهم، ويبقون بلا عمل، ولكنه أوجد لهم عملاً يليق بهم، يستغل نشاطهم

(١) تمام المتون: ٢٣٣.

الشرير، في مكان ينفع فيه الشر، ويعود على المجتمع الإسلامي بمصلحة، فوضعهم في الثغور، ينبثون بين ثنايا مجتمع الأعداء، يفرغون فيه طاقتهم الشريرة.

وللحكام النابهين نظرة فيما يأتي من رعيتهم من أمور مخالفة للمعتاد، ويعرفون أن وراءها غير ما يظهرون، وما يظهرونه ما هو إلا ستار رقيق يرى النابه ما تحته وما يخفيه، فهذا المتذمر أدرك الخليفة القادر بالله أن خلف دعائه عليه ما يخفيه عمن يخاطبهم، ويحاول أن يستميل قلوبهم بكلماته، وقد كشف عنه فوجده وعالجه.

وللمأمون موقف مماثل في قصة مختلفة أظهر بطلها غير ما يبطن، وتستر بقول حتى يسأل فيجيب عما أخفى، لأنه لو أظهر ما أخفى بطريقة عادية لم يلتفت إليه أحد:

«تنبأ رجل أيام المأمون فقال:

«أنا أحمد النبي».

فحمل إليه .

فقال له : أمظلوم أنت فتنصف؟

فقال له : ظلمت في ضيعتي .

فتقدم بإنصافه .

ثم قال له : ما تقول؟

قال : أنا أحمد النبي ، فهل تذمه أنت؟» .[1]

ذكي لاقى ذكياً، هذا الرجل المتنبئ أدرك أنه لن يصل إلى الخليفة ليبلغه ظلامته إلا إذا احتال بحيلة توصله إلى الخليفة، والحيلة التي يمكن أن توصل إلى الخليفة هي مسّ الدين أو الدولة، مسّاً جوهرياً؛ فاختار هذه الجملة المنتقاة بعناية وذكاء، وأوهم أنه متنبئ .

وجاؤا به إلى خليفة فأدرك أن وراءه شكوى، فسأله عنها، فأجاب. وبعد أن أنهى الجانب الرئيس في أمر الرجل تفرغ ليسأل عن أمر النبوة، ففوجئ هو والحاضرون بما لم يكن لهم بحسبان،

---

(١) البصائر: ٦/ ٦١.

ووجدوا أن جملته التي كانوا يظنون أن فيها هلاكه جرابٌ مليء بالتقوى، يثاب عليه ويؤجر، وإن لم يأتوا معه إليها فهم الآثمون.

ونعود مرة أخرى إلى السعاية ، وعدم قبول الحكام لها، رأفة برعيتهم، ورفقاً بهم. والقصة التالية بديعة، لحسن تصرف الأمير فيها، ورسمه سياسة واضحة لما سيحكم به:

«لمّا وُلّي عبدالعزيز بن عبدالملك دمشق، ولم يكن في بني أمية ألبّ منه في حداثة سنه، قال أهل دمشق:

«هذا غلام شاب، ولا علم له بالأمور، وسيسمع منا».

فقام إليه رجل فقال:

أصلح الله الأمير! عندي نصيحة.

فقال: ليت شعري، ما هذه النصيحة التي ابتدأتني بها من غير يدٍ سَبَقَت مني إليك!

قال: جار لي عاص، مختلف فيه.

فقال: ما اتّقيت الله، ولا أكرمت أميرك، ولا حفظت جارك؛ إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقاً فيما قلتَ لم ينفعك ذلك عندنا، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أقلناك.

قال: أقلني.

قال: إذهب حيث شئت، لا صحبك الله! إني أراك شر رجل.

ثم قال: يا أهل دمشق، لولا أنه لا ينبغي للوالي أن يعاقب قبل أن يعاتب، كان لي في ذلك رأي؛ فلا يأتني أحد منكم بسعاية على أحد بشيء، فإن الصادق فيها فاسق، والكاذب فيها بهّات». [1]

هذا التصرف الجميل يدل على نية حسنة، وقصد نبيل، تجاه الرعية، وحكم بالتغاضي والتسامح، ومحاولة لجعل المجتمع عائلة واحدة يسود بينهم التواد والتراحم، لا التحاسد والمكائد.

(١) تمام المتون: ٢٣٣.

وكنا في حديث آخر ذكرنا عن ملك الهند الذي تألم عندما أصيب بالصمم، فلم يعد بإمكانه أن يسمع شكوى المظلوم، فاحتال على إيصال المظالم إليه بأن طلب من أي مظلوم من أبناء شعبه أن يلبس ثوباً أحمر، ويأتي إلى بابه.[١]

وكسرى أنوشروان اشتهر عنه العدل حتى صار مضرب المثل في ذلك في زمانه، والعدل منتهى الرقة والرأفة في حكم الرعية، ومعاملتهم، وله قصة يتبين فيها عطفه وحدبه على أبناء وطنه:

قال أنوشروان:

«قد خفت أن يحجب عني المظلوم؛ فعلّق على أقرب البيوت إلى بيته ستراً، وعلق عليه الأجراس، ونادى مناديه: من ظلم فليحرك هذا الستر حتى أسمع صوت الأجراس فأدعو به».[٢]

هذه نماذج من رقة الحكام تجاه محكوميهم،

---

(١) سراج الملوك: ١٧٤.
(٢) البصائر: ٦/ ٦٣.

وهي قليل من كثير مما هو مدون في هذا المجال، مما تزخر به كتب التراث، من تاريخية وأدبية، وفيها حِكَمَ ترشد المسترشد إلى نجاح الحكم، ولِحم الراعي مع الرعية؛ وما ورد فيها عن حكام المسلمين يشهد لهم بالسبق الحضاري في هذا المجال.

النحل يقضم الحقيقة[1]

النحل آفة الحقيقة، وهو كذب مغلف بغلاف مزيف، أحياناً يأتي متقناً، وأحياناً فاضحاً واضحاً، وأسوؤه ذلك الذي يُتَعمد، لهدف رديء، وغرض دنيء. وقد شُوِّه التاريخ بهذا الفعل المرذول، حتى لم يعد من السهل معرفة الفرق بين الحقيقي والمنحول.

وإذا كان النحل المتعمد، والدسّ المقصود، يؤذي الحقيقة، فإن ما يأتي من النحل عرضاً دون قصد، إما لعدم وضوح الأمر للراوي، أو لسوء تعبيره، يسبب ضرراً يكثر ويقل، ويزيد وينقص حسب بعد المعنى عن المقصود، نتيجة لإخفاق التعبير في أن يصور المطلوب.

والتشويش الذي سبّبه النحل للتاريخ العربي والإسلامي جعل كثيرين من الغيورين يفكرون في

---

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٨٣) في ١٦/١/١٤١٥هـ الموافق: ٢٥/٦/١٩٩٤م

إعادة كتابة التاريخ، ورغم المحاولات المتعددة في هذا، فإنها لم تقطع شوطاً بعيداً يذكر، لأن من يتصدى لها يجد نفسه في نهاية المطاف عاجزاً، فالجهد لا يتناسب مع الإنجاز، والمشاكل يتبين أنها فوق طاقة باحث واحد، يتصدى لمثل هذا الأمر العظيم.

ولعل من أول من حاول أن يصفّي التاريخ من شوائبه ابن خلدون، وقد شرح رأيه تجاه هذا الأمر في المقدمة المشهورة، التي أبان فيها أسباب إقدامه على إعادة كتابة التاريخ، والأسس التي يرى أنها يجب أن تتبع، ولكنه عندما بدأ كتابة تاريخه غرق في البحر الذي غرق فيه من قبله من المؤرخين، ووجد أنه إما أن يمشي فيه حبواً، ولا يقطع أرضاً، أو أن يكمله، ويضحي بالمبادئ التي وضَعَها.

وابن خلدون سهل عليه، مثل كثيرين، وضع النظرية، ولكنها تصبح ثوباً ضافياً يعجز عن

تفصيلـه على الجسـم المـراد إلبـاسـه لـه، أمهـر الخياطين.

لهذا أصبح الأتجاه عند المهتمين بإعادة كتابة التاريخ، ينصب على حقب محدودة، أو سنوات معدودة، يختار لها متخصص متعمق، يُعتَمَدُ خبيراً في هذا المجال؛ ومن أنجح المحاولات، وهي محدودة في حجمها وموضوعها، الموسوعات، التي تسير على نهج المعاجم في ترتيبها.

وهذه الموسوعات، وإن أفادت في نفسها، إلا أنها لا تكفي لمقابلة الطموح الذي يسعى إليه المؤرخون، لأن الترابط الزمني ينقصها، وهو أمر مهم في كتابة التاريخ، ليعطي الصورة المتكاملة للفترات المتتابعة، والحقبة المتلاحقة؛ وفي كثير من الأحيان المقالات في هذه الموسوعات توصل القارئ إلى منتصف الطريق، وتوقفه في صحراء جرداء، لا ماء ولا مرعى، فلا هي أَيْأَسَتْهُ من أول الأمر، ولا هي شفت غليله كما كان يأمل.

ووصف النحل بكلمات عامة لا يعطي الفكرة الكافية لمعرفة مدى تغلغله في التاريخ المكتوب، ولا مدى الأضرار التي أحدثها، ولابد من إعطاء أمثلة تكون نماذج لما يشار إليه عن الوضع والنحل، وسآتي ببعض أقوال عما قيل في هذا، وما لوحظ على بعض النصوص من النحل والوضع، وعلى الطرق التي عرف بها هذا النحل. وفي كل نص نأتي به تتبين فائدة في هذا المجال:

ويبدو أن النحل لم يقتصر على حوادث محدودة تنسب إلى هذا الخليفة، أو هذا العامل، ولا على مثالب بعينها ترمى بها القبيلة الفلانية، ولا بعض الميزات تبرّ بها قبائل أخرى، ولا جملاً تسقط، أو كلمات تضاف، لتوصل إلى هدف ترجح به كفة، أو تشيل معه كفة؛ ولكن النحل تعدى ذلك إلى نحل كتاب كامل، لهدف أشار إليه من نبه على هذا النحل:

قال الأزهري: ومن المتقدمين الليث بن المظفر

الذي نحل الخليل بن أحمد تأليف «كتاب العين» جملة، لينفق كتابه باسمه، ويرغب فيه من حوله.

وأثبت لنا عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي الفقيه أنه قال: كان الليث رجلاً صالحاً، ومات الخليل ولم يفرغ من «كتاب العين»، فأحب الليث أن ينفق الكتاب كله، فسمّى لسانه الخليل، فإذا رأيت في الكتاب «سألت الخليل» أو «أخبرني الخليل»، فإنما يعني لسان نفسه؛ قال: وإنما وقع الاضراب فيه من خليلٍ الليث».[1]

قال أبو الطيب اللغوي، مصنف «كتاب العين» الليث بن المظفر بن نصر بن سيار، روى ذلك عن أبي عمر الزاهد، قال:

حدثني فتى قدم علينا من خراسان، وكان يقرأ عليّ «كتاب العين» قال:

أخبرني أبو إسحاق بن راهويه، قال:

«كان الليث بن المظفر بن نصر بن سيار،

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٤٣.

صاحب الخليل، رجلاً صالحاً، وكان الخليل قد عمل من «كتاب العين» «باب العين»، فأحب الليث أن ينفق سوق الخليل، ثم ذكر كما ذكر الأزهري» .(١)

وقد لا يكون في أمثال هذا النحل من الضرر ما يفزع، إلا أنه إن صح فهو خلاف الحقيقة، ومجرد مخالفة الحقيقة يُزَعزع الثقة، وتَزَعزع الثقة ضرر كبير، يؤدي إلى عدم قبول ما يقبل، وهذا يعني رد ما فيه منفعة.

والضرر الكبير يأتي من الحقائق المخترعة، والوضع المتعمد، يحشر في الكتب بين الروايات، بطريقة ختّالة، يصعب معها تمييز الصحيح من المكذوب؛ والتاريخ تعتمد عليه أمور خارجة، فقد يتوقف عليه حقوق، وقد تدفع به مغارم، ويأتي عن طريقه مغانم مستحقة، وفي ضوئه أحياناً تصحح أوضاع ويعدل ميل وخطأ.

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٤٤.

وابن اسحاق من أول المؤرخين في الإسلام، واعتمد كثير من المؤرخين على ما رواه، إلا أن سمعته شابها بعض الضعف، والثقة فيه لم تبق صافية، لما روي عن وضعه للأخبار، ومن النصوص، التي وردت مشيرة إلى هذا، النص التالي:

«وقال (ابن أبي حازم) محمد بن إسحاق كانت تعمل له الأشعار، يضعُها في كتب المغازي، فصار بها فضيحة عند رواة الأخبار والأشعار؛ وأخطأ في كثير من النسب الذي أورده في كتابه، وكان يحمل عن اليهود والنصارى، ويسميهم في كتبه: «أهل العلم الأول»، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه». [1]

وهناك نص آخر يضيف ظِلاًّ قاتماً على ابن إسحاق:

«قدم محمد بن إسحاق البصرة، فكان فتيان

---

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ٨.

البصرة يضعون له المراثي لِبَنَاتِ عبدالمطلب، فيصلها هو بالسيرة والغزوات». [1]

ومن التهم التي توجه إلى بعض من يدسّ على التاريخ التهمة الموجهة إلى عوانة بن الحكم، والنص كالآتي:

«روى عبدالله بن المعتز عن الحسن بن عُليل العنزي: أن عوانة بن الحكم كان عثمانيا، وكان يضع أخباراً لبني أمية». [2]

ويبدو أنه في إحدى المرات جُوبِهَ بما فعل، فتملص من الجواب، ومرق من الركن الذي حُجز فيه:

«حدث أبو العيناء عن الأصمعي قال:
أنشد عوانة بيتين، فقيل له: لمن هما؟
قال: أنا تركت الحديث بُغْضاً مني للإسناد، وليس أراكم تعفوني منه في الشعر». [3]

---

(١) البصائر: ٩/ ٢٢٤.
(٢) معجم الأدباء: ١٦/ ١٣٧.
(٣) معجم الأدباء: ١٦/ ١٣٧.

ومن النصوص التي تَصِمُ بعض الأشخاص بالكذب، وَوَضْع الأقوال، وأختلاق الأحاديث، النص التالي الذي يَصِمُ ابن دأب، وهو من الحجاز، والشوكري وهو من الكوفة:

وحدث الرياشي قال:

قال الأصمعي: قلت لخلف الأحمر:

أما ترى ما جاء به ابن دأب من الحجاز؟ والشوكري من الكوفة؟

فقال: إنما يروي لهؤلاء من يقول: قالت سِتّي، ويدعو ربه من دفتر، ويسبح بالحصى، ويحلف محيت المصحف، ويدع «حدثنا وأخبرنا»، ويقول: «أكلنا وشربنا».

وزعم العنزي أن ابن دأب كان يضع أخباراً لبني هاشم، وكان عوانة بن الحكم عثمانياً، ويضع أخباراً لبني أمية». (١)

وخطورة الأمر في هذا هو الحماس في كل طرف

---

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ١٦٢.

لفريقه، والتسابق في الأختلاق والوضع، ومحاولة التفنن في هذا والابتداع، والحرص على التعمية بالاستفادة من الحقائق الثابتة، وإدخال زيادات عليها تشوبها، وتغير مجراها، أو تُحمِّلها ما لم تحمل من قبل.

وهناك نص آخر عن ابن دأب هذا، وما كان يضعه، وفي أي المجالات كان يدسّه، وقد شمل ذلك عدة مجالات:

«قال الأصمعي:

كان ابن دأب يضع الشعر، وأحاديث السمر، وكلاماً ينسبه إلى العرب؛ فسقط، وذهب علمه، وخفيت روايته»[1].

وإذا كان هذا فيما يخص الرواية، وإشاعة الأحاديث المكذوبة عرضاً فهناك من يعتني بتثبيت كذبه، وتعمية تدليسه، وبذل جهد مضن في نشره، وأتخاذ عدة خطوات في سبيل ذلك، ومتابعة

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ١٦٤.

مستميتة في محاولة وصول ما ينتحله إلى أكبر عدد من القراء؛ والنص الآتي يوضح مثل هذه الجهود، ويبين الأشخاص الذين كانوا يقومون بالتدليس، وعددهم الكبير، وهو أمر يخيف إذا صح:

«وما هو إلا أن ولد أبو مخيف حديثاً، أو الشرقي ابن القطامي، أو الكلبي، أو ابن الكلبي، أو لقيط المحاربي، أو شوكر، أو عطاء الملط، أو ابن دأب، أو أبو الحسن المدائني، ثم صوّره في كتاب، وألقاه في الوراقين، إلا رواه من لا يحصِّل، ولا يتثبت، ولا يتوقف». [1]

ويتبين التفنن في التدليس، والتشعب في النحل، وتعدد جوانب الوضع، واختلاف أوجه الدَّسِّ في النص التالي:

كان يونس بن حبيب يقول:

«يا عجبا للنّاس، كيف يكتبون عن حماد، وهو يُصَحِّف ويكذب ويلحن ويكسر». [2]

---

(١) كتاب البغال: ٢٧.

(٢) كتاب البغال: ٢٨.

هذه بعض أمثلة مما قيل عن الوضع والتصحيف والنحل والكذب في الأحاديث، وعن الوسائل التي تختار لذلك، والطرق التي تسلك للتضليل والتعمية، وهي قليل من كثير.

وتأتي الخطوة الثانية في تمحيص النصوص، ومعرفة الغث من السمين، والصحيح من السقيم، والحادث فعلاً من المختلق كذباً وزوراً، وهذا يحتاج مع الثقافة الواسعة، للعلم الكامل بما هو حول ما يدرس، حتى يسهل تكوين الملكة القادرة - مع توفيق الله - على التمييز والوصول إلى الهدف بسهولة ويسر.

ـ[1] وقبل ذلك يمكننا أن نستكمل ما جاء من نصوص ناقش الأولون بها الوضع، وَبَيَّنُوا مآتيه في حادثة من الحوادث معينة، وأحد هذه النصوص النص التالي:

«قالوا وقع بين حيين من قريش منازعة،

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف على ما سبق أن نشر بعكاظ.

فخرجت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها على بغلة، فلقيها ابن عتيق، فقال:

إلى أين – جعلت فداك –؟

قالت: أصلح بين هذين الحيين.

قال: والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل، فكيف إذا قيل: يوم البغل!

فضحكت وانصرفت.

هذا – حفظك الله – حديث مصنوع، فظن الذي ولد الحديث أنه إذا أضافه إلى ابن عتيق، وجعله نادرة وملحة، أنه سيشيع، ويجري عند الناس مجرى الخبر عن أم حبيبة وصَفِيَّة؛ ولو عرف الذي اخترع هذا الحديث طاعة الناس لعائشة – رضي الله عنها – لما طمع في جواز ذلك؛ وقال علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه:

منيت بأربعة: منيت بأشجع الناس، يعني الزبير، وأجود الناس، يعني طلحة، وأنضر الناس، يعني يعلى بن منية، وأطوع الناس في

الناس، يعني عائشة.

ومن بعد هذا، فأي رئيس قبيل من قبائل قريش كانت تبعث إليه عائشة - رضي الله عنها - فلا يسارع! أو تأمره فلا يطيع! حتى احتاجت أن تركب بنفسها؟ وأي شيء كان قبل الركوب من المراسلة والمراوضة والمدافعة والتقديم والتأخير، حتى اضطرها الأمر إلى الركوب بنفسها؟

وإن شراً يكون بين حيين من أحياء قريش، تفاقم فيه الأمر حتى احتاجت عائشة - رضي الله عنها - إلى الركوب فيه، لعظيم الخطر، مستفيض الذكر، فمن هذان القبيلان؟ ومن أي ضرب كان هذا الشر؟ وفي أي شيء كان؟ وما سببه؟ ومن نطق من جميع رجالات قريش، فعصوه وردوا قوله، حتى احتاجت عائشة إلى الركوب؛ ولقد ضربوا قواديم الجمل، فلما برك، ومال الهودج، صاح الفريقان: «أمكم أمكم»!

فأمر عائشة أعظم، وشأنها أجل، عند من

يعرف أقدار الرجال والنساء، من أن يجوز هذا الحديث المولد، والشر المجهول، والقبيلتين اللتين لا تعرفان.

والحديث ليس له إسناد، وكيف وابن عتيق شاهد بالمدينة، ولم يعلم بركوبها، ولا بهذا الشر المتفاقم بين هذين القبيلتين؟ ثم ركبت وحدها، ولو ركبت عائشة لما بقي مهاجري ولا أنصاري، ولا أمير ولا قاض إلا ركب، فما ظنك بالسوقة والحشوة، وبالدهماء والعامة». [1]

هذا هو رأي الجاحظ في هذا الخبر فَنَّده بدقة، وجاءه من كل زاوية وركن، فَهَدَّ ما كان قائما، وأوهن ما بدا منه قوياً، وسلب الخبر غَلواءه، وعنجهيته، وأورده التراب، ومما يلاحظ أنه أشار إلى ما حاول واضع الحديث أن يروِّجه ويشيعه، ويجذب الناس إليه، وهو أنه جاء به على سبيل نادرة وملحة، وهي وسيلة متكررة في الأخبار

(١) كتاب البغال: ٢٦.

الموضوعة، وطريقة ناجحة في ترويج الخبر ونشره.

ومن صور النحل التي لا يجعلنا النص عنها نجزم فيما إذا كانت جاءت بحسن نية، ودخلها الخلل بسبب رداءة كفاية ذهن ناقلها وراويها، أو أن النيّة مبيتة لتغيير معالمها على عدة مراحل. المهم أن النص جاء عديم الفائدة، وفي الغالب به بعض الضرر، قد يصغر وقد يكبر:

جاء في ترجمة كيسان ابن المعروف النحوي أبو سليمان الهجيمي:

قالوا: كان يخرج معنا إلى الأعراب، فينشدونا، فيكتب في ألواحه غير ما ينشدونا، وينقل من ألواحه إلى الدفاتر غير ما فيها، ثم يحفظ في الدفاتر غير ما نقله إليها، ثم يحدّث بغير ما حفظ». [1]

هذه بعض النصوص التي تتحدث عن النحل المباشر، وما قيل عنه وما لوحظ منه، وهناك

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٣١، ربيع الأبرار: ١/ ٦١٩.

نصوص يمكن أن تعرض على العقل والتدبر، وتجرى بين أجزائها مقارنة، وتفحص على ضوء المعلومات العامة عند المتدبر، أسوة بما فعله أحمد ابن علي الخطيب، عندما عرضت عليه وثيقة أثبت بالحجة القاطعة أنها مزورة، لأنه تمعن في التواريخ، وعرضها على ما في ذاكرته عنها، فجاء بالرأي السديد، والقول الصائب:

«كان قد أظهر بعض اليهود كتاباً، وادّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصحابة، وأنه خط علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

فعرضه رئيس الرؤساء على أبي بكر الخطيب فقال: هذا مزوّر، فقيل له:

من أين لك ذلك؟

قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة تسع؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ، وكان قد مات

يوم الخندق في سنة خمس، فاستحسن ذلك.[1]

والخطيب استفاد من ثقافته التاريخية أولاً، ثم من قوة ذاكرته، وكان مشهوراً بالحفظ، واستفاد أيضاً من الملكة التي تكونت عنده من دراساته وتجاربه، فقد عمد إلى تجزئة الخبر، وعرض كل جزء للمقارنة بينه وبين ما جاء عنه في التاريخ العام، فوجد تنافراً بين جزء وما كان متوقعاً أن يتلاءم معه، فأبطل الكتاب من أساسه، وجاء بما يقنع، ليس وراء هذه الحجة حجة.

وورد في التراث أشياء غريبة في البحر، أخذ خيال القصاص يجمح فيها دون قيد أو حد، فاختلط فيما يقال عن البحر، وعما فيه، الصحيح بالكذب، والموصوف بمقدار، مع الموصوف بمغالاة. والبحر وما فيه من إبهام أتاح الفرصة لكل من ركبه أن يهول مما فيه، ومما مرّ به أثناء ركوبه إياه، وكثيراً ما يبني راكبو البحر مجدهم

---

(١) معجم الأدباء: ٤/ ١٨.

على ما يدعونه من أهوال مروا بها، وشجاعة أبدوها، ويكاد لا يكون هناك أمر غريب إلا ويقبل إذا عُـزِي للبحـر، والبحـر بسعتـه وعمقـه يمهـد الطريق لما يقال، مع رهبة ركوبه في الليل البهيم، حيث لا نور يؤنس، وليس هناك إلا سماء وماء، والمرء بين أمواج ورياح.

وقد لاحظ هذا بعض الحكماء، ونبه إلى وضع القصص من قبل رجال البحار، مديمي ركوب البحر، وكذلك الطارئين عليه:

«ذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر، وتزيُّد البحريين، فقال: البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب زوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق؛ وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلماً لا دّعاء المحال»[1].

وهذا النحل والإدعاء قد يكون محدود الضرر،

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١١٢.

وفيه من التسلية ما قد يخفف من الاعتراض عليه، فهو ليس مثل الكذب في التاريخ وما إليه.

وينسى من يبتدع الأقوال الكاذبة أبسط الأمور فيما يمنعه دينه من الإقدام عليه، فهو في سبيل تثبيت حق غير ثابت، يأتي بما يجرح العقيدة، فالتنبؤ بالغيب خطأ جسيم دنيا وآخرة، وهذا مسلك نجده كثيراً في بعض الحقب التاريخية في العصور الوسطى. ومن أمثلة ذلك النص التالي الذي يرمي به قائله إلى تثبيت حق العباسين أمام دعوى منافسيهم من بني هاشم، أو من الأمويين، وفداحة الأمر تتبين عندما ينسب القول إلى أجلاء الصحابة، إمعاناً في محاولة الإقناع:

يقول ابن قتيبة:

«حدثني محمد بن عبيد قال: حدثنا أبو أسامة عن زائدة عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان إذا سمعهم يقولون:

«يكون في هذه الأمة اثنا عشر خليفة»، قال:

ما أحمقكم! إن بعد الأثنى عشر ثلاثة منا: السفاح والمنصور والمهدي، يسلمها إلى الدجال؛

قال أبو أسامة: تأويل هذا عندنا أن وُلد المهدي يكونون بعده إلى خروج الدجال».[1]

هذه إحدى وسائل النحل السياسي، والطرق التي يلجأ إليها من يماثل في زمننا وسائل الإعلام، ففي هذا النص محاولة دائبة لإثبات حق العباسيين، وإيآس غيرهم من الخلافة، ودفعهم إلى عدم محاولة المطالبة بالحكم لا من العلويين، ولا من الأمويين، ولا من غيرهم ممن قد يطمح إلى ذلك.

ولم يكتف دعاة العباسيين بهذا القول، بل عضدوه بقول آخر، ظاهر البطلان اليوم، والخبر يسوقه صاحب كتاب «تاريخ بغداد» هكذا:

«قال: حدثت زينب بنت سليمان بن المنصور قالت:

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٠٢

حدثني أبي عن أبيه عن جده قال: قال لي ابن عباس: يا بني إذا أفضى هذا الأمر إلى ولدك، فسكنوا السواد، ولبسوا السواد، وكان شيعتهم أهل خراسان، لم يخرج هذا الأمر إلا إلى عيسى بن مريم عليه السلام». [1]

وقد خرج منهم الأمر، وذهب إلى غيرهم، وزال حكم العراق من يد إلى يد إلى يومنا هذا، ونبرىء عبدالله بن عباس من التطاول على حق الله سبحانه وتعالى في علم الغيب، الذي لا يعلمه إلا هو، وتعالى عما يصفون.

وننتقل إلى نص آخر لنرى كيف دخله النحل، وذلك بعرضه على بوتقة العقل، إعتماداً على ما نعرفه عن القوم وخلقهم، ومقدرة البشر وحدودها، وكشفاً للجانب الأدبي الذي أغرى الأديب بتدبيج القصة، إعتماداً على ثقافته الجيدة، ومعلوماته الواسعة عن طبيعة من أورد أسماءهم

---

(١) تاريخ بغداد: ١٤/ ٤٣٥.

في قصته التي نحلها، وحتى هذه القصة قد يحتج واضعها على أن الفراسة لعبت دوراً كبيراً فيها، إلا أن الفراسة لا تتكرر خطوات الصواب فيها بهذا القدر إلا في ذهن الأديب الخيالي، ولعل القاص هذا أراد خيراً، لأنه مدح كلاً من هؤلاء بما عرف عنه، ولم ينس معاوية:

«لما قدم معاوية المدينة منصرفاً من مكة بعث إلى الحسن والحسين، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن صفوان، بهدايا من كسى وطيب، وصلات من المال، ثم قال لرسله: ليحفظ كل رجل منكم ما يرى ويسمع من الرد.

فلما خرج الرسل من عنده قال لمن حضر:

إن شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم.

قالوا: أخبرنا يا أمير المؤمنين.

قال: أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب، ويُنْهِب ما بقي من حضره، ولا ينتظر غائباً.

وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قُتِل مع أبيه بصفين، فإن بقي شيء نحر به الجزر، وسقى به اللبن.

وأما عبدالله بن جعفر فيقول: يا بديح، إقض به ديني، فإن بقي شيء فانفذ به عداتي.

وأما عبدالله بن عمر فيبدأ بفقراء عدي بن كعب، فإن بقي شيء أدّخره لنفسه، ومانَ به عياله.

وأما عبدالله بن الزبير، فيأتيه رسولي، وهو يسبح، فلا يلتفت إليه، ثم يعاوده الرسول، فيقول لبعض كُفاته: خذوا من رسول معاوية ما بعث به، وصله الله وجزاه خيراً، لا يلتفت إليه، وهي عنده أعظم في عينه من أُحُد؛ ثم ينصرف إلى أهله، فيعرضها على عينه، ويقول:

أرفعوا، لعلّي أن أعود على ابن هند يوماً ما.

أما عبدالله بن صفوان، فيقول قليل من كثير،

وما كل رجل من قريش وصل إليه هكذا، ردوا عليه، فإن ردّ قبلناها.

فرجع رسله من عندهم بنحو مما قال معاوية.

فقال معاوية: أنا ابن هند أعلم بقريش من قريش». [1]

إن النظر في هذا النصّ بتمعن يؤكد بطلانه، فرسل معاوية يستحيل عليهم أن يعرفوا عن أمر المال إلا ما تم التصرف فيه أمامهم، ثم إن تصرف الحسين في ما جاءه أخذ وقتاً، فهل قعد الرسل حتى تم كل شيء حياله؟ وما يُدري رسل معاوية عما فعله عبدالله بن عمر بعد أن أعطى فقراء عدي بن كعب، وهل نادى هؤلاء، وأبقى الرسول عنده حتى أعطاهم حاجتهم؟ وعبدالله بن الزبير عندما انصرف إلى أهله واستعرض الهدية هل كان رسول معاوية معه؟ وبأي حجة. ثم ما معنى قول ابن الزبير: «ارفعوا، لعلّي أن أعود على ابن هند يوما

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٤٧

ما؟» ثم ما هذا التفصيل في فعل عبدالله بن صفوان. إن انطباق قول معاوية على فعل كل واحد من هؤلاء الأفاضل بهذه الدقة، دون أن يخرم واحد منهم ما ظنه معاوية فيه، يؤكد وضع القصة من قبل إنسان عرف ما يقال عن كل واحد من هؤلاء، فقسَّم الأدوار في هذه المسرحية بذكاء، كان هذا نفسه سبباً في فضحه. وإن كان أراد مجداً لمعاوية عن طريق الفراسة فقد أخطأ هدفه.

إن الأفكار إذا تجمعت في ذهن الأديب بحثت لها عن مخرج، ولأن صاحبها أديب فهو يبتغي لها مخرجاً غير المعتاد، وإلا كيف يلفت النظر، ويشيع رأيه، وينشره بين الناس! إن أحد مظاهر النجاح عند هذا الكاتب أن القصة بقيت حية إلى يومنا هذا.

ومعاوية وعلي والزبير وطلحة وأبناؤهم عرضة لنحل القصص لهم وعليهم، وهي كلها تتركز حول مراكزهم في عائلاتهم، وفي موقعهم

السياسي، وقد تحزّب الناس لهم وعليهم، فأوجد هذا مجالاً واسعاً للوضع، وبث الأحاديث الكاذبة، شيءٌ منها هجوم، وشيء رد للهجوم، وشيء مدحٌ، وشيء إيجاد مدح يعدل نصيب الجانب الآخر:

ومن القصص التي تهتز عند البحث والاستقصاء، القصة الآتية:

«رأت امرأةٌ الزُّبيرَ فقالت: من هذا الذي هو أرقم يتلمّظ؟

ورأت عليا، فقالت: من هذا الذي كسر ثم جبر؟

ورأت طلحة، فقالت: من هذا الذي كأنه دينار هرقليّ؟». (1)

وهذه مسرحية أخرى ألفها أحدهم، وبناها على صور كان قد وضعها في ذهنه، صفات لهؤلاء الأشخاص، ورأى أن سردها لن يقبل، فجاء بها على هذه الصورة، وإلا فهل كانت المرأة قاعدة في

(1) عيون الأخبار: ٤/ ٢٦

السوق تبدي ملاحظاتها على من يمر بها؟! وهل كان يجلس بجانبها من يسجل ملاحظاتها؟

إن النحل واضح، وإن هذا النص يشبه سابقه في هدفه، وفي الوسيلة التي اختيرت له.

ويتضح النحل والوضع والتلفيق في القصة الآتية وقد ردها صاحب البصائر، وأعطى أسبابه في اعتقاده في أنها موضوعة:

«قال ابن أبي طاهر:

خلا المنصور بأبي أيوب المورياني وسلمة بن مجاهد وعبدالملك بن حميد كاتبه، فقال:

بمن تشبهونني من الخلفاء؟

فقال ابن حميد: أما أنا فأشبّهك بعبدالملك بن مروان.

فقال: ذاك شنأة الخلفاء، وما أشبهه.

قال: بالوليد.

قال: ذاك لاعب.

قال: بعمر بن عبدالعزيز.

قال: ذاك شديد الانقطاع.

قالوا: فيزيد.

قال: ذاك ماجن.

قالوا: فهشام.

قال: بَخ بَخ، وما أشبهه.

فقالوا: فلاً ندري بمن تشبّه؟

قال: أشبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه

سمع هذه الحكاية أبو الفضل بن العميد فقال؛ ما كان أحوج أبا جعفر عند هذا القول إلى من يسلح بين يديه من أن يشبه عمر بن الخطاب. ثم قال:

صدق رسول الله ﷺ: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت.

وأبو جعفر أكبر من ذاك، ولعل الحكاية موضوعة عليه، فآفة الأخبار كثيرة، والظنة إلى أهلها سريعة، وتخليص السقيم من الصحيح صعب؛ وقد دُهِي الناس في جميع مذاهبهم، وأُتُوا

منها.. ومجال العقل فيها ضيق وسلطانه عليها واهٍ، ولسانه فيها كليل، وإنما الأمر في الأخبار موقوف على السابق في النفس، وعلى حسن الظن بالرواية، وعلى مخرج الكلام في التأويل.

والكلام كلّه مصرّف ومتعسف، ومتى تدبرت هذا الباب في صروف الدهر، وحوادث الليالي، وجدتَه كما حكيتُه ورويتُه. نسأل الله عز وجل رب الأولين والآخرين، ستر العورة، وإقالة العثرة، ومجانبة الهوى والمعصية، فإنه خير مسؤول، وأكرم مأمول».[1]

المنصور في غِنًى عن هذه المقارنة التي هيىء لها هذا المسرح، ووزعت الأدوار على شخصياتها، وأخذ القارئ ينتقل مع حوادث هذه المسرحية، التي لا تمثل حقيقتها إلا رأي منشئها؛ فهذه نظرته إلى هؤلاء الخلفاء، والصفات التي يعتقد أنهم كانوا يتصفون بها، وقد أحسن صاحب البصائر

(١) البصائر: ٢/ ١٧.

شرح رأيه، وأبان ما يعتقده فيها.

وابن العميد أرسل الكلمات الخشنة الجافة على أبي جعفر مع براءته - في رأينا - عما ألصق به. ولعل غضب ابن العميد على هذه الصورة، لم يهده إلى التأمل في هذا النحل.

وصاحب البصائر من القلائل الذين يقفون أمام بعض النصوص المهتزة فيبدون ملاحظتهم على ترنّحها وميلها، وبعدها عن الاستقامة، وله ملاحظة جيدة، ووافية على نص أورده عن قول روي عن ابن عباس، عند الفحص والتمعن لا يقف على قدميه:

«قال المدائني: قال ابن عباس في صفّين:

ليغلبنّ معاوية، لأن الله تعالى قال، وهو أصدق القائلين:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ .(١)

وما أدري صحت [وفي نسخة: سقطت] هذه

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

الرواية. إن ابن عباس لو كان معه هذا البرهان لكان مع من جعل الله له سلطاناً، وفارق من جعل الله عليه سلطاناً، ولكن الرواية خبر، والخبر ينقسم بين التصديق والتكذيب، بالتوقف عنه، وسوء الظن به؛ ولقد عمت آفته الخلق، وإلى الله عز وجل الشكوى». [1]

ولاشك أن هذا القول أريد به تعضيد معاوية - رضي الله عنه - في موقفه من المطالبة بدم عثمان، ولم يتنبَّه واضع هذا القول إلى مدخل الاعتراض على هذا القول.

ولصاحب البصائر ملاحظة أخرى، وهي ملاحظة قوية، ولقد أحسن في إثارتها، لأن هذا الخبر المنتقد مبثوث في كتب الأدب، وقد يأتي منه ضرر لم يكن متوقعاً:

«قال أنس بن مالك: إن عمر - رضي الله عنه - قرأ:

(١) البصائر: ٢/ ١٩٥.

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .[1]

فقال: هذه الفاكهة قد علمنا، فما الأبّ؟

ثم وضع يديه على رأسه وقال:

إن هذا لهو التكليف، وما عليك يا ابن أم عمر ألّا تعرف ما الأب؟!»

هذا طريف، إن عمر فوق ما ظن به الراوي، عمر - رضي الله عنه - يوزن به بشر كثير لسعة علمه، وحلمه وفضله، واللغة لسانه، وليس عليه نَصَب في معرفتها ولا مشقة. والأبّ: يقال للبهائم، بمنزلة الفاكهة للناس. ويقال هو المرعَى».[2]

ومن المؤكد أن صاحب البصائر لا يتهم أنس بن مالك، ولكنه يتهم من وضع هذا القول على لسانه.

وهناك قصة طريفة، تتناقلها الكتب عن

---

(١) سورة عبس، الآية: ٣١.

(٢) البصائر: ٣/ ١٣٧.

التضحية في أجلى صورها، وهي صورة مضيئة للتضحية، لأنه أختير للقصة أشخاص خيرون، ولكنها لم تثبت أمام الفحص، والقصة كالآتي:

«كان الحارث بن هشام المخزومي في وقعة اليرموك، وبها أصيب، فأثخنته الجراح، فاستسقى ماء، فأُتي به، فلما تناوله نظر إلى عكرمة بن أبي جهل صريعاً إلى مثل حاله؛ فرد الإناء على الساقي وقال:

أمض به إلى عكرمة ليشرب أولاً، فإنه أشرف مني. فمضى به إليه، فأبى أن يشرب قبله، فرجع إلى الحارث فوجده ميتاً، فرجع إلى عكرمة، فوجده ميتا»[1].

وعند التقصي والتحقيق، كما لاحظ صاحب كتاب «ربيع الأبرار»، تبطل هذه الرواية، لأن الحارث وعكرمة لم يموتا في وقعة اليرموك، التي وقعت في السنة الخامسة عشرة، بينما عكرمة قتل

---

(١) البصائر: ٦/ ١٩٩، ربيع الأبرار: ١/ ٢٤١.

يوم أجنادين في السنة الثالثة عشرة، والحارث مات بالطاعون في السنة الثامنة عشرة.

ومن القصص التي لا تقبل، لأنها لا تدخل ضمن إطار التاريخ الثابت، فمعاوية له مقامه، ولمجلسه احترامه، ورجاله لهم وزنهم، خاصة زياد بن أبيه، وهو من اعتمد عليه معاوية في حكم العراق، الذي لم يكن من السهل حكمه. وقد ثبت تودد معاوية لزياد إلى الحد الذي جعله يلحقه بنسبه، متعرضاً كما قيل لنقد من الذين رأوا أنه خالف قاعدة شرعية، وهي «الولد للفراش وللعاهر الحجر». ومعاوية في حاجة إلى زياد، وزياد في حاجة إليه، ولا يتصور أن يقع بينهما ما قيل إنه وقع في القصة الآتية:

«قدم زياد على معاوية بهدايا فيها سفط جوهر، فأعجب به معاوية، فقال زياد:

دوّخت لك العراق، جبيت لك برها، ووجهت إليك بحرها، فقال يزيد:

إن تفعل ذلك يا زياد فإنا نقلناك من ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن عُبيد إلى حرب ابن أمية.

فقال معاوية: حسبك فداك أبوك». [1]

إن يزيد أعقل من أن يأخذ الكلمة بحضور والده، ومعاوية ليس عاجزاً عن الرد، وزياد كان لابد أن يكون له كلمة بعد ذلك، إما مواجهة قاسية، أو اعتذاراً وافياً، ولكن الأمر بكامله لم يحدث إلا في ذهن الراوي، ولعل القصد رفع درجة يزيد، في وقت كان والده يهيؤه للحكم، أو بعد ذلك.

ويتسلط الرواة على معاوية فيظهرونه بمظهر الذي يبدأ أمراً بقوة، ثم يتخاذل، ويهاجم شخصاً ثم سرعان ما يُفْحم، وتقارب هذا الأسلوب في قصص متعددة توحي بأن الناحل واحد، أو أنها فئة بعينها؛ وأبرز القصص هي ما يُروى عنه وعن

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٠٤.

عمرو بن العاص بهذا الأسلوب، إلا أن القصة الآتية كانت بينه وبين أناس آخرين، ويلاحظ أن معاوية فيها استفزّ أهل المدينة، فجاء ردهم على لسان الغمر بن عجلان قاسياً مسكتاً، وكذلك تهجمه على زيد بن ثابت؛ وما قيل إنه حدث بعيد عن سياسة معاوية للناس، وبعيد عن خلقه، وعما عرف عنه من ملاينة للناس واجتذاب لهم، والتغاضي عن زلاتهم، ومحاولة كسبهم بالحلم والإكرام:

«حج معاوية، فتلقته قريش بوادي القرى، والأنصار بأبواب المدينة، فقال:

يا معشر الأنصار، ما منعكم أن تَلْقَوني حيث تلقتني قريش؟

قالوا: لم يكن لنا دواب.

قال: فأين النواضح؟

قال الغمر بن عجلان: أنضيناها يوم بدر في طلب أبي سفيان وأصحابه، فسكت.

فلما دخل المدينة قال:

أين زيد بن ثابت؟

قالوا: عليل، أصابه سلس البول.

فقال: عليّ به.

فقال: ما منعك مِنْ تلقّي؟

قال: علّتي.

قال: ليس كذا، ولكن غرك ما قيل في زيد بن ثابت كاتب الوحي.

قال: بلى، حيث لم يأمنك الله ورسوله، فأفحم» [(١)].

لو كان معاوية سأل الأنصار ما سألهم لأجابوا بجواب يفيدهم، وفيه عتب على معاوية، كان بإمكانهم أن يقولوا تلقتك قريش لقوتها، وتأخّرنا لضعفنا، ولو كانت عطاياك لنا مثل عطاياك لهم لتلقيناك بما عندنا من وسائل.

أما زيد بن ثابت فلو كان سأل عنه معاوية، وأعلم بمرضه وعذره، لسارع إلى زيارته، أو

---

(١) ربيع الأبرار: ٦/ ٦٩٠.

إرسال من يعوده باسمه، فلزيد مقامه، وله معه زمالة في كتابة الوحي، وزمالة من هذا الجانب لها قوتها.

ولهذا فهذه القصة أيضاً حُمِل بها في ذهن راويها، وولدت عن طريق فكره، وقلمه.

والقصة التالية من نصيب معاوية أيضاً، ومعاوية - كما قلنا - حقل واسع للوضع والنحل. وهذه المرة مع رئيس قبيلة أو عشيرة، وترسم معاوية بغير الصورة الحقيقية المعروفة عنه، وإنما بصورة إختارها مؤلف القصة، معتمداً على فكرة طريفة لمعت في ذهنه، فأغرته، فانساق وراءها، واقتنصها، وجاء بها إلينا فرحاً طرباً، ليبيعنا إياها، ولكنّها من نوع لا نرتضيه:

«دخل شريك بن الأعور على معاوية، وكان دميماً، فقال له: إنك لدميم، والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك، وما لله من شريك، وإن أباك الأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف

سدت قومك؟

فقال: وإنك لمعاوية، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب؛ وإنك لابن حرب، والسلم خير من الحرب؛ وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر؛ وإنك لابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت؛ فكيف صرت أمير المؤمنين؟

وخرج وهو يقول:

أيشتمني معاوية ابن حرب
وسيفي صارم ومعي لساني
وحولي من ذوي يمن ليوث
ضراغمة تهش إلى الطعانِ
يعير بالدمامة من سفاهٍ
وربات الخدور من الغواني
ذوات الحسن والريبال جهم
شتيمٌ وجهه ماضي الجنان[1]

لو كانت هذه القصة «نكتة» من «نكت» زماننا

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٩٩.

لرد أي سامع لها بأنها «بائخة».

ما هدف معاوية من تبكيت رئيس قبيلة جاء ومعه وفد لمعاوية، معاوية الذي يحرص على تأليف القلوب إليه، واجتذابها، ويصبر على القذاة تقع في عينه فيتحملها، هل يعقل أن يبدأ الشرّ في مقام هو أقرب إلى فعل الخير، وهل يعقل أن يبدأ الحرب، وهو في أشد الحاجة إلى السلم. إن معاوية أبعد من أن يخطر بباله أمر مثل هذا، وما نتصوره يقع منه، إكرام هذا الضيف بحسن الاستقبال، وبالعطاء الجزل، وكسبه لجانب الدولة، واتقاء شره إن كان فيه شر.

ثم هناك تساؤل: هل هيأ معاوية هذا القول، وأداره في ذهنه، رغم الافتعال البادي فيه؟ فإن كان هذا هو الواقع فهذا الرد القوي هل جاء بديهة في تلك اللحظة، فكان من وحي ما قال معاوية؟

الحقيقة في نظري أن شيئاً من هذا لم يحدث ولكن هذا الحوار ولد في ذهن أديب ألبسه هذا الثوب

ليقبل لدى من لا يقف عند النصوص فيمحصها، ويعرضها على بوتقة العقل. وقد أوحى إلى صاحب القصة بتأليفها ما في الإسمين من مجال لقول مثل هذا القول.

والراوي المؤلف رمى بفكرته في الميدان، ولم يخبرنا عما ردّ به معاوية، أو اتخذه، وعلى ماذا انتهى إليه أمر هذا الرئيس الغاضب. ما هو إلاّ أن وضع القاص ما لمع في ذهنه من فكرة أوحت بها الأسماء حتى استراح، وترك الأمر لنا لنتساءل، وها نحن تساءلنا؟

ولعل الهدف - كما هي العادة - وضع معاوية في صورة العاجز لإقفال باب إحراج فتحه، ليقول القارئ أو السامع: كم من كلمة قالت لصاحبها دعني.

والإصطدام بين قبيلتين أو حزبين، أمر يجد فيه القاص مجالاً للنحل، لأنهم يجدون فيما روي من المفاخرات مادة ثرة، يستقون منها قصصهم،

مثلما حدث في القصة الآتية:

تفاخر أموي وأنصاري، فقال الأموي:

توفي رسول الله ﷺ وأكثر عماله بنو أمية: بمكة عتاب بن أسيد، وعلى البحرين إبان بن سعيد بن العاص، وعلى اليمن خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران أبو سفيان.

فقال الأنصاري: صدقت، ولكنهم حالفوا أهل الردة على الإسلام.

فكأنما ألقمه حجراً.[1]

من المؤكد أن القصة اخترعت من أجل لمز الأمويين، وترجيح كفة الأنصار، الذين يبدو أنه لم يكن لهم نصيب في الأمارة، فجاء هذا تعزية لهم، وتقليلاً من شأن الأمويين، وإطفاء للشموع التي قد تضيء سيرتهم، نتيجة اختيارهم عمالاً للرسول ﷺ، أو لخلفائه.

وقبيلة نمير مثل قبيلة باهلة لقيتا من الوضع

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٠٨.

والنحل ما جعل ما قيل عنهما في أشد الحاجة إلى النخل والتمحيص، وقد لاحظ الجاحظ ما ترمى به نمير، وفي قصة من القصص التي تروى عنهم علق برأيه، وقال إنه يرى أنها موضوعة:

يقول الجاحظ: «ما علمت في العرب قبيلة لقيت من جميع ما هجيت به، ما لقيت نمير من بيت جرير، ويزعمون أن امرأة[1] مرت بمجلس من مجالس بني نمير، فتأملها ناس منهم[2]، فقالت:

يا بني نمير، لا قول الله سمعتم، ولا قول الشاعر أطعتم! قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[3].

وقال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

(١) سماها الثعالبي: عمرة بنت بني زهرة: لطائف اللطف: ٩٨.
(٢) «فقال رجل منهم هي رسحاء» والرسحاء هي التي قلّ لحم فخذيها وعجزها: ربيع الأبرار: ١/ ٧٠٧.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٠.

وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولداً، ولقد أحسن من ولّده». [1]

لقد أعجب الأسلوب، وحبك القصة الجاحظ، رغم أنه حكم عليه بالنحل والاختلاق، ولولا طرافتها، وحسن سبكها، لما صار عليها هذا الإقبال من اقتباس الكتاب فيما يكتبون، فلا يكاد يأتي ذكر لبني نمير في باب من الأبواب حتى تذكر هذه القصة لطرافتها، ولقد آذت نميراً، لانتشارها، وقبول الناس لها، دون تمحيص، لأن تمحيصها يحرمهم اللذة التي تعطيهم إياها في صورتها القائمة.

ونترك القبائل جانباً، وندخل في نطاق أضيق، يحصرنا في شخصين أو ثلاثة تأتي القصة عنهما بين خليفة وعامله، ومنها ما هو بين خليفة وأبنائه، أو رجل وابنه، أو رجل وحده:

الحجاج ممن وضع هدفاً لنحل القصص عليه،

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٤٦.

لكثرة أعدائه، بسبب حزمه مع أهل العراق، وتطويعهم لبني أمية، والأخذ بيد من فولاذ على الخارجين على الدولة، واضعاً أمامه مصلحتها، متغاضياً عن كل شيء، بجانب تثبيت دعائمها، حتى الدين في نظره لا يُطمأن على سلامته إلا إذا حمته الدولة، فالدولة القوية، ثابتة الأسس، تستطيع أن تحمي الناس ودينهم، ولهذا لم يكن هذا الأمر واضحاً لكل الناس فهوجم، ووضعت القصص التي شوهت صفحته، ولو اكتفى الكتاب بالحقائق، لجاءتنا الصورة كاملة نقية، تمكننا من الحكم عليه، حكماً صحيحا، إما له وإما عليه، أما الأقوال عنه فمتضاربة، والآراء متباينة، وسيبقى الأمر كذلك حتى يبين الواقع في الموضوع.

والقصة الآتية تأتي ضمن ما لا يقف على قدمين أمام البحث والتدقيق في ضوء ما يعرف عن رجال حكموا في مثل هذه المناصب:

كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان كتاباً يقول فيه:

أما بعد، فإنه ينزغ بي شيطان في المنام يقول لي:

«أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا عبدالملك؛ قتلت الرجال، وأخذت له الأموال، وفعلت وفعلت». وأعلمته أنه من نزغِهِ فيّ على باطل، وأني من ديني على يقين. وأحببت ألا يخفى على أمير المؤمنين شيء من سرِّي، كما لا يخفى عليه شيء من علانيتي.

فلما ورد كتابه على عبدالملك كتب جوابه بيده:

أما بعد:

فإن الله عز وجل وله الحمد، قد وكل بي ملكاً يقول لي في النوم واليقظة:

«أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا الحجاج، فسلطته بسلطان الله عز وجل لك، على الأموال، فأخذها من غير حلها، وعلى النفوس فقتلها بغير حقها»؛ فإذا قرأت هذه الأحرف فصر إلىّ والسلام.

فلما ورد كتاب عبدالملك على الحجاج قال لمحمد بن يونس كاتبه:

«إن عاقبة التكلف مذمومة؛ إبرِ لي قلمين لم يكتب بأغلظ من أحدهما، ولا بأدق من الآخر».

ففعل محمد، فأخذ ذلك القلم الغليظَ، وكتب به:

«بسم الله الرحمن الرحيم

لأمير المؤمنين عبدالملك بن مروان.

وكتب بالدقيق: من الحجاج بن يوسف. أما بعد:

فإن كان قتلي الرجال طاعة لله تعالى، ولك سرفاً، وأخذي الأموال طاعة لله، ولك تبذيراً، فمرني بأمر آتيه إليه، إن شاء الله تعالى».

فلما ورد الكتاب على عبدالملك قال:

من يلومني على الحجاج؟! أكتبوا إليه، وأقروه على عمله»[1].

---

(١) البصـــائر: ٤/ ١٤٤.

إن الكاتب في وضعه هذه القصة، وصياغته هذا التكاتب، ما زاد عن أن رسم رأيه في الحجاج وعبدالملك، وما يعتقده، من صلة بينهما؛ والمتمعن لا يقبل أن يصدِّق أن الحجاج دون أي باعث أو سبب، يكتب مثل هذا الكتاب، والضعف في هذه القصة جاء من هذا الجانب، أما ما جاء بعد ذلك فمتقن إلى الحد الذي جعل القصة تقبل على أنها حقيقة طوال هذه القرون.

ويبدو أن للنحل جاذبية في مجالات معينة، ولعل من هذه المجالات فيما يتصل بعبدالملك والحجاج، إرسال الكتب والرسائل، لبعد أحدهما عن الآخر، إذ لا مجال واسعاً لقول: «وجه عبدالملك القول للحجاج» أو «خاطبه» ووجود الحجاج في مجلس عبدالملك كان لفترات محدودة ومعينة، وهذا يرينا أهمية المراسلة بينهما.

ويبدو أنها إذا أقفرت صحراء النحل في ذهن الأديب، ولم يجد ما يبني عليه نحله، منطلقاً من

حقائق رائجة في المجتمع، لجأ إلى حيل أخرى، وفي إحدى القصص نجده لجأ إلى الألغاز، دون سبب وجيه، يمكن أن يقبل، خاصة عندما نتذكر أن عبدالملك لم يكن عنده من الوقت ما يضيعه في الألغاز، والملوك في رسائلهم يعمدون إلى الدقة والوضوح، إلا فيما يحتاج إلى الإبهام والغموض، مراعاة للسرّ الذي يَحرص الخلفاء على تحصين قلاعه من أن تخترق، والقصة التي سوف نسوقها لا يبدو أنها تدخل في هذا النطاق:

«كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج:

«أما بعد، إنك سالم والسلام».

فلم يدر، فنُبِّهَ على أنه أراد قول عبدالله بن عمر في ابنه سالم:

يديرونني عن سالم وأديرهم

وجلدة بين العين والأنف سالم[1]

وهي قصة ساذجة، تري ضحالة الجهد في

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٥٩.

النحل، والذي وضعها كان في ذهنه البيت، فركب عليه خطاب عبدالملك. وهناك روايات عديدة عن «جلدة ما بين عيني»، وأقرب مرجع في هذا ما ذكره الزمخشري في «ربيع الأبرار»:

كان الوليد بن عبدالملك يقول:

«كان أبي يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني،
وأما أنا فأقول: الحجاج جلدة وجهي كله».[1]

ومع هذا يروى خلاف ذلك، ولا غرابة في ذلك، فتكاد تكون الأخبار عن الحجاج متناقضة، ويخالف بعضها بعضاً، ومما ينقض القول السابق القول الآتي:

«لما استعمل الوليد يزيد بن أبي مسلم بعد الحجاج، قال:
أنا كمن سقط عنه درهم، فأصاب ديناراً».[2]

وقد أعاد الجاحظ الرواية مرة أخرى، مع

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٩٧.
(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٢٠٣.

أختلاف طفيف في الصيغة.[1]

ويأتي النحل على الحجاج خاصاً به وحده، لترسم له صورة جشع، تأباها طبيعة الأمور، ويدور الخبر عن الكمية التي يأكلها الحجاج، مما يظهره صاحب معدة جمل، وهذه الرواية تذكرنا بقصة الخادم الذي أكل ثلاثة أرطال من اللحم، وادعى أمام سيده أن القط البريء أكلها، فلما وزن القط وجد أن وزنه ثلاثة أرطال، فقال للخادم: إذا كانت هذه هي اللحمة، فأين القط:

«عن سالم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً، مع كل رغيف سمكة».[2]

هذه الكمية من الخبز، وهذا العدد من السمك، لو وضعت بجانب الحجاج لجاءت أكبر من حجمه، فما حجم معدته مقارنة بجسمه؟!

وقد سجلت هذه الملاحظة التي قالها سالم، أو

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٩٢.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٧٣٨.

ألصقت به، وقبلتها الأجيال، رغم وضوح الكذب فيها، لأن أي شيء يقال عن الحجاج، يزري به، مقبول، ولا يناقش، وقد يعتبره بعضهم براً يجلب الأجر والثواب!

أما جاذبية المغالاة في وصف بعض الأكولين فهي أمر مبثوث في الكتب، بصيغ تدعو إلى الدهشة، ويعجب المرء كيف يقبل الناس مثل هذه الإهانات لعقولهم، والصفعات لكرامتهم!

وقد طال القول في هذا المجال، لهذا سوف نختمه بطرفة من الطرف، وفيها ما يري رجلاً يحث ابنه على نوع من النحل والتكليف:

«قال أبو عبيدة:

قال لي أبي: إذا كتبت كتاباً فالحن فيه، فإن الصواب حرفة، والخطأ أنجح»[1].

وللناس فيما يعشقون مذاهب.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٦٦.

أشكُروا تُزادُوا[1]

الشكر ثمرة ناضجة، على شجرة باسقة، نبتت في أرض خصبة، وغُـذِّيـت بمـاء نمير، يُسـدَى المعـروف لإنسـان، فيعترف بـالفضـل، ويبـدي الشكر قولاً، وقد يرد المعروف بمثله أو أحسن، لأن نفسه خيّرة، ومعدنه ثمين، وعنصره فاخر.

والشكر مظهر ينبئ عن مخبر، والمظهر نبيل، والمخبر شريف، وعمق الإعتراف بالفضل راسٍ راسخٌ، لا يتزلزل مع مرور الزمن، بل إن الزمن يزيده تمكنا في أرضه، وتشبثاً بجذوره في أعماقها، ولا يتغير بتغير الأحوال، ولا بِتَبَـدُّل الظـروف، لونه يبقى على بهائه ورونقه، وصفائه ونقائه.

وما قيل في الشكر وعنه كثير في تراثنا، لأنه أمر حضاري ينم عن عمق تغلغل المدنية فينا، وعلى

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٩٠) في ٢٣/١/١٤١٥هـ الموافق: ٢/٧/١٩٩٤م

بعدٍ عن البدائية وجلافتها ونُبُوّها عن الرقة وحسن الإلتفات. والقول فيه في تراثنا متنوع متشعب، قيل عنه من كل جانب قول، وصيغ في كل زاوية منه حكمة، ولم يترك قول يمكن أن يخطر على البال إلا قيل فيه.

والأقوال التي قيلت كلها مضيئة ورصينة، تؤكد رفع شأن الشكر عند أجدادنا، وتدل على ما كان يُسدى وما كان يُشكر، وتري مدى ما كان يتمتع به المجتمع من اسداء المعروف، وتلقيه بالشكر، وما مدّ فيه من يد صافحها امتنان، وإقرار بالفضل.

والدِّين على رأس من وقف على منبر هذه الفضيلة يحث عليها، ويبين فضلها، ويبرز دورها في سعادة المجتمع، وحاجته إليها، وما تضفي على جوانبه من إشعاع وجمال. والقرآن الكريم يقدم الأقوال في هذا ويمشي هادياً مبشراً، بفصاحته وإعجازه، وبهائه والأحاديث عن الرسول ﷺ تأتي

معضدة، ومؤكدة ومفسرة.

والشكر، وهو سمة حضارية، لا يقتصر على أمة دون أمة، ولكنه بضاعة مطلوبة، كل أمة راقية يهمها أن تكون متوفرة في أسواقها، متاحة للطالبين فيها، ولهذا فالأدب العربي مليء بالأقوال الواصفة المبتكرة، والأقوال المقتبسة من حضارات مجاورة، قائمة أو بائدة؛ فحضارات اليمن القديم، وحضارة الهند والصين، وحضارة الفرس والرومان واليونان، وما قد يكون تخلَّف من حضارة الفراعنة، وبقي من أديان قائمة، أو زالت، كلها صبت في الوعاء الواسع للغة العربية، فاتسع لها، وحافظ عليها، وصاغها أحسن صياغة.

وأهمية الشكر للمجتمع والفرد في الإسلام تظهر من عدد المرات التي وردت فيها الآيات التي فيها ذكر الشكر صراحة ومباشرة في القرآن الكريم، هذا غير ما ورد مُلمِحاً إلى الشكر أو رامياً إليه،

دون ذكره بالاسم؛ وأي متتبع للآيات التي فيها كلمة شكر أو مشتقاتها يجد أنها لا تقل عن خمس وسبعين مرة. وأول هذه الآيات في موضوعها الحث على شكر الله سبحانه وتعالى على أنْ هَدَى الناس إلى الإسلام، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعل لهم اللّيل والنهار خِلفة، وأراهم آياته، ونبَّهَهُم إلى أنه هو الذي يرزق، وأن عليهم أن يطلبوا الرزق، لا عند الأوثان التي كانوا يرجون منها الرزق، ولكن عند الله سبحانه فهو الذي ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض من بعد موتها، وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، وهو الذي خلق السموات والأرض بإقرار الناس له بذلك، وتسليمهم له، وهو الذي يسير الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وهو الذي أنشأ لهم السمع والبصر والأفئدة، وهو الذي ذلل لهم الأنعام، وجعل لهم فيها منافع ومشارب، وكثير من النعم التي لا تحصى،

والمنن التي لا تعد، وطلب جلّ وعلا أن يشكر عليها.

ونبه جل وعلا إلى ما من به على أمم قبلنا، منهم من شكر النعمة ومنهم من كفرها، كل هذا ليتعظ المسلمون، وليعلموا قدرته جل وعلا، وفضله. وقد بيّن فضله على بني إسرائيل وهو الذي فضّلهم على العالمين، ومع هذا فقد اتخذوا العجل، وظلموا، فمنَّ عليهم، وعفا عنهم، وهو الذي بعثهم بعد موتهم بعد أن أخذتهم الصاعقة، وهو الذي جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وهو الذي اصطفى موسى برسالته وبكلامه وأعطاه ما آتاه، وهو الذي أرسله بآياته، ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، وليذكِّرهم بأيام الله، وهو الذي نجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وفي هذا كله بلاء من ربهم عظيم.

وهو الذي أفضل على إبراهيم عليه السلام بأن جعل أفئدة الناس تهوي إلى ذريته بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم، ورزقهم من الثمرات، وهو الذي هدى إبراهيم إلى الحنفية، فكسر الأصنام، فأنقذه من النار التي أضرموها ليحرقوه.

وهو الذي آتى لقمان الحكمة، وهو الذي سخر لآل داوود، وسليمان من يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، وهو الذي سخر الرياح لسليمان، وهو الذي جعل عفاريت الجن، ومن عنده علم الكتاب، في طاعته وتحت أمره ونهيه، وهو الذي هدى نوحا لصنع السفينة، ونجاه من الغرق، وهو الذي علم داوود صنعة لبوس لهم.

كل هذه الأمور تستوجب الحمد لله والشكر على هذه النعم الفضلى، التي تجعل حياتهم سعيدة، ولا يريد منهم عليها إلا الشكر بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، ووعد أنهم إذا فعلوا ليزيدنهم

على نعمه نعما، ويوالي عليهم فضله، ومن أصدق من الله قيلا، ومن أوفى بوعده وعهده من الله!

وآيات الشكر في القرآن الكريم رياض من رياض المتعة والبهجة واللذة، من دخل في معانيها، وتغلغل في مراميها، لا تطاوعه نفسه أن يتركها، وكل آية تسلمك إلى الأخرى، وكل آية فيها من الضياء والنور ما يبهر العين، ويسر القلب، ويشفي لوعة الصدر، ويسقي من غلة الظمأ.

وفي السُّنَّةَ من الأقوال ووصف أفعال الرسول ﷺ فيما يخص الشكر شيء كثير يكاد لا يحصى، وفيه تأكيد لما جاء في القرآن الكريم، أو شرح له وتفصيل.

وأول سورة من سور القرآن، وهي سورة الفاتحة، تبدأ بحمد الله وشكره، وهو الرحمن الرحيم لخلقه، ومالك يوم الدين، المعبود بحق، والمستعان دون سواه، ومنه طلب الهدايه إلى

الصراط المستقيم، صراط من أنعم عليهم لا الضالين الغاوين.

وبدء سور القرآن الكريم بحمد الله، واستفتاح السورة بالحمد والشكر، يؤكد أهمية الشكر والحمد، ويحدد منزلته، ومكانه عند الله، والمتدبر المتبصر في الشكر يجد أن هذا المقام الذي احتله الحمد احتله بحق، لأنه يمثل وجهاً حضارياً بارزاً، فمن لم يشكر النعمة فقد كفرها، والمقارنة بين الشكر والكفر تبين علو هذا إلى السماء، وتدني هذا إلى الحضيض.

ولهذ كُرِّر الحث على الشكر في آيات القرآن بصور مختلفة، وحالات متعددة، وأُعْطِي السبب مع كل واحدة منها، إما سابقاً لها أو لاحقاً، فجاءت التعابير حسب الأحوال، فمرة تأتي: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[1]، أو ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ،(١) أو ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ
يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ ،(٢) أو ﴿ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن
شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ ،(٣) أو ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ،(٤) أو
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ ،(٥)
أو ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ،(٦) أو
﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ ،(٧) أو ﴿ وَسَيَجْزِى
ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ،(٨) أو ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ،(٩)
أو ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ،(١٠) أو ﴿ وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ،(١١) أو ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٧ .
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٢ .
(٥) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥٨ .
(٧) سورة النساء، الآية: ١٤٧ .
(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤ .
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥ .
(١٠) سورة الأنعام، الآية: ٥٣ .
(١١) سورة سبأ، الآية: ١٣ .

﴿شَكُورٌ﴾،[1] أو ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾،[2] أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾،[3] أو ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.[4]

هذه بعض آيات تحمل معانيها واضحة فيما تحث عليه، أو ما تصفه وترمي إليه، وكل واحدة يمكن أن يكتب عنها وعن فضلها صفحات وصفحات.

وتكررت الآيات التي فيها شرط ووعد، والله لا يخلف وعده، فمن هذه الآيات السابقة، وآيات أخرى، تستحق أن يوقف عندها، وتتدبر، إلا أننا نكتفي بهذا، وننتقل إلى زاوية أخرى من زوايا الشكر في القرآن المجيد.

وقد عَدَدْت الآيات التي وردت فيها كلمتا «لَعَلَّكُم تَشكُرون» فوجدتها لا تقل عن أربعة عشر مرة، وفي كل آية وردت فيها، فيها تعداد لنعم الله

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٧.

على خلقه، أو فئة من خلقه، وهي تذكار لهم بما تفضّل به عليهم، ومطالبة لهم بشكر هذه النعم.

وهناك ست آيات فيها هاتان الكلمتان «لَا يَشْكُرونَ» وهي تشير إلى أن أكثر الناس كذلك، ومن لا يشكر نعمة الله وفضله فقد كفرهما، وهذا له عند الله جزاؤه على كفره النعمة في الدنيا والآخرة، مثلما أن الشاكر مثاب في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالمزيد من الفضل، وفي الآخرة بالنعيم والجنة.

ووردت كلمة الشكر بصيغة الأمر «اشْكُرُوا» خمس مرات وهي تذكير بوجوب الإقرار بالفضل، ومقابلة المنّ والعطاء والرحمة بما يدل على الخضوع والاستسلام.

ووردت بصيغة: »شَكَر»، و «شَكَرتُم»، و «أَشْكُر»، و «تَشْكُرُوا»، و «يَشْكُر»، و «أَشْكُر»، و «يَشْكُرُون»، و «اشْكُروا»، و «شُكُوراً»، و «شَاكِرٌ»، و «شَاكِرُون»، وكلمة «الشَّاكِرينَ»

وردت تسع مرات على الأقل، و «شُكُور» وردت تسع مرات، و «شُكُوراً»، و «مَشْكُوراً».

ولم أطل هذه الإطالة في تعداد الشكر وصيغه مثلما وردت في القرآن الكريم إلا لأُري منزلة الشكر عند الله سبحانه وتعالى، والاهتمام يُري مدى هدي القرآن للمسلم إلى ما يرفعه إلى أعلى منزلة في مجتمعه، ويرفع مجتمعه إلى أعلى منزلة بين المجتمعات في العالم في القرون المتعاقبة.

وكان العزم أن يأتي مع هذه لمحة عن الشكر عند أجدادنا في التراث الذي تركوه لنا في كتب الأدب والتاريخ، وكتب الشعر ودواوينه، إلا أن الروض المزهر الذي دخلناه في كتاب الله العزيز الحكيم استوعب الحيّز المخصص للمقالة في عكاظ، مما يوجب أن يؤجل ما عزمنا عليه إلى صفحات أخرى لاحقة، تبدأ ببعض ما ورد في السنة عن الشكر.

ـ(١) وبها نَدْلُف إلى حديقة غناء، معممة بالزهور

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف بعد الجزء الذي نشر في عكاظ.

والورود، نقتطف منها بعض الأحاديث النبوية التي وردت عن الشكر، ونكتفي بنماذج مختصرة تمثل هذا الجانب من التراث الحميد، وتفصل بعض ما ذكرناه من آيات عن نظرة الإسلام إلى الشكر، وقد استقيناها من أمهات كتب السنة:

والحديث الآتي يكشف نظرة الرسول ﷺ إلى الشكر، وتمسكه باعطاء ما عليه منه لله تعالى، فهو لا يؤدي واجباً فقط، وإنما يؤديه إختياراً ومتعة:

«قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه. قالت عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ياعائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

وخير من يعرف حق الشكر هم الأنبياء، أقوى الناس إيماناً، وهم القدوة لقومهم من المؤمنين.

---

(١) صحيح مسلم: ٢١٧٢، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

وروى المغيرة بن شعبة حديثاً مثله، في المصدر نفسه.

ويأتي حديث قوي، يربط بين شكر الله وشكر الناس، ويجعل شاكر الناس هو شاكر لله سبحانه وتعالى، وفي هذا الربط منتهى القوة، وغاية الحث:

عن أبي هريرة: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».[1]

ثم يأتي حديث مفصل، يبين ردّ الجميل، والاعتراف بالفضل، ويبين الشكر من هذا التسلسل الصادق الصائب:

عن جابر بن عبدالله: «من أُعطيَ عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره».[2]

هكذا يراد للمجتمع المسلم أن يكون: قوة بناء

(١) سنن أبي داوود: ٩١٣، باب في شكر المعروف.
(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢٠٠، باب ما جاء في الثناء بالمعروف.

ولحمة بين أفراده، وليس المراد هو ردّ الجميل عيناً فقط، كما أسدي المعروف عيناً، وإنما كذلك ما يكمن خلف ذلك من اعتراف بالفضل، وإقرار بالاحسان، واهتمام بالتذكير لصاحب الفضل بأن معروفه لم ينس؛ وقد أعطى متفضلاً، فردّ له معروفه رداً جميلاً عند الوجد، اعترافاً وإقراراً، ورُجِّح الرد بثقل الشكر الوافي.

وفي هذا المعني يأتي بيت تتمثل به عائشة أم المؤمنين، يقول فيه الشاعر:

«يجزيك أو يثني عليك وإنّ من
أثنى عليك بما فعلت كمن جزى»[1]

هذه هي اللمسات الاجتماعية المنيرة بالفضيلة، والخلق الحسن، فالناس يتسابقون إلى الخير، وإلى ما يسعد إخوانهم المسلمين، ويتبع ذلك العناية بالجار، وهو أولى بالمعروف والفضل، وصلة الرحم، وهكذا حتى ينتظم المجتمع بالتواد

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٨١.

والتراحم في عقد جميل.

والدين حريص على إظهار الشكر بأقل دلائله، والدعاء أحد هذه الدلائل التي لا تكلف عناء، ولا تأتي بمشقة، وهذا الحديث يؤكد هذا:

عن أسامة بن زيد: «من صُنع إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».(١)

إنه لم يُثن أو يشكر فقط وإنما زاد في ذلك، وجاء بما طفح به الكيل، ورجح به الميزان. إن الاعتبار في الالتفاتة والنظرة المعبرة، والدعاء يزيد عن ذلك، لأنه إقرار ضمني بالعجز عن المكافأة، وأنه يحيلها إلى القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه أمر، ولا يصعب عليه شأن.

وهذا المعنى إن جاء استنباطاً من الحديث، فقد جاء في شعر أحد الشعراء صريحاً واضحاً، ولعل

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٢٠٠، باب ما جاء في الثناء بالمعروف.

الحديث هو الذي أوحى إليه بهذا، أو لعله استقاه ممن استنبطه من هذا الحديث:

يقول أحد الشعراء:

فإني وإن بالغت في الشكر والثنا
عليه، مقر بالقصور وبالعجز
ولكنني أرجو الذي عمّ فضله
يجازيه عني، فهو أكرم من يجزي(١)

وإذا كان هذا الشاعر قد يكون استقى بعض فكرته من الحديث الشريف فإن شاعراً آخر قد استقى شعره من آية من القرآن الكريم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٢).

يقول البحتري:

شكرتك، إن الشكر للعبد نعمة
ومن يشكر المعروف فالله زائده(٣)

(١) رحلة الشتاء والصيف: ١٥٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٣) رحلة الشتاء والصيف: ٢٠١.

وهذه ميزة الإسلام إن تعاليمه تظهر على ألسنة تابعيه، وأفعالهم، يلتقطها صائغ المثل، فيجعل منها مثلاً متداولاً، وصاحب الحكمة يصيغ منها ما يصبح على ألسنة الناس، وباللهجة التي يعرفونها، والشاعر يسبكها في شعره، فيساعدها هذا على الانتشار والحفظ، وتكون قريبة من الاستشهاد.

ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قول في الشكر، فيه لفتة مضيئة، يذهب فيها إلى ما قبل إسداء المعروف المستوجب للشكر، وهو أمر انفرد به كما يبدو، وحسب ما استقريناه من الأقوال السابقة:

«من عظمت نعمة الله عليه، كثرت حوائج الناس إليه؛ فمن شكر الله تعالى تحمَّل تلك المؤونة عنه، وزاد الله في نعمته، ومن لم يتحَمّلْها، فقد عرّض النعمة للزوال في الدنيا، وللنكال في الآخرة: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ .(١)

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
رحلة الشتاء والصيف: ١٤٧.

ويروي صاحب كتاب: «محاضرات الأدباء» حديثاً عن النبي ﷺ يقول فيه:

إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبده:

هل شكرت فلانا؟

فيقول: يا رب، علمت أنك المنعم، فشكرتك.

فيقول الله تعالى: لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يده» .(1)

وهذا يمشي مع الحديث السابق الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وهو تأكيد لما فيه.

وتختلف الألفاظ، وتتفق المعاني، وتأتي هذه من زاوية، وتأتي أخرى من زاوية مختلفة، ولكنها تصل إلى هدف واحد، وتصب في إناء مماثل، فهذا القول الآتي يمشي مع بعض المعاني التي مرت بنا، إلا إن النفي في أول الجملة يزيده قوة في حصره:

«لا زوال للنّعمة مع الشكر، ولا بقاء لها مع الكفر».[1]

ويأتي الحثّ على الشكر في العبارة الآتية:

«من بذل عنايته لك، فابذل جميع شكرك له».[2]

والتأكيد على أن يكون الشكر وافياً، حتى يتساوى مع المعروف الذي يكفي لرجحانه أن المبتدأ فيه، هو أن «بعض» لبذل المعروف، و «جميع» لشكره.

وتأتي الالتفاتة إلى الشكر بتعبير مبتكر حيث يقول الحسن البصري:

«الخير الذي لا شرّ فيه: الشكر مع النّعمة، والصبر عند النازلة».[3] .

وقوة الجزء الأول من الجملة، وهو ما يخص

---

(١) المجتنى: ٥٧.
(٢) المجتنى: ٥٧.
(٣) المجتنى: ٧٢.

الشكر جاءت من قرنه مع الصبر عند النازلة، ولو لم يقرن بها لما كان له هذا المرتكز الذي وقف بجانبه عموداً يتكئ عليه.

وهذا شعر فيه إبداع في عرض الشكر، وهو نعمة حيث أدخل الشاعر الشكر مع النعمة في دائرة مفرغة، فلا يتقدم واحد عن الآخر، أو ينفصل عنه، وبهذا الدوران يربح الشكر ربحاً مركبا:

يقول الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً
علّي لـه في مثلهـا يجـب الشكـر
فليس بلـوغ الشكـر إلا بفضلـه
وإن طالت الأيام واتصل العمر(1)

ومثل ذاك الشاعر هذا الشاعر:

شُكـر الإلٰـه نعمـة   مـوجبـة لشكـره
فكيـف شكـري بـرّه   وشُكـره مـن بـرّه(2)

---

(1) الكشـكول: ١/ ٢٧٤.
(2) الكشـكول: ١/ ٢٧٥.

ورَسَمَ هذا الشاعر مِثْل سابقه دائرة خاصة به يدور فيها الشكر مع النعمة والبرّ، فلا ينتهي الشكر، ولا تنتهي النعمة، ولا ينتهي البر، وهذه براعة في القول جاءت نتيجة التفكير السليم.

وصاحب كتاب «قوانين الوزارة» له قول يتناسب مع الغرض الذي ألَّفَ له كتابه، وديوان الوزارة يتعامل مع الناس، فمنهم منكر الفضل للدولة، والمعترف الشاكر لها، وما قاله يدخل ضمن مبادىء عمله:

قد قيل: «أحق الناس بالمنع الكفور، وبالصنيعة الشكور».[1]

واستعمل كلمة: «الصنيعة» مقابل كلمة «المنع» وكان المتوقع أن يستعمل كلمة: «البذل» أو «العطاء»، ولكنه قصد هذا من منطلق عمله في ديوان الخليفة، أو الأمير، فالحاكم يصطنع من يعمل معه، أو يسامره وهي كلمة «حَظّ» أقوى من البذل، والبذل يأتي عن طريق الإصطناع مرات ومرات.

(١) قوانين الوزارة: ١٣٤.

وفي ترجمة عبدالأعلى بن حماد المعروف بالنّرسي وردت الرواية الآتية:

قال عبدالأعلى:

قدمت على المتوكل بسر من رأى، فدخلت عليه يوماً، فقال لي: يا أبا يحيى، قد كنا هممنا لك بأمر، فتدافعت الأيام به.

فقلت: يا أمير المؤمنين، سمعت مسلم بن خالد المكي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول:

«من لم يشكر الهمّة لم يشكر النّعمة».

وأنشدته:

لأشكرنّك معروفاً هممتَ به
إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا أذمك إن لم يمضه قَدَر
فالشيء بالقَدَرِ المحتوم مصروف

فجذب الدواة فكتبها. ثم قال: يُنجز لأبي يحيى ما كنا هممنا له به، وهو كذا، ويُضَعَّف لخبره هذا.(١)

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٨٥، تاريخ بغداد: ١١/ ٧٦، قارن هذا بما جاء في محاضرات الأدباء: ١٥٠.

هذا الرجل عنده من اللباقة، وحسن التدبير ما استدرّ بهما نوال الخليفة، الذي كان نوى أن يعطي، فتردّد، أو حال دون نيّته حائل، ولم يستطع معه التنفيذ، فسبك الشاعر القول في هذه الأبيات التي صورت موقعه من الخليفة، وولاءه له، بحيث أنه لم يلم الخليفة على عدم النوال، الذي لم يرده الله.

وكان الخليفة نابها أدرك الجمال فيما قاله الشاعر، فأمطرت سحائب جوده، وهلّت شآبيب كرمه، وتضاعف الخير مدراراً، هذا فضلاً عن تشريف الخليفة له بأن كتب بنفسه الأبيات، إعجاباً بها.

وجاء في ترجمة علي بن عبيد الله البزوري أن أبا هريرة روى عن النبي ﷺ أنه قال:

قال الله تعالى: «ابن آدم، إنّك ما ذكرتني شكرتني، وما نسيتني كفرتني».[1]

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢/١١.

كَرَمُ الله سبحانه وتعالى لا يدانيه كرم، فهو الذي خلق الخلق، وقسّم عليهم حظّهم من الرزق، فمجرد ذكر الله سبحانه وتعالى في الذهن شكر له. والإنسان إذا استحضر ربّه في ذهنه، وتدبر فيه، وفي أفعاله، وأوامره ونواهيه، وَعَبَدَهُ حق عبادته، فقد شكر، فهذه الجملة وراءها خير عميم.

فإذا لم يذكر الله في ذهنه، ران الجحود على قلبه، وابتعد بأعماله عن سبيل الله وهديه، وأخذه التيار تدريجا إلى الهاوية، ينزل في قاعها كأنه مُندَفِعٌ مع شلال منحدر،

وذِكْرُ الله سبحانه وتعالى وشُغل الذهن به، يملأ حَيِزّ الذهن، فلا يبقى لذكر غيره مكان، ولا ينشغل المرء بسواه، فتكمل اللذة، وتبقى المتعة، ومعها تضمن سعادة الدنيا والآخرة.

أما إذا نسي الله نسيه الله، ووكله إلى نفسه، وبئس المُعتمد النفس إذا لم يكن لها من الله نظرة،

ومن عونه مساعد ومنقذ، وإذا ما انشغل المرء حينئذ بأمر الدنيا ولم يعط الآخرة نصيبها، وهو مطلوب منه ألا ينسى نصيبه من الاثنين، أبعد عن الجادّة، وانشغل بما يرضي الأثرة عنده، ويديم الأذى للآخرين، من إجرام وغيبة ونَمِيمة، وطمع وكذب ونفاق.

ومواقف العجز عن الشكر تتكرر، لكثرة ما يكون المعروف المُسدَى كبيراً، والمسدى إليه لا يملك إلا كلمات شكر لا يجد أنها تفي بحق من أسدى المعروف، فيلجأ إلى الدعاء، والله هو الملجأ الأخير عندما يعوز الملجأ، وتقفل الأبواب، فبابه لا يقفل، وليس عليه بواب يستأذن، فيأذن أو لا يأذن.

والقصة الآتية نموذج لمثل هذا الموقف، حتى أن مسدي المعروف جاء لنجدة الشاكر له، ليساعده على أن يهدأ طيره، بعد أن أقلقه عجزه عن الشكر:

دخل يحيى بن الحسين الطالبي على المأمون

فقال: «يا أمير المؤمنين، حَيرَّتني عارفتك (معروفك) حتى ما أدري كيف أشكرك!

قال: لا عليك، فإن الزيادة في الشكر على الصنيعة، ملق، والنقصان عيّ، وحسبك أن تبلغ حيث بلغ بك» .[1]

لقد وضع المأمون حدوداً واضحة يبدأ منها الشكر وينتهي عندها، وما خرج عن هذين الحدّين، دخل في محذورٍ يُتجنب. ولقد طمأن يحيى بأن ما جاء منه هو في داخل الحد المرتضى للشكر.

«ويُروَى عن أبي داود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«قال الله تعالى: إني والإِنسَ في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأَرزق ويُشكر غيري» .[2]

وهذا في قياس اللغة عتب من الله على خلقه، في صرف العبادة لغيره وهو خالقهم، ولتتضح صورة

---

(١) البصائر: ١/ ١١٧.

(٢) البصائر: ٢/ ١٠٢.

الخطأ في تصرف الخلق تجاه ربهم، أردفه بما يعرفونه، ويحدث بينهم، وهو صرف الشكر لغير المنعم، وفي الحالتين خلل يوجب الجزاء الأعظم، لأنه خروج بالأمر عن جادة الصواب، وما خرج عنها يعاد إليها بأعنف الوسائل، إذا لم تنفع الوسائل الرقيقة؛ والله سبحانه وتعالى عوّد خلقه الحسنى، فهو ينبههم ثم يذكّرهم، ثم يؤنّبهم، حتى لا يبقى إلا الأدب والأخذ على اليد.

ويتعمّق متعمّق في وصف قصور شكره عن معروفٍ أُسدي إليه بهذا القول الذي يحتاج في فهمه إلى تروٍّ وتدبّر:

«كتب مالك بن أسماء بن خارجة إلى الهيثم بن الأسود النخعي، يتشكر له قيامه عند الحَجَّاج بأمر رجل من آل حذيفة بن بدر الفزاري، خَلَّصَهُ منه:

أما بعد: فإنك لمّا كلّت الألسن عن بلوغ عزِّ ما استحققت من الشكر، كان أعظم الحيل عندي في مكافأتك إخلاصُك صدقَ الضمير، وكما لم تُعرف

لزيادتك في العلا إذا جُرِّبتَ غاية، كذلك جهلتُ آية الثناء عليك، فليس لك من الناس إلا ما لهم من محبتك، فأنت كما وصف الواصف إذْ يقول:

فما تعرف الأفهام غاية مدحه
يقيناً كما ليست بغايته تدري»[1]

لما عجز عن وفاء الشكر كما ظن، منحه صدق الضمير، وخالص المحبة، وهما بضاعة العاجز في نظره، وغاية ما يقدر عليه.

وهذا أبو نواس يستسلم للعجز، ويبلغ به اليأس منتهاه عن مقابلة العطاء بما يستحقه من الثناء فطلب إيقاف المعروف حتى يؤدِّيَ دينه من الحمد، وهي فكرة مبتكرة، خاصة الصورة الحسية:

أنــت امــرؤ أوليتنــي نعمــا
أوهت قوى شكري فقد ضعفا

(١) الأشـــراف: ١٢٣.

فـإليـك بعـد اليـوم تَقْـدِمـة
وَالتْـك بـالتصريـح منكشفـا
لا تحـدثـن إليّ عـارفـة
حتى أقـوم بشكـر مـا سلفـا[1]

وفي معالجة قصور المرء عن مقابلة المعروف بمثله يقول الحكماء:

«إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر».[2]

وبيت شعر قاله طريح الثقفي عالج فيه تقصيره عن الشكر بالشكر:

«سعيـتُ ابتغـاء الشكـر فيمـا صنعـتَ بي
فقصّرتُ مغلوباً وإني لشـاكـر»[3]

وقال أحد الشعراء محاولاً إيصال مدى شكره إلى من أسدى معروفاً، مجسّماً الأمر في صورة

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٨٥.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٨.
(٣) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٩.

مادِيّة، علّها تفي بما يجيش في نفسه من شعور:

فلو كان للشكر شخص بيّن
إذا ما تأمّله الناظر
لبينته لك حتى تراه
فتعلَمَ أَني امرؤ شاكر
ولكنه ساكن في الضمير
يحركه الكلم السائر[1]

وبلاغة الشعر، والتصوير الذي جاء به الشاعر في هذه الأبيات، يُكمِّل النقص الذي قد يشعر أنه اعترى شكره.

والشعراء يحاولون أن يبدعوا في إلباس ثوب الشكر الذي يلبسونه المتكرِّم عليهم، فلا يأتون بشيء معاد، وإنما يحاول كل واحد منهم أن يكون متميزاً بقول لم يُسبق إليه، فيعمد إلى صورة جميلة يرسمها في شعره، تكون محط الإعجاب، فيشعر حينئذ أنه أدّى ما عليه في حق الشكر، والأبيات

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٨١.

الآتية فيها شيء من هذا:

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي
أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغِنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها
فكانت قَذَى عينيه حتى تجلت[1]

ومن عُرِف بطاعة الله الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ومن أولى به أن يحمد الله، وأن يكون الثناء ديدنه في أعماله، وفيما يرضاه لرعيته، والقصة التالية تُري مدى سيطرة الحمد والشكر على ذهنه:

كتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن عبدالعزيز:

«إن الناس قد أصابوا من الخير خيراً، حتى كادوا أن يبطروا»، فكتب إليه عمر:

«إن الله تبارك وتعالى حيث أدخل أهل الجنة

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٨٠.

الجنة، وأهل النار النار، رضي من أهل الجنة أن قالوا: الحمد لله، فَمُرْ مَنْ قبلك أن يحمدوا الله». [1]

لقد خاف أحد رعية عمر ممن رأى النعمة على الناس، أن يبطروا فيعاقبهم الله، وعدي بن أرطأة مسؤول عن الخلق في البلد الذي هو فيه، وعليه أن يوالي الخليفة بالظاهرة إذا تفشت، حتى يفكر في دواء لها، ويأتي برأي في حل مشكلها؛ فوافاه عمر بالدواء الناجح، والحل المصيب، وهو حمد الله على النعمة، فالناس إذا نالتهم النعمة ذكروا الله، وإذا ذكروا الله تمسّكوا بأوامره واجتنبوا نواهيه، وإذا فعلوا ذلك أدّوا ما عليهم من حقوق للمال الذي يسر الله لهم طرق كسبه، فإذا فعلوا وُزِن المجتمع، فلا يحدث فيه خلل، ولا يصاب بهزات تنكِّد عليه ما حباه الله به من نعمة، ولا بَدَّل أمرهم إلى سيىء بعد الحسن.

---

(١) الأشـــراف: ٢٣٤.

وقد مرّ بنا حكم للخليفة المأمون عن زيادة الشكر ونقصه، وهو يوافق قول أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، إن لم يكن مُستَقًّى منه:

قال أمير المؤمنين: «الثناء من غير الاستحقاق ملق، والتقصير عن شكر الاستحقاق عي وحسد».[1]

وهذا يؤكد رأي من يرى أن الثناء والشكر يجب أن يقتصرا على رد المعروف، وألا يبتذلا في غير الاستحقاق، وهي نظرة صائبة، لأن ثمن الشكر شريف، ولا يجوز أن يتدنى مكانُه، فيُدفع فيما ليس في مستواه، وقد حُكم على من أهدر الشكر بأنه متملق؛ وقد وُضِع هذا الحكم في كفة، ووضع مقابلاً له في الكفة الأخرى ما هو خلافه، وهو التقصير في حق من له حق في الثناء، وحكم عليه بأنه عجز عن التعبير، أو حسد لصاحب الفضل، وهروبٌ من إعطائه حقه، مقابل فضله.

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٥٠.

والقسطاس عندهم مبجل، ويحرصون عليه، فإعطاء كل ذي حق حقه هو هدفهم، ومنتهى بغيتهم، ويرى بعضهم التمسك بهذا، حتى لا يدخل الابتذال إلى مقياسهم الدقيق، الذي حددوا فيه الاستحقاق للجانبين، ولهذا قال أعرابي قوله في الرواية الآتية:

قال رجل لابن الأعرابي: إن نصيبا يقول: «إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها».

فقال: إن العرب تقول: «على قدر ريحكم تمطرون».[1]

وهكذا تقرن الأفكار بالأفكار، فيتوحد العمل في ضوئها.

وليس أدق من عمر بن الخطاب في الحكام، يعطي الحق وافياً، ويأخذه وافياً، والشكر عنده مصون، والثناء لا يصرف إلا لأهله، وقد أبدى رأياً صائباً عندما رأى اندفاعاً في الثناء من رجل

(١) محاضرات الأدباء: ١٥٠.

على رجل في القصة التالية، وكأنه بهذا يريد أن يحفظ منزلة الثناء والشكر:

«قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

إن فلاناً رجل صدق.

قال: سافرتَ معه؟

قال: لا.

قال: فكانت بينك وبينه خصومة؟

قال: لا.

قال: فهل إئتمنته على شيء؟

قال: لا.

قال: فأنت الذي لا علم لك به، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد!».[1]

الثناء شكر، وعمر لا يريد أن يصرف الشكر إلا لمن استحقه، والنظرة الساذجة في نظر عمر لا تكفي لتزكية أحد، وقد بيّن رضي الله عنه أدوات الأختبار، وأنواعها، فوجد أن الرجل لم يُعمِل

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٨.

شيئاً منها، فأوقف ثَنَاءه للرجل، حتى يأتي منها بما يكشف له صحة رأيه، وصواب حكمه.

ولا عجب أن يتطلع بعض الناس إلى الحمد دون أن يعطُوه حقه، وأن يسعوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وقد كشف هذا أحد الشعراء فيمن عرفه متصفاً بهذا الوصف فقال:

«عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن
لكنّه يشتهي حمداً بمجّان
والناس أكيس من أن يحمدوا أحداً
حتى يروا قبله آثار إحسان»[1]

وللأرض التي يزرع بها المعروف اختيار، وهل هي صالحة أم أنها سبخة لا تنبت ولهذا قال بعضهم:

«لا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه؛ فإن الصابر هو الشاكر، والجازع هو الكافر»[2].

والأرض السبخة يقال إن الخليفة معاوية بن أبي

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٨.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ١٨٦.

سفيان قد جرب فيها زراعة لم تنجح، فلم ينبت فيها ما زرع، ولم يثمر ما غرس؛ وينسب إليه في هذا الشعر الآتي، وهو فيه يعاتب قريشاً:

إذا أنا أعطيتُ القليل شكوتُمُ
وإن أنا أعطيت الكثير فلا شكر
وما لمت نفسي في قضاء حقوقكم
وقد كان لي فيما اعتذرت به عذر
وأمنحكم مالي وتُكفَرُ نعمتي
وتَشْتِم عرضي في مجالسها فهر
إذا العذر لم يقبل ولم ينفع الأَسى
وضاقت قلوبٌ منهم حَشْوها الغِمْر
سأحرمكم حتى يذلّ صعابكم
وأبْلَغُ شيء في صلاحكم الفقر»[1]

هذه نفثة حَرّى يرسلها معاوية - إذا صحت نسبتها إليه، أو أنها قيلت على لسانه، حكايةً للحال التي كان يكابدها مع قومه، وهي صورة

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٩.

معبرة عما كان يشعر به نحوهم.

ويحلل عمران بن حطان في أبيات له أمر العطاء، والثناء، ويخرج بنتيجة أيهما أرجح في الميزان في نهاية الأمر:

وقد عَرَضَتْ لي حاجة وأظنني
بأني إذا أنزلتها بك مُنْجح
فإن أك في أخذ العطية مُرْبَحاً
فإنك في بذل العطية أربح
لأن لك العقبى من الأجر خالصاً
وشكري في الدنيا فحظك أرجح[1]

وبيت باسم يقول فيه إسحاق بن حسان الخريمي:

لأنك تعطيني الجزيل بداهة
وأنت لما استكثرت من ذاك حاقر

هنا التسابق بين المُعْطِي والمُعْطَى، فهذا مستقل

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٩.

العطاء، وهذا يراه جزيلاً لعظمه، وجميلاً، لأنه جاء بداهة دون طلب.

ومثله قوله أيضاً، وهو معنى يبدو أنه تفرد به:

زاد معـــروفـــك عِظَمـــا
أنـــه عنـــدك محقـــور صغير
تتنـــاســـاه كـــأن لم تـــأتـــه
وهو عند الناس مشهور كبير[1]

ومـن المعـاني الجميلـة في بـاب الثنـاء البيتـان الآتيان:

«فلو كان يستغني عن الشكر سيّد
لعـزّة ملـك أو علـوٍّ مكـان
لمـا أمـر اللهُ الجليـلُ بشكـره
فقـال اشكـروني أيهـا الثقـلان»[2]

هـذه بعض الأقـوال التي قيلـت في الشكـر، أحاطت به من كلّ جانب، ولمسته من عدة زوايا،

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٨١.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ١٨١.

عضدت بنماذج من الحكم والشعر.

والحديث عن الشكر والثناء والحمد متشعب، وكتب الأدب وأبواب الأخلاق فيها تغص بالنصوص التي تلمس هذا الجانب. وقد اكتفينا بهذا القدر منها، وهي تمثل نماذج تعطي فكرة مجزية في هذا الباب.

مع الشعراء في شعرهم[1]

الشعر تعبير يحظى بالقبول، لما له من تركيب متميز، وكان السحر في الجاهلية، ولم يتزحزح من مكانه إلا عندما جاء الإسلام فغلبه القرآن بنبله، وشريف وقعه، وقوة تأثيره، وفائق إعجازه.

والشعر كان قولاً مهماً في الإسلام، إذ لبس لباسه، وتحلى بحليته، واتّسم بما فيه من ضياء ونور، فعضّد المعارك الإسلامية بروحه الجديدة وذبّ عن الإسلام والمسلمين بلسان بليغ، وقول فصيح؛ وقد جاء الشعراء المسلمون بفنون منه تتناسب مع مجتمع العرب الجديد.

وحَظِي الشعر بمنزلة عند الحكام، وعند علماء اللغة والأدب، فدوِّن منه ما يملأ مجلدات، فجاء بصورة دواوين، أو موشّياً لكتب الأدب والتاريخ، ولا نحصي ما قيل منه، أو دوّن منه، في

(١) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٩٧) في ١/٢/١٤١٥هـ الموافق: ٩/٧/١٩٩٤م

شرق الدولة الإسلامية وغربها.

واهتم به علماء الأدب، وصرفوا جهداً كبيراً في دراسته، وبيان مراميه، وكشف أوجه البلاغة فيه، ومأتى التأثير منه، ومراميه الواضحة، أو المعماة، فلم يدعوا شاردة ولا واردة إلا أتوا بها عنه.

واهتموا بالشعر لأنه أحد المصادر الأمينة على اللغة، لوزنه وقافيته، فمنه أخذوا بعض المقاييس والقواعد للغة، ونحوها وتصريفها، واستشهدوا به على دعواهم أمام بعضهم بعضاً، وكان دائماً يأتي لنجدتهم، بل إن صاحبي رأيين متناقضين أو متضادين يجدان بغيتهما في ترجيح رأي كل واحد منهما في ضوئه.

ولن أتطرق للشعر في المجالات التي تطرق لها دارسو الشعر، ولا ما حظي بعنايتهم منه في أغراضه المختلفة، أو أوزانه المتعددة، ولكني سوف أقتصر على ملامح طريفة مرت بي وأنا أقرأ هنا وهناك، استوقفتني، ورأيت فيها ما يستحق

الوقفة والتمتع، وهي أشتات لا يربطها رابط مقيِّد، ولا يحكمها قاعدة واحدة، وإن كان بعضها يصلح أن يكون نواة لذلك، أو جزء من قاعدة وتنظيم.

وسوف نرى فيها بعض ما يستحق الوقفة، ونشارك من دوَّنه في زمنه بالبهجة التي تدخلها على النفس قراءة هذه الأخبار؛ وللبعد عن الملل، وضمان المتابعة فإن هذه المعلومات سوف تأتي قائمة بذاتها، وقد لا يكون بين بعضها وبعض إلا أنها عن الشعر والشعراء فمثلاً رأي السابقين في «أحسن الشعر» يتمثل في الحكم الآتي:

قال أحد الأدباء:

«أحسن الشعر ما كان إلى القلب أسرع منه إلى الأذن».[1]

هذا الأديب اختصر حكمه على الشعر، فلم يتحدث عن الكلمات أو الأوزان، أو الأغراض،

---
(١) الكشكول: ٢/ ٤١٢.

أو الموسيقى؛ لقد ترك التفاصيل وجعل الكلمة النهائيـة للقلـب، فـالقلـب إذا سـارع بـالقبـول والتأثر، فالشعر حسن وقد جاء بالمغالاة لتكون مقوية لرأيه، فرغم أن الشعر يمر إلى القلب عن طريق الأذن، إلا أنه تجاهل هذه الحقيقة، وجعل القلب يسبق الأذن في إدراك مرماه.

والحكم على الشعر ليس سهلاً، ولا يقبل من أي أحد، فعندما أراد أحدهم أن يتصدى لذلك، وأن يجلس على مجلس القضاء، أوقفه آخر بكلمات قاسية، والقصة تروى كالآتي:

قال أبو رياش اليمامي اللغوي لأبي الحسين بن لنكك:

أنت كيف تحكم على الشعر والشعراء، وليس تفرق بين الزَّفَيان والرقبان؟

(الرقبان شاعر جاهلي قديم، يقال له أشعر الرَّقبان، وأما الزفيان فهو من بني تميم من بني سعد ابن زيد مناة بن تميم، يعرف بالزفيان السعدي).

فأجاب أبو الحسين، ولم يقنع ذاك أبا رياش، وقاما على شغْبٍ وجدال.[1]

فللشعر منزلة في النفوس ليس من السهل على حُماته أن يسكتوا على ضيم يناله، ولهذا فإن أبا رياش بقي غاضباً على أبي الحسين، وترك المجلس وهو على هذه الحالة.

ومن الغيرة على الشعر، والمحافظة على مقامه، وحمايته من تطفل المتطفلين، أو إضعافه من الذين لا يقدرون أهمية تحصينه من تسرب الضعف إليه، بدأ النقد للشعر، ووضْع أسس ينطلق منها لذلك.

ومن الأحاديث المدونة التي تصف بعض مواقف النقد العفوية القصة الآتية:

«مدح أبو مقاتل الضرير الحسن بن زيد بقصيدة أولها:

(١) معجم الأدباء: ٨/ ٢٤٤، ترجمة الحسن ابن عبدالله العسكري اللغوي.

لا تقـل بشرى ولكـن بشريـان
غـرة الـداعـي ويـوم المهـرجـان

فكره الحسن ابتداءه بـ (لا تقل بشرى)، فقال: لو قلت:

غـرة الـداعـي ويـوم المهـرجـان
لا تقـل بشرى ولكـن بشريـان

لكان أحسن، لأن الابتداء بـ (لا) قبيح».

وعندما نسمع هذا نجد عند أول نظرة أن القول المبدى مقبول، وأن الحجة لا تخلو من قوة، وأن التبرير واضح المعالم، ولكن موقفنا هذا يضعف قليلاً أو كثيراً عندما نسمع رأي الشاعر، وهو رأي مفاجئ وذكي، ويدل على عقل راجح، إذ جاء الرد سريعاً، ودون إطالة تفكير، وجاء مأخوذاً من منبع شريف أصيل، لا أحد يجادل في صحته، ونصاعة مظهره ومخبره:

فقال له أبو مقاتل:

«لا كلمة أشرف من التوحيد، وابتداؤه بلا». [1]

إن غيرة الحسن على الشعر هي التي جعلته يبدي ملاحظته، لأنه يريد أن يبعد عن الشعر أي مدخل ضعف، أو يفتح نافذة يتسرب إليه منها ما يوهنه، ويخدش صفحة أديمه.

والشعر رقيق الحاشية، ويخشى عليه من هبوب ريح الضعف، مهما كانت ضعيفة، ولهذا نجد الغيورين عليه متيقظين لأي بادرة يشعرون أن فيها مساساً به، سواء في مبناه أو في ما يخص الذوق حياله، وهم سريعون إلى سلِّ سيف الدفاع عنه، والحيلولة دون خدش صفحته، والقصة التالية تُرى شيئاً من هذه اليقظة، والمرء لا يسعه وهو يسمع الانتقاد إلا أن يبتسم للصورة التي رسمها الناقد، فأحسن رسمها:

أنشد كثيرٌ سُكَينة:

---

(١) البصائر: ٣/ ٩٢.

فما للنوى لا بارك الله في النوى
وعهد النوى عند الفراق ذميم

فقالت: إنه لبيت حسن، ولكن لو أفلتت عليه شاة لأكلته.[1]

سكينة أديبة معروفة بمجالسها الأدبية، وندواتها التي تغص بالأدباء والعلماء والمفكرين، ولها ذوق رفيع، وقد رأت ما أغرى كثيرٌ بما قال، وما ظنه إجادة، فشاركته، مجاراة منها وذوقاً، فيما رآه، وأسعدته بقولها إنه شعر حسن، ولكنها أنصفت الحقيقة بهذا التعليق البديع الفكه.

والشاعر مثل الكاتب إذا قال البيت أو الجملة من وحي خطر بباله، يصبح مثل ابنه وابنته لا يرى العيب فيه، ويحتاج إلى من ينبهه إليه، لأنه مأخوذ بالجانب المضيء في نظره، وهو الجانب الذي جعله يقول ما قال؛ فإذا ما نبه فإنه أحيانا يصر على موقفه، ويدافع عن قوله، ولكن من المؤكد أنه داخلياً يشعر

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٩٧.

بأن حماسه أقل؛ ونحن متأكدون اليوم أن كثيرًا بعد قول سكينة سوف لا تغيب صورة الشاة عن باله؛ أما الذين سمعوها فإنها كانت مصدر تسلية وفكاهة لهم.

وهذا النقد الهادئ العميق الفكه من سكينة يليق بمقامها، وقد جاء من سيف الدولة بن حمدان بعد قرون نقد مماثل في هدوئه لنقد سكينة، والقصة كالآتي:

«قال الخالع:

حدثني الناشئ قال: لما وفدت على سيف الدولة.. أنشدته قصيدة أولها:

الدهر أيامه ماض ومرتقب

وقلت فيها:

فارحل إلى حلب فالخير مُنْحَلِبٌ

من نيل كفك إن لاحت لنا حلب

فقال: يا أبا الحسن بيت جيد، ولكنه كثير اللبن». (١)

---

(١) معجم الأدباء: ١٣/ ٢٨٩، ترجمة علي بن عبدالله بن وصيف الناشيء.

فسيف الدولة مثل سُكينة مدح البيت بالجودة، ثم جاء الاستدراك هادئاً فكها، وهذا الأدب في إبداء الرأي يليق بكل من سكينة وسيف الدولة، فكلاهما من عنصر زاكٍ، وأرومة حميدة، وكلاهما له مقام في مجتمعه، وكلاهما أدبه وتربيته تجعلانه يكسب الناس ولا ينفرهم، ولكنهما لم يريدا أن يُظن بهما غفلة عما يقتضيه حق الفكر، وقد وزنا الأمر بميزان القسط، بدليل أن راوي خبر نقد سيف الدولة هو الشاعر المنتقد.

ومادمنا في بلاط سيف الدولة، المجاهد، المرابط على ثغر من ثغور المسلمين، ومن هو في حاجة إلى تعضيد الشعر له، وتمجيد ما يقوم به هو وجنده لحماية المسلمين من هجوم المسيحيين الشرس المتوالي، فمن المناسب أن نورد موقفاً طريفاً آخر مع شاعر مدح سيف الدولة، ولكن النقد جاء من غير سيف الدولة، والقصة كالآتي:

قال أبو الحسن السلامي الشاعر:

مدح [أحد] الخالدين سيف الدولة بن حمدان بقصيدة أولها:

تصد ودارها صدد وتوعده ولا تعد
وقد قتلته ظالمة فلا عقل ولا قود

وقال فيها في مدحه:

فوجه كله قمر وسائر جسمه أسد

فأعجب بها سيف الدولة، واستحسن هذا البيت، وجعل يردده، فدخل عليه الشيظمي الشاعر، فقال له اسمع هذا البيت: وأنشده.

فقال الشيظمي: إحمد ربك، فقد جعلك من عجائب البحر.(١)

في هذا الموقف شارك سيف الدولة الشاعر الخالدي جودة هذا البيت، ورأى فيه ما رآه الشاعر، إلا أن لكل شيء آفة من جنسه، لقد عكر صفو هذا الإعجاب النقد الذي وجه سهمه الشاعر

(١) أخبار الظراف: ١١٨.

الشيظمي، فقد نَبّه سيف الدولة إلى الصورة البشعة التي يمكن أن يخرج بها السامع إذا ضم جزأي الصورة بعضهما إلى بعض، وأيقظ سيف الدولة من الخدر الذي أصابه عند وقع البيت عليه أول مرة. لابد أن الصورة الأولى في ذهن سيف الدولة قد اهتزت كثيراً، وحلّت محلها الصورة البشعة للمخلوق البحري المشوه.

هل ياترى ما قاله الشيظمي جاء حرصاً منه على حماية الشعر، أو أنه حسد أصحاب المهنة الواحدة؟!

ويأتي النقد للشاعر من حيث لا يحتسب، فيفاجأ بما يهدم ما ظن أنه صرح متين بناه، فإذا هو خواء عند الفحص والتمحيص، ولعله فوجئ أن يأتيه النقد من امرأة؛ مع أن مجيئه منها أولى من مجيئه من رجل، فهي أعرف بموقع الغزل عند المرأة، فللرجل أن يقول، وللمرأة أن تقبل أو ترفض، ولها أن تستحسن أو تستقبح:

«عرضت مدنية لكثيّر فقالت: أنت القائل:

فما روضة بالحزن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزّة موهنا
وقد أوقد بالمندل الرطب نارها

ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس:

ألم تر أني كلما جئت طارقا
وجدت بها طيبا ولما تطيب[1]

والرجل العاقل لايستهين بالمرأة، فقد يفاجأ منها بما لم يخطر له على بال؛ فقد يقدم على الأمر معها متجرداً، ليس معه سلاح، فتلقاه بأسلحة قاتلة، لا يدري من أي الجهات تهاجمه، ولا أي الأسلحة تختار، وحينئذ لا يلوم إلا نفسه، والقصة الآتية تُري هزيمة أبي العيناء، رغم شراسته، وحدة مزاجه، وأجوبته العدائية:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٧٣.

«عُرضت جارية على المتوكل، فقال لأبي العيناء: هذه عُرضت عليّ أنها شاعرة، فقل شيئاً لتجيز، فقال أبو العيناء:

«أحمد الله كثيراً.

فقالت: حين أنشاك ضريراً.

قال: يا أمير المؤمنين، قد أحسنت في إساءتها». [١]

ويأتي الدفاع مرة أخرى قصيراً وسريعاً ومؤثراً من غيور من الغيورين على الشعر:

«أنشد رجلٌ غرارةَ شعراً رديا، ثم قال:

تراني مطبوعاً؟

قال: أي والله، على قلبك!». [٢]

والشعر مصدر فخر المرء عندما يظن أنه أصبح شاعراً، وقد استخفت هذا الشاعر نفسه، فعرض شعره، وأخذ يمدح، ويتطلع إلى ذلك من الناس،

---

(١) البصائر: ٥/ ٢١٢.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٩٨.

ولكن محدِّثه أصدر حكماً قاسياً على شعره المتردّي، وحمى حوزة الشعر من أن يتطفل عليها شعرور، وهي منزلة من منازل تقسيم الشعر متدنية، كما قال أحد من قسموا الشعراء:

قال الجاحظ:

سمعت بعض العلماء يقول:

«طبقات الشعر ثلاث: شاعر وشويعر وشعرور».[(١)]

والشاعر إذا لم يجد من يمدحه مدح نفسه، لأنه أعرف الناس بشعره، ويعز عليه ألا يجد من يوفّيه حقه، فإذا أعوزه المادح فرض مدحه على الناس، وقد ورد في الأدب العربي من هذا شيء، وجاء من فطاحل الشعراء:

«كان البحتري من أبغض الناس إنشاداً، يتشدق ويتزاور في مشيه مرة جائياً، ومرة القهقرى، ويهز رأسه مرة، ومنكبيه أخرى، ويشير بكمه ويقول:

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٠.

«أحسنتُ والله».

ثم يقبل على المستمعين فيقول:

ما لكم لا تقولون: أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله».[1]

وكان هذا في مجلس الخليفة المتوكل، وكان يمدحه بقصيدة من قصائده الجزلة، ومطلعها:

عن أي ثغر تبتسم　　وبأي طرف تحتكم

وهي قصيدة راقصة، بالغ فيها بمدحه، ومع هذا فلم يغفر له المتوكل تصرفه، ونظرته إلى نفسه في مجلسه، وتعجرفه أمامه؛ فلقد ضجر المتوكل مما رأى، فأقبل على الصيمري يستنجد بمشورته في هذا الرجل، ثم أمره أن يهجوه على الرويِّ نفسه، ففعل، وكتب الصيمري قصيدة من أربعة عشر بيتاً أولها:

أدخلتَ رأسك في الحُرم　　وعلمتَ أنّك تنهزم

---

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ١٢، ترجمة محمد بن إسحاق الصيمري.

إلى أن يقول في بعض أبياتها:

يا ابن الثقيلة والثقيـ ـل على قلوب ذوي النعم
وعلى الصغير مع الكبـ ـير مع العوالي والحشم
في أي سلـح تـرتطـم وبـأي كـف تلتقـم؟

ثم ينزل بالهجو إلى أدنى درجاته، ويسف فيه، ويقول الصيمري:

إن «البحتري» خرج مغضبا يعدو، وجعلت أصيح به خلفه:

أدخلت رأسك في الحرم وعلمت أنك تنهزم

والمتوكل يضحك، ويصفق حتى غاب عنه.

ويقال: «إن الذي يتعارفه الناس أن أبا العنبس الصيمري كان واقفاً خلف السرير والبحتري ينشد أبياته، وأن أبا العنبس ردّ عليه ارتجالاً، فأمر له بعشرة آلاف درهم». (١)

والشاعر مباح له ما ليس مباحاً لغيره إلا أن

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ١٣-١٤.

البحتري لم يفرق بين المواقف، فما هو مباح له أمام الناس ليس مباحاً له في حضرة الخليفة، وهي زلة من البحتري أوقعه فيها خيلاؤه، والخيلاء كثيراً ما تلازم الشعراء، وينتج عنها ما يندمون عليه.

وليس البحتري بدعاً في هذا، فهو إن كان رضع لبان الشعر ممن سبقه، فهو قد رضع معه رغوة الخُلق الذي يلازم أحياناً ما يأخذه المريد من أستاذه، وكعب بن زهير كان من الذين سبقوا إلى موقف المباهاة بشعرهم، ومَدَح ما لم يجد الناسَ مدحوه، وكأنه يؤنب المستمعين على عدم مشاركته ما في شعره من قوة سبك، وجزالة لفظ، وسُموّ معنى:

«كان كعب بن زهير إذا أنشد شعراً قال لنفسه:
أحسنتَ، وجاوزت والله الإحسان.
فيقال له: أتحلف على شعرك؟
فيقول: نعم، لأني أبصر به منكم». (١)

(١) المستطرف: ١/ ٢٨٧.

وأغفل كعب أو جهل أو نسي أن الشعر ذو قطبين إذا لم يتلامسا لم تحدث شرارة التأثير المطلوبة، فلا يكفي أن يكون الشاعر بصيراً بشعره، وإنما عليه أن ينقل قوة إعجابه إلى السامع، وأن يكون كما قال الأديب: «أحسن الشعر ما كان إلى القلب أسرع منه إلى الأذن». وإذا لم يستطع ذلك بقي هو على جانب من النهر، والمستمع على الجانب الآخر، ولا جسر بينهما، يعبر الشاعر منه إلى المستمع، أو المستمع إلى الشاعر. أما أن يكون كعب هو الخصم والحكم في شعره فغير مقبول من النقاد.

وعنجهية الشاعر وصلفه، لما يعلمه عن ارتفاع مكانته عند مجتمعه تصل به إلى أبعد من المباهاة بشعره، بل قد تبلغ به إلى أن يتطلع إلى أن يقبلوا منه الخطأ، والمخالفة لما جاء به العرف، واتفق عليه الأدباء والنقاد، بل يبلغ به الأمر إلى أن يفرض عليهم قبول الزلل، ويؤنبهم على عدم

قبوله مثلما فعل الفرزدق في القصة الآتية:

«أنشد أبو العباس أحمد بن يحيى للفرزدق:

يا أيها المشتكي عكلا وما جرمت
إلى القبائل من قتل وإبآس
إنا كذلك إذ كانت همرّجة
نسبي ونقتل حتى يسلم الناس

قال: قلت: لم قلت: «من قتل وإبآس»؟

قال: ويحك، فكيف أصنع، وقد قلتُ: «حتى يسلم الناس»؟

قال: قلت: فبم رفعته؟

قال: بم يسوؤك وينوؤك».[1]

ولعل دلالهم على مجتمعهم، وتقديرهم لأنفسهم، جاء من علمهم بإقرار مجتمعهم لهم بذلك، وقبولهم منهم ما يأتي أعوجا بل إنهم أحيانا يكفونهم مؤونة تقويمه.

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٤٠.

أما قبولهم ما يأتي منهم غير مستقيم فيتمثل في القول الآتي:

قال الخليل بن أحمد:

«الشعراء أمراء الكلام، يجوز لهم شق المنطق، وإطلاق المعنى، ومدّ المقصور، وقصر الممدود». (١)

وقال الخليل في موضع آخر:

«الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه أنّى شاؤا، جائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، وتسهيل اللفظ وتعقيده». (٢)

فإذا عرف الشاعر أن هذا مقامه في مجتمعه، وأن هذه منزلته عنده، تطاول عنقه، وتورم أنفه، وتدلل ما وسعه الدلال.

أما ما جاء عما يأتون به أعوجاً، فلا يحاسبهم مستمعوهم عليه، بل إنهم يقومون بتقويم

(١) المحاسن والمساوىء: ٤٢٧.
(٢) الكشكول: ١/ ٣٦٨.

معوجِّه، وإصلاح فاسده كما يقر بذلك أحدهم بنغمة، توحي بالفخر والإعتزاز:

«قال عبدالملك بن مروان للأخطل:

أي الناس أشعر؟

قال: العبد العجلاني.

قال: بم ذاك؟

قال: وجدته قائماً في بطحاء الشعر، والشعراء على الحرفين (الطرفين).

قال: أعرف ذاك له كرها (كذا)، يعني ابن مقبل.

فقال ابن مقبل: إني لأرسل البيوت عُوجاً، فتأتي الرواة بها قد أقامتها» .(١)

ومثل قول الخليل يأتي قول الجاحظ عن منزلة الشعراء في مجتمعهم، والتسامح الذي يلقونه منه حيال ما يلفظون به، وتغاضيهم عن أخطاء الشاعر وزلاته، وما يأتي به مخالفاً للقواعد المتعارف عليها، وللأساليب المشهورة والمعتبرة. يقول

(١) مجالس ثعلب: ٢/ ٤١٣.

الجاحظ فيما روي عنه في معجم البلدان:

«إن تهيأ لك في الشاعر أن تبرّه وترضيه، وإلا فاقتله»[(١)].

والجاحظ يعطيه منزلته، وفي الوقت نفسه يخوف من هجائه، ولهذا ينصح إما أن يكرم ليأتي منه المدح، أو يهان فيقتل حتى يؤمن هجاؤه. وليس عند الجاحظ منزلة بين المنزلتين! وليس من الضروري أن يهان الشاعر ليهجو، فقد يهجو إذا لم يكرم، دون أن يصل الأمر إلى حد الأهانة.

ويُعطى الشاعر منزلته في المجتمع لتقدير المجتمع للشعر، ولأنه ليس كل إنسان يستطيع أن يكون شاعراً، أو يُعلَّم قول الشعر، وإنما هي موهبة تولد في لحظة يكون الإنسان فيها مهيأ لأن يُفتح باب الملكة عنده؛ ولاشك أن حفظ الأشعار يساعد صاحب الملكة على رفع مستواه الشعري، ومعرفة فنونه، وشعابه ودروبه، ولهذا قال بعض

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ٨٨.

من عرف بروايته لكثير من الأشعار عندما سئل عن عدم قوله الشعر رغم حفظه الدواوين بأكملها رد بمايلي:

«قيل للأصمعي: لم لا تقول الشعر؟

قال: الذي أريده لا يواتيني، والذي يواتيني لا أريده؛ أنا كالمسن أشحذ ولا أقطع». [1]

ومثل هذا السؤال وجه لعبدالله بن المقفع، وكان رده مماثلاً ولعل أحد الأثنين أخذ رده مقتبساً من الآخر، أو أنهما أخذا الرد من ثالث:

«قيل لابن المقفع: لِمَ لا تقول الشعر مع علمك به؟

فقال: أنا كالمسنّ، أشحذ ولا أقطع». [2]

ويجب أن نستدرك هنا أنه ليس كل أفراد المجتمع ينظرون إلى الشعر هذه النظرة، فهناك من لا يرى أن قوله أو سماعه مما يستحسن، بل يرون

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٩٦.

(٢) المصون في الأدب: ٦.

أنه قد يلحق الإثم القائل والسامع، وفي هذا جدل كبير، وممن يرى أن الأجر والإثم يتوقف على فحوى الشعر، وأن الشعر والنثر يشتركان في أن الحكم ليس في نطقهما أو تأليفهما، أو سماع ما قيل منهما، ولكن يتوقف على المعاني التي يحتويانها. ويقول المعضدون للشعر البرّ النزيه وسماعه إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - استمع لكعب ابن زهير في قصيدته المشهورة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول

وأنه تسامح عند سماع النسيب، وهو مدخل معتاد للقصيد في ذلك الزمن، وقبله وبعده.

وقالوا إن رسول الله ﷺ نصّب حسانا شاعراً يذب عن الإسلام، ويحمي بلسانه حوزته، ويهاجم أعداءه، ويهجو هاجيهم، وله من الثواب ما يرجَّى أن يكون عظيماً، فكل ما جاء على نسقه فهو مبرور.

ويروى عن ضرار بن الأزور أنه قال:

«أتيت النبي ﷺ فقلت: أنشد؟

قال: أنشد.

فقلت:

خلعت القداحَ وعزفَ القيا
نِ والخَمْر تصليةً وابتهالاً
وكَرِّي المجبّر في غمرة
وشدّي على المشركين القتالا
فيا ربِّ لا أغتبَنْ بيعتي
فقد بعت أهلي ومالي بدَالا

فقال النبي ﷺ ربح البيع، ربح البيع». [1]

وهذه الرواية وما قبلها، إذا صحتا فهما دليل قوي على أن قول الشعر البرّ وسماعه، وقول الشعر الذي ليس فيه فجور، أو ما يتعارض مع تعاليم الإسلام ومراميها، فإنه مباح، بل إن منه ما ينال عليه صاحبه الأجر العظيم، والثواب الجزل.

(١) الإشراف: ٢٧٢.

وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن يعجبه سماع الشعر، وكان أحياناً يستفسر عن بعضه من الوفود التي يتوقع أن يكون لديها ما قد يفيده فيه، وكأنه يريد أن يلفت النظر إلى ما فيه مما يقوي اللغة على اللحن الذي بدأ ينتشر، وفيه ما يساعد على نقائها وصفائها، ويساعد على معرفة الأنساب والقبائل، أمام التنظيم الجديد، في بعث البعوث، وإقامة الدواوين لتسجيل العطاء والرزق.

قال ربعي بن حراش:

«أتينا عمر في نفر من غطفان، فذكروا الشعر.

فقال عمر: أيّ شعرائكم أشعر؟

قلنا: أنت أعلم يا أمير المؤمنين.

قال: من الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً

وليس وراء الله للمرء مذهب

قلنا: النابغة.

ثم عاد فقال قوله الأول، ثم قال: من يقول:

أتيتـك عـاريـا خلقـا ثيـابي
على وجــل تُظــن بي الظنــونُ
وألفيــت الأمــانــة لم تخنهــا
كــذلــك كــان نــوح لا يخـونُ

قلنا: النابغة.

قال: ثم عاد فقال مثل قوله الأول؛ فقالوا أنت أعلم يا أمير المؤمنين.

فقال: من يقول:

إلا سليمــان إذ قــال الإلٰـه لـه
كن في البرية فاحددها عن الفند

قلنا النابغة.

قال: هذا أشعر شعرائكم». [1]

إن مجلس عمر هذا مجلس قضاء وحكم، ذُكرت المقدمة للقضية فيه، ثم اتبعها عمر بالحكم العادل؛ واختار عمر في ترجيح النابغة على شعراء قبيلته بشعره الحكيم، الذي يتماشى مع روح

(١) الإشـراف: ٣٠٧، ديوان النابغة: ٨٢.

الإسلام، والخلق الرفيع.

وعمر أظهر أنه بحق يمتاز عن من معه في المجلس من الوفود، فبجانب مقامه في الإسلام، ورضاعه لبانه من الرسول ﷺ ومجيئه فيه إماما، أراهم أنه في الشعر خير منهم.

وهكذا يزرع الحاكم الفذّ الهيبة في نفوس رعيته، ويجعلهم يقرون له بالأفضلية عن قناعة وتسليم.

ويأخذ الذين لا يرون في إنشاد الشعر وروايته بأساً دليلاً من فعل الصحابة رضوان الله عنهم، والخبر الآتي يشرح ذلك:

«عن أبي سلمه بن عبدالرحمن:

كان أصحاب رسول الله ﷺ ليسوا بالمنخرقين ولا متماوتين، يتناشدون الأشعار، ويجلسون في مجالسهم، ويذكرون جاهليتهم، فإن أريد إنسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه، فترى حماليقها غضباً». (١)

---

(١) الإشــراف: ١٩١.

في نظر هؤلاء ليس في الشعر بأس إذا لم يلمس أديم الدين أو أسسه، فما دام الأمر في الحدود المقبولة فهو مقبول، أما إذا لمس الشعر أو الحديث العقيدة أو الخلق الحسن فإن الشرر يتطاير من أعينهم، وينقلب أحدهم أسداً ضارياً يحمي حوزة الدين والخلق.

ولهذا انتفض ابن عمر عندما شعر أن أحد رجال الإسلام قد مُسّ حقه، ولُمِس قدره، فرد رداً عنيفاً، خرج به عن طوره:

روى سالم: أن شاعراً امتدح بلال بن عبدالرحمن (كذا) بن عمر في شعره [فقال]:

«وبلال بن عبدالله خير بلال».

فقال له ابن عمر: كذبت، بل بلالُ رسول الله خير بلال». [1]

وهذا الشبل من ذاك الأسد، فعبدالله زجر في هذا المقام وزأر، مثلما زأر أبوه وزجر في مقام

مماثل، والخبر كما يأتي:

سمع عمر منشداً ينشد:

ما ساسنا مثلك يا ابن الخطاب
أبـرّ بـالأقصـى وبـالأصحـاب
بعـد النبي صـاحـب الكتـاب

فنخسه عمر وقال: أين أبو بكر، ويلك؟![1]

وعرف عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه أنه يروي كثيراً من الشعر، وأنه كان «ينشد عن كل شيء، شيئاً، حتى كانوا يرون أنه يقول من كثرة ما يتمثل»[2].

ومن يرى عدم مناسبة روايته، وحفظ القرآن والأحاديث أولى أن يصرف الجهد والوقت لهما، خاصة وأن كثيراً من الشعر في بعض الأزمان يأتي منه من الضرر أو الإثم أكثر مما يأتي من النفع والأجر، والغزل والهجاء والإيغال فيهما، مما

(١) الامتاع والمؤانسة: ٣/ ١٠٣.
(٢) الإشـراف: ١٥٠.

يقوي الحث على هجر الشعر رواية وسماعاً وقولاً.

وقد بلغت الأنفة من الشعر ومهاجمته أن قال بعضهم إنه ينقض الوضوء، وفي النص الآتي قولان متضادان، أحدهما يأخذ شرقاً، والآخر غرباً:

«قال جرير بن حازم:

رأيت محمد بن سيرين توضأ ثم أتى المسجد ليصلي، فقال له ابن اخته يوسف بن عبدالله بن الحارث:

ياخالي إني سمعت ناساً في المسجد يقولون:

إن الشعر ينقض الوضوء؟

قال: فأنشد محمد عشرة أبيات من شعر حسان ابن ثابت من هجائه.

قال جرير: فحفظت من قوله: «ينازعها خالدٌ استه، وتنازعه»

ثم كبّر للصلاة». [1]

---

(١) الإشراف: ١٤٩.

ويغضب شاعر على نفسه ومجتمعه، ويرمي بشرر كالقصر:

«قال أبو سعد المخزومي:

الكلب والشاعر في حالة
يا ليت أني لم أكن شاعراً
هل هو إلا باسط كفه
يستطعم الوارد والصادرا»[1]

وابن سيرين عندما قابل ابن اخته في النص الماضي، وأبان له أن الشعر لا ينقض الوضوء، بل أنشد أبياتاً لحسان فيها هجاء مقذع، استعمل فيه كلمات نابية، ومع هذا فلم يجدد ابن سيرين وضوءه، لأن ابن سيرين لا يرى بأساً في الشعر الذي يسير في خط الإسلام، وأبيات حسان إنما هجا بها أعداء الرسول ﷺ ونظرة ابن سيرين للشعر تتمثل في الرواية الآتية:

«قال يحيى بن عتيق: سمعت محمداً يقول:

(١) المحاسن والأضداد: ٤٣١.

الشعر علم قوم لم يكن لهم علم غيره، وإنما هو كلام، فما كان منه حسناً فهو حسن، وما كان منه قبيحاً فهو قبيح» .[1]

وهذا هو الرأي الذي يقول به كثيرون ممن ينظرون إلى المعنى والمرمى والهدف.

وإذا كان الشعر في نظر بعض النقاد فطرة وسليقة، وإنه لا يكتسب فإن هذا الرأي له من يعارضه معارضة تامة، ويرى أن حفظ الأشعار بغزارة يغرس ملكة الشعر، وهذا رأي يقول به كثيرون، ويرون أنه كلما بكّر الشاب في حفظ الشعر كان حظه من قول الشعر أوفر، وإجادته له أضمن؛ ومن الأقوال التي تتردد على الأفواه بعض الأقوال التي دونت في التراث، ومنها:

قال علي بن محمد التنوخي:

«كان أبي وشيوخنا بالشام يقولون:

من حفظ للطائيين أربعين قصيدة، ولم يقل

(١) الإشـراف: ١٤٩.

الشعر، فهو حمار في مسلاخ إنسان، فقلت الشعر وسني دون العشرين، وبدأت بعمل مقصورتي - يعني التي أولها -:

لولا التناهي لم أطع نهي النهى
أيّ مدى يطلب من جاز المدى[1]

والتنوخي قال الشعر بهذه الطريقة بعد أن حفظ، وكان حفظه خارقاً للعادة، وقد قص عن نفسه قصة تدل على سرعة في الحفظ قليل مثله فيها، يقول عن نفسه:

سمعت أبي ينشد يوماً - ولي إذ ذاك خمسة عشر سنة - بعض قصيدة دعبل الطويلة، التي يفخر فيها باليمن، ويعد مناقبهم، ويرد على الكميت فيها فخره بنزار، فأولها:

أفيقي من ملامك ياظعينا
كفاك اللوم مرّ الأربعينا

(١) معجم الأدباء: ١٢/٧٩، ترجمة التنوخي.

وهي نحو ست مئة بيت، فاشتهيت حفظها لما فيها من مفاخر اليمن، أهلي، فقلت له: «سيدي تخرجها لي حتى أحفظها».

فدافعني، فألححت عليه، فقال:

كأني بك تأخذها فتحفظ منها خمسين بيتاً، أو مئة بيت، ثم ترمي بالكتاب، وتخلقه عليّ؟

فقلت: إدفعها إلي!

فأخرجها وسلمها إلي؛ وقد كان كلامه أثّر فيّ، فدخلت حجرة لي كانت برسمي في داره، فخلوت فيها، ولم أتشاغل يومي، وليلتي بشيء غير حفظها.

فلما كان في السحر كنت قد فرغت من جميعها وأتقنتها، فخرجت إليه غدوة على رسمي، فجلست بين يديه، فقال: هيه، كم حفظت من قصيدة دعبل؟

فقلت: قد حفظتها بأسرها.

فغضب، وقد رآني قد كذبته، وقال: هاتها.

فأخرجت الدفتر من كمِّي، وفتحته، فنظر فيه وأنا أنشد إلى أن مضيت في أكثر من مئة بيت، فصفح منها عدة أوراق وقال:

أنشد من هاهنا.

فأنشدت مقدار مئة بيت أخر، فصفح إلى أن قارب آخرها بمئة بيت، وقال: أنشد من هاهنا.

فأنشدته من مئة بيت منها إلى آخرها.

فهاله ما رآه من حسن حفظي، فَضَمَّني إليه، وَقَبَّل رأسي وعينيّ، وقال:

بالله يابُنَيَّ لا تخبر بها أحداً، فإني أخاف عليك العين. وقال أيضاً: حَفَّظَني أبي، وحفظت بعده من شعر أبي تمام والبحتري سوى ما كنت أحفظ لغيرهما من المحدثين والقدماء مئتي قصيدة؛ لهذا حُقَّ له ولأبيه وشيوخه بالشام أن يقولوا ما قالوا عن الحيوان الذي في جلد حمار![1]

ولا يكمل الحديث عن الشعر إذا لم نشر إلى

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢/٧٨، ترجمة التنوخي.

بعض جوانب سيطرته على المجتمع، فقد كان يأخذ وقتاً غير قليل من سمر الناس يتحدثون عن جوانبه المختلفة، ويأتون بالشواهد على ما فيه وعنه، ويُلَحَّن ويُغَنَّي، وذلك كله مذكور بالتفصيل في كتب الشعر ودواوينه، وموسوعات الأدب وتاريخه.

ومن الجوانب التي اهتموا بها تقسيم الشعر، وتفريع أقسامه وتشعيبها، ودخل في ذلك أمور لم تكن تخطر بالبال لولا أنه جر إليها استمرار العناية بالشعر، ومن هذه ما هو داخل في حدود نظرة الفرد، وما يمليه ذوقه، وقد تكَوَّنَ من ذلك مع الوقت ذوق عام، مثل حكمهم على أمدح بيت قالته العرب، وأهجى بيت، وأغزل بيت، وأصدق بيت وهكذا.

وأدخلوا في الشعر ما يشبه الألغاز، فلا يعرف ما إذا كان الشعر مدحاً أم هجاءاً مثل قول بشار بعد أن خاط له خياط أعور ثوباً، وأنذره أنه لن

يعرف منه أهو قباء أو دواج (قفطان)، فقال له بشار مجاراةً لفعله إنه سيقول فيه شعراً لا يُعرف أهو مدح أم هجاء، ثم أنجز وعده وقال:

خاط لي عمرو قباء	ليت عينيه سواء
قلت شعراً ليس يُدرَى	أمديح أم هجاء

والقصة الآتية تسير على نهج يقرب من هذا في الحيرة في هل الشعر مدح أم هجاء، وفي مجلس ثعلب يبدو أنه لم يتم الاقتناع حول البيت، وطبيعته:

«سأل رجل أبا العباس ثعلب في مجلسه عن قول الشاعر:

مرحبا بالذي إذا جاء جاء الـ
خير أو غاب غاب عن كلِّ خير

فقال: أيهجوه أم يمدحه؟ فقال: بل يهجوه.

وفيه تقديران: أحدهما تفسير محمد بن يزيد قال: يصفه بالغفلة والبلادة، وتقديره مرحبا

بالذي إذا جاء جاء الخير، أي حضوره غيبة، فهذا المصراع في ذكر بلادته وغفلته، ثم قال: أو غاب غاب عن كل خير، معناه أن الخير عندنا، فإذا غاب غاب عن كل خير، لأنه لا يرجع إلى خير عنده.

قال أبو العباس أحمد: إنما وصفه بالحرمان فقط. وتقدير الكلام عنده: مرحبا بالذي إذا جاء غاب عن كل خير، جاء الخير أو غاب، يصفه بالحرمان والشؤم على كل حال»[1].

أما في «البصائر» فالمسؤول أجاب بأن البيت مدح، فخطئ وقيل: «إنه هجو في بسط نظمه، قال: وذلك أن القائل عنى أنه يغيبه عن كل خير، جاء الخير أو غاب»[2].

ومن الأمور التي خُص بها الشاعر، وأشرك الكاتب معه فيه، قول المبرّد:

---

(١) مجالس العلماء: ٣٣١.

(٢) البصـــائر: ٤/ ٢١٩.

«إذا قال الرجل شعراً، أو وضع كتاباً استهدف، فإن أحسن استشرف، وإن أساء استقذف»[(1)].

وهذا قول مصيب كبد الحقيقة، فالنقاد بالمرصاد لمن قال شعراً أو كتب نثراً، ينطلقون في ذلك من وجهة النظر المختلفة، التي يتوقع أن يختلف الناس فيها، فأبو الطيب المتنبي مثلاً له منتقدون، وله معجبون، هؤلاء يهاجمون شعره وينتقدونه، ويبرزون زلاته وأخطاءه، وهؤلاء يدفعون عنه السهام بحجج مقابلة، لأنهم يرون ما يراه أبو الطيب، وينطلقون من منطلقه.

والاستهداف يأتي من زوايا مختلفة، بعضها مضيء وبعضها مظلم، والمضيء هو الذي يأتي لحماية الحقيقة، وقول الحق، والتنبيه لمواقع الزلل، حتى يمكن إصلاح ما يمكن إصلاحه، أو إيقاف متابعة الخطأ وتكراره، وهؤلاء عادة يكون

---

(1) البصائر: ٦/ ٥٠.

أسلوبهم علمياً وهادئاً، ويقوم على أسس مسلَّم بها، ويتجنب في حديثه جارح الألفاظ وقاسيها، والمنفر منها، وغالباً لا يجزم، وإنما يعرض وجهة نظر قامت في ذهنه على أساس. ويكون عنده الاستعداد للتسليم إذا ما رد عليه بما يقنع، مما لم يظهر له في أول الأمر.

أما المظلم فهو الذي يعمد للتجريح، أو المغالطة والتضليل، ومحاولة الاستفزاز، وتحميل الكلمات أكثر مما تتحمله؛ ويكون الدافع لذلك غير شريف، كأن يكون الناقد حاسداً، أو حاقداً، وقد عانى الأدب من مثل هؤلاء، إلا أن مجرد توقع وجود مثلهم يجعل الشاعر والكاتب يحسب لهم حساباً فلا يتهاون في أمر شعره أو كتابته.

والشعراء يستوحون أشعارهم مما حولهم في مجتمعهم، ويصبون ذلك في قوالب تشكلها ثقافتهم، ويُكَيِفُّها مخزونهم الأدبي، وما تطبّعوا به من أساليب أثرت على طريقتهم في قول الشعر،

والشاعر لا يقتصر في استيحائه أفكاره من المواد الزاهية، مثل الروض، والزهر، والسحب، والطيور، والفاتنات، والأوجه الصبوحة، والمناظر الطبيعية الخلابة: من شلالات وينابيع وأنهار، وجبال، وهواء عليل، ونسيم منعش، فقط، لا، إنه يستقي الفكرة النبيلة أحياناً من أمر متدنٍ، ومنظرٍ مزرٍ، ولكنه فَنَّان يستطيع أن يُلبس هذا المنظر غير الجميل ثوباً جميلاً، وذلك المنظر القبيح يحيله إلى منظر ساحر أخَّاذ.

وإليك مَثَلٌ لذلك:

«قال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني:

أنشد الأصمعي:

إذا جاء يوم صالح فاقبلنّه

فأنت على يوم الشقاء قدير

ثم قال: أتدرون من أين أخذتُ هذا؟ أخذته من قول العيارين (الفوضويون):

أكثر من التُّخم، فإنك على الجوع قادر» .[1]

إن هذه الحكمة الثمينة جاءت من هذه الفكرة الرخيصة، وهذه الموعظة الحسنة، جاءت من حديث الجشع المرذول، وهذه السبيكة الذهبية، صُفيّت من تراب ورمل؛ إن الشاعر استطاع أن يحيل هذه الخامة المتروكة إلى تحفة مبتغاه، مثله مثل صانع التحف الخزفية الجميلة، فبلمسة بارعة من أنامله أخرج منها قطعة فنية، قد تأخذها الأيدي بحنان خلال العصور المتتالية، فيأتي يوم تباع فيه بأغلى الأثمان، وتوضع في أشرف الأماكن.

ولأن الشاعر يمشي على أصول فكرية، ولأن الشعراء قد يلتقون في بعض معانيهم، فإنهم لا يرون في هذا مجالاً للاعتراض أحياناً، وأحياناً تقوم حروب كلامية بينهم، يتّهم أحدهم الآخر بأنه أخذ فكره، وحوَّله إلى ما يعطيه الحق أن يتبناه، فيأخذ ابنه بهذا من حجره، وهو أمر لا يَرى

(١) أخبار الظراف: ٩٥، ١٠٧.

السكوت عليه جائزاً.

والنقاد أحياناً يأخذون موقفاً مماثلاً، فأحياناً يتساهلون، ويقولون إن الأمر متعارف عليه، وأن الطرق تتراكب، والجواد يعلو بعضها بعضاً، وقد قال الأولون: ما أرانا نقول إلا معاداً من قولنا مكرورا.

وأحياناً لا يتساهلون، بل يتحاملون، ويتهمون اللاحق بالاعتداء على بنات أفكار السابق، ويتخذون ذلك دليل نضوب معين الذهن، وبرهان ضحالة التفكير. وقد يقتسرون التهمة اقتساراً متناهياً، فيُرى منهم التعسف والقسوة، وهضم الحق.

وسوف نعطي مثلاً من التراث عمن لا يرى عيباً في تماثل الأفكار، وأن الأمر تحكمه طبيعة تجيزه، وهي التي تحكمه في طريق سيره:

قيل لبعض علماء اللغة:

«أرأيت الشاعرين يجتمعان على المعنى الواحد

في لفظ واحد؟

فقال: عقول رجال توافت على ألسنتها». [1]

هذه نتف متفرقة عن الشعر والشعراء، تعطي لمحة عنهم، تختلف عن الدراسة المنتظمة في هذا المجال؛ وهدف هذه الدراسة اجتذاب الشباب إلى تراثهم، وإلى ما فيه من ملامح عن بعض مناحي الفكر، ومصادر هذه الملامح، وكيف يمكن للإنسان إذا ما رجع إلى كتب التراث أن يخرج ببعض الأفكار التي لم يكن يتوقع أنها متوافرة فيها.

وهي خطوة لدراسة الشعر الجادة، ومعرفة منزلته في الأدب العربي، وأثره على الناس، وهو أثر عميق يصل أحياناً إلى ما لا يتخيل أنه يصل إليه، فمثلاً، هل يخطر ببالنا أن خليفة ممن صحب الرسول ﷺ أوقف حدًّا من حدود الله، من أجل أبيات قالها شاعر في حال نفسية مؤثرة:

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٩٨.

«قدم حمزة العدوي السارق إلى معاوية، فأمر بقطع يده، فقال:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها
بعفوك من عار عليها يشينها
فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها
إذا ما شمال فارقتها يمينها
فلو قد أتى الأخبار قومي لقلصت
إليك المطايا وهي خوص عيونها

فأبطل الحدّ عنه، فهو أول حدّ أُبطل في الإسلام».(١)

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥١١.

الفهـــارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٤٠٣
(٢) فهرس المواضيع حسب الأبجدية ٤٠٤
(٣) فهـرس الأسـماء ٤٠٥
(٤) فهـرس الأمـاكـن ٤٠٧
(٥) فهـرس المراجع والمصادر ٤١٦
(١) فهرس الأبيات الشعرية ٤٢٢

(١)

فهرس المواضيع حسب ورودها

* المقـــدمـة ٣
* حـلم الكبـير ٢٤
* حسـن التعـليل ٥٢
* الحـــج ٨٣
* مكـة في المـاضي ١١٨
* رســول الكـبر ١٤١
* تآخي العقل مع التجربة ١٧٦
* مقـــلـب ٢١٠
* رقــة الحــاكـم ٢٥١
* النحل يقضم الحقيقة ٢٧٥
* أشـكروا تـزادوا ٣٢٨
* مع الشعراء في شعرهم ٣٦٩

(٢)

فهرس المواضيع حسب الأبجدية

* أشـكروا تـزادوا ٣٢٨
* تآخي العقل مع التجربة ١٧٦
* الحـــج ٨٣
* حسـن التعـليل ٥٢
* حـلم الكبـير ٢٤
* رســول الكـبر ١٤١
* مع الشعراء في شعرهم ٣٦٩
* رقــة الحــاكـم ٢٥١
* مقـــلـب ٢١٠
* مكـة في المـاضي ١١٨
* النحل يقضم الحقيقة ٢٧٥

(٣)
فهرس الأسماء

(ا)

إبان بن سعيد بن العاص : ٣١٧
إبراهيم عليه السلام : ٣٣٣
إبراهيم بن المهدي : ٤١ ، ٤٢ ، ٢٥٩
إبليس : ٤٦ ، ١٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
يوم أجنادين : ٣٠٩
أحمد بن حنبل : ٢٤٨ ، ٢٤٩
أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي : ١٣ ، ١٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
أحمدُ النَّبيَّ : ٢٧٠
أحمد بن يحيى (أبو العباس) : ٣٨٨
الأحنف بن قيس : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٢٣٤
الأخطل : ٢٩٩ ، ٣٩٠
ابن آدم : ٢٤٧ ، ٣٥١
الأزد : ١١٦ ، ١٩٥
ابن الأزرق : ١٣
الأزهري : ٢٧٨
ابن اسحاق : ٢٨١
اسحاق بن إبراهيم الحنظلي : ٢٧٩
اسحاق بن حسان : ٣٦٦
اسحاق بن راهوية : ٢٧٩
أبو أسامة : ٢٩٤ ، ٢٩٥
أسامة بن زيد : ٣٤٣
أسامة بن منقذ : ١٤٧ ، ١٤٩
بنو إسرائيل : ٣٣٢
الأشراف : ١٢٦
أشعب : ٢٢٧ ، ٢٤٥
الأصفهاني : ١٦
الأصمعي : ٣٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٩٢ ، ٤١١
ابن الأعرابي : ٣٦٢
الأعمش : ٦٢
أفلاطون : ١٩٢
أمرؤ القيس : ٢٢٦ ، ٣٨١
بنو أمية : ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠
ابن أمية : ٣١٤
أنس بن مالك : ١١٥ ، ٣٠٦
الأنصار : ٣١١ ، ٣١٢
أنوشروان : ٢٧٣
إياس : ٢٠٣
أيوب عليه السلام : ٢٦١
أبو أيوب الموDياني : ٣٠٢

(ب)

باهلة : ٧٥ ، ٣١٧
البحتري : ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٤٠٥
يوم بدر : ٢٢٣ ، ٣١١
برحي (تمر) : ٩٥
البرلمان المصري : ٢١٤
بزرجمهر : ٢٦٣

بشار : ٤٠٦ ، ٤٠٧
بشر بن الحارث : ١٠٣
يوم البغل : ٢٨٧
بكتاي الأزدري : ١٢٥
أبو بكر الصدّيق : ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٣٩٩
أبو بكر بن إبراهيم بن عتاب : ٢٤٩ ، ٢٥٠
بلال بن عبدالرحمن بن عمر : ٣٩٨
بلال بن عبدالله : ٣٩٨
بلال بن رباح : ٣٩٨
بيشق الشيخي : ١٢٥
البيهقي : ١٣

(ت)

ابن تمام التيمي : ١٤ ، ١٧
أبو تمام : ٤٠٥
تميم الداري : ٢٢١ ، ٢٢٢
بنو تميم : ٣٧٢
التنوخي : ١٧

(ث)

الثعالبي : ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦
ثعلب ٣١٨هـ، أبو العباس أحمد : ٤٠٧ ، ٤٠٨
ثقيف :

(ج)

جابر بن عبدالله : ٣٤١
الجاحظ : ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٤٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩١
جالينوس : ٧٢
ابن الجراح : ١٤
جرير بن حازم : ٤٠٠
الجزيري : ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٩
أبو جعفر بن إسحاق بن البهلول القاضي التنوخي : ١٥٥
جعفر بن محمد : ٢٦١ ، ٣٥٠
يوم الجمل : ٢٨٧
جميلة الموصلية : ٩٢
الجنيد : ٢٠٢
الجهشياري : ١٤
الجواليقي : ١٢
ابن الجوزي : ١١ ، ١٣٨

(ح)

حارثة بن قدامة : ٢٣٤
الحارث بن هاشم المخزومي : ٣٠٨ ، ٣٠٩
ابن أبي حازم : ٢٨١
الحجاج بن يوسف : ١٦٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٢٢ظ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ ، ٣٥٥
حذيفة بن بدر الفزاري : ٣٥٥
ابن حرب : ٣١٤
الحزامي : ٦٧
حسان بن ثابت : ٣٩٣ ، ٤٠٠ ، ٤٠١
أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار ابن سليمان الفارسي : ١٥٠
الحسن البصري : ٣٤ ، ٥٧ ، ٥٨
الحسن بن سهل : ٢٢٦ ، ٢٢٧
الحسن بن عبدالرحمن : ٨١

الحسن بن عبدالله العسكري اللغوي : ٣٧٣هـ
الحسن بن علي : ٢٩٧
الحسن أبو علي الخراساني : ١٦٧
الحسن بن عليل العنزي : ٢٨٢ ، ٢٨٣
أبو الحسن المدائني : ٢٨٥
الدكتور حسن نصيف : ٢١٧
الحسن بن وهب : ٢٤٩ ، ٢٥٠
الحسن بن زيد : ٣٧٣ ، ٣٧٤
الحسين بن علي : ٢٩٧ ، ٢٩٨
خط حلوان : ٢١٤
الحلوة (تمر) : ٩٦
حماد : ٢٨٥
أم حمام (تمر؛ : ٩٦
حمد الجاسر : ١٤٠
حمزة العدوي : ٤١٥
ابن حميد : ٣٠٢
الحميدي : ١٣
بنو حنيفة : ١٦٦
ابن حيان : ١٤
أبو حيان التوحيدي : ١٨٩ ، ١٩٢

(خ)

خالد : ٤٠٠
الخالدين : ٣٧٩
الخالع : ٣٧٧
ابن خلدون : ٢٧٦
الخليل بن أحمد : ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٨٩، ٣٩٠
يوم الخندق : ٢٩٢

(د)

ابن رأب : ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
داوود عليه السلام : ٣٣٣
آل داوود : ٣٤٥
أبو داوود : ٣٥٤
الدجال : ٢٩٥
أبو الدرداء : ٣٧
دعبل بن علي : ١٥٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
الدميري : ١٧
ابن أبي الدنيا : ١٣ ، ١٦٧

(ذ)

أبو ذر : ٤٥ ، ٤٦

(ر)

ربعي بن حراش : ٣٩٥
ربيعة : ٢٢٣
الرسول ﷺ : ٢٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ١٠٩ ، ١٧٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٤
الرقبان : ٣٧٢
الروثانة (تمر) : ٩٦
الرمان : ٣٣٠
الرياشي : ٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٨٣
أبو رياش اليمامي : ٣٧٢ ، ٣٧٣

(ز)

الزبير : ٣٨ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

أبو الزعيرة : ٦٤
الزقيـــان : ٣٧٢
زياد بن أبيه : ٢٣١ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
زياد بن عبيدالله الحارثي : ٢٢٧ ، ٢٤٤
زيد بن ثابت ، ٣١١ ، ٣١٢
الصاحب زين الدين بن حنا : ١٣٠ ، ١٣١
زينب بنت سليمان المنصور : ٢٩٥

(س)

سالم مولى ابن عمر : ٣٩٨
سالم بن عبدالله بن عمر : ٣٢٤
سالم بن قتيبة : ٣٢٦
سبط ابن الجوزي : ١٠٦
السجستاني : ١٦
بنو سعد بن زيد بن مناة بن تميم : ٣٧٢
أبو سعد المخزومي : ٤٠١
سعيد بن جبير : ٢٩٤
سعيد بن المسيب : ١١٧
سعيد بن معاذ : ٢٩١
السـفاح : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٩٥
سفيان الثوري : ٢٠٧
أبو سفيان : ٣٢ ، ٢٣١ ، ٣١١ ، ٣١٧
سكينة : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
أم سلمة : ٢٢٣
أبو سلمة بن عبدالرحمن : ٣٩٧
سلمة بن مجاهد : ٣٠٢
سليمان بن داوود : ٢٦١ ، ٣٣٣ ، ٣٩٦
القاضي سليمان بن أسود الغافقي : ١٩٣ ، ١٩٤
سليمان بن عبدالملك : ١٧١ ، ١٧٣
سـماك : ٢٩٤
أبو حاتم سهل بن محمد الجشمي : ٤١١
سويبط بن حرمل بن عبدالغري : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
سيف الدولة بن حمدان : ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨

(ش)

شبيب بن شيبة : ٢٠٥
شريك بن الأعور : ٣١٣
الشرقي بن القطامي : ٢٨٥
شعبة بن علقمة التميمي : ١١٩
الشعبي : ٣٤ ، ٤٩
شعيب بن حرب : ٧٥ ، ٧٦
الشقراء (تمر: ٩٦
أبو الشمقمق : ١١٥ ، ١١٦
الشهاب بن حجر : ١٣٣
الشوكري : ٢٨٣ ، ٢٨٥
شـيطان : ٢٤٦
الشظمي : ٣٧٩ ، ٣٨٠

(ص)

ابن صخر : ٣١٤
صعصعة : ٧٩
الصولي : ١٢
أبو العبنس الصيمري : ٣٨٤ ، ٣٨٥

(ض)

ضرار بن الازود : ٣٩٤
ضرار بن القعقاع : ٣٩

(ط)

الطائيون : ٤٠٢
الطرطوشي : ١٣
طلحة : ٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٠
ابن أبي طاهر : ٣٠٢
أبو الطيب اللغوي : ٢٧٩
أبو الطيخان القيني : ١٦٤

(ظ)

ابن ظفر : ١٧

(ع)

عامر الشعبي : ٣٥
عائشة : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢
أبو عياد : ٧٩
أبو العباس : ٢٢٧
العباسيون : ٢٩٤ ، ٢٩٥
أبو يحيى عبدالأعلى بن حماد المعروف بالنرسي : ٣٥٠
العبد العجلاني : ٣٩٠
عبدالعزيز بن عبدالله : ٢٧١
عبدالله بن البواب : ٤٠
عبدالله بن جعفر : ٢٩٧ ، ٢٩٨
عبدالله بن خالد بن أسيد : ١٢٩
عبدالله بن داوود : ٢٠٧
عبدالله بن الزبير : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٩٩
عبدالله بن صفوان : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠
عبدالله بن عباس : ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
عبدالمطلب : ٢٨٢
عبدالله بن عمر : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٩٧ ، ٣٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٤
أبو عبدالله بن فنن : ١٦٩
عبدالله بن المبارك : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩
عبدالله بن مسعود : ١١٤ ، ١١٥
عبدالله بن المعتز : ٢٨٢
عبدالملك بن حميد : ٣٠٢
عبدالملك بن مروان : ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٩٠
عبيد بن حرب بن أمية : ٣١٠
عبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب : ٢٢٥
عبيدالله بن العباس : ٢٢٦
أبو عبيدة : ٣٢٧
عتاب بن أسيد : ٣١٧
العتبي : ٦٣
ابن عتيق : ٢٨٧ ، ٢٨٩
عثمان بن عفان : ١٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٠٦ ، ٣٦٤
عدي بن أرطأة : ٣٥٩ ، ٣٦٠
عدي بن كعب : ٢٩٨ ، ٢٩٩
عطاء الملط : ٢٨٥
عكاظ : ٣ ، ٢٠
عكرمة بن أبي جهل : ٣٠٨
أبو العلاء أشعب : ٢٢٨
علي بن أبي طالب : ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٥ ، ٣٦١
علي بن محمد التنوخي : ٤٠٢
علي بن عبدالله بن وصيف الناشيء : ٣٧٧ ، ٣٣٧هـ

علي بن عبيد البزوري : ٢٨٧
عمرو بن الأهتم : ٣١
عمرو بن جرموز : ٣٨
عمر بن حيان الضرير : ٨٩
عمر بن الخطاب : ٥٩ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٦٢، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٩
عمران بن حطان : ٣٦٦
أبو عمر الزاهد : ٢٧٩
عمر بن شبة : ١١٥ ، ١٥٦
عمرو : ١٤ ، ٣٥٩
عمرو بن العاص : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٣١١
عمرو بن عبدالعزيز : ٣٩، ٤٠، ٥٧، ٥٨، ٥٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٣٠٢، ٣٥٩
عمرو بن مسعود : ١٥٩
عمر بن هبيرة : ٣٨
عمرو بن قمية بن قيس بن ثعلبة : ١٥٢
عمرة بنت بني زهرة : ٣١٨هـ
ابن العميد : ٣٠٣، ٣٠٥
عوانة : ٢٨٢
ابن عون : ٤٤ ، ٤٥
أبو العيناء : ٢٤٩ ، ٢٨٢ ، ٣٨١، ٣٨٢

(غ)

غالب : ٢٢٤
غرارة : ٢٨٢
غطفان : ٣٩٥
الغمر بن عجلان : ٣١١

(ف)

الفاكه بن المغيرة : ٢٣٣
أبو الفرج الأصفهاني : ١٧
الفرزدق : ٣٨٨
الفرس : ٣٣٠
الفراعنة : ٣٣٠
فرعون : ٣٣٢
أحمد بن فضلان : ١٨
الفضل بن الربيع : ٧٨
أبو الفضل بن العميد : ٣٠٣

(ق)

القادر بالله أحمد : ٢٦٧ ، ٢٦٨
ابن قتيبة : ١٠ ، ٢٩٤
قريش : ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢
ابن القرِّية : ٢٠٠ ، ٢٠١
القطارة (تمر) : ٩٦
قيس بن عاصم المنقري : ٢٩

(ك)

كثيِّر : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١
كسرى : ٧١ ، ١٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
الكسعي : ٢٣٦
كعب بن زهير : ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣
ابن كعب الأنصاري : ٧٨
ابن الكلبي : ٢٨٥
الكميت : ٤٠٣
كيسان بن المعرّف النحوي أبو سليمان الهجمي : ٢٩٠

(ل)

لقمان الحكيم : ٤٥ ، ٣٣٣

لقيط المحاري : ٢٨٥
أبو الحسين لنكك : ٣٧٢ ، ٣٧٣
بنو ليث : ١٦٢
الليث بن المظفر بن نصر بن سيار : ٢٨٧

(م)

الماوردي : ١٢
المأمون : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١
مالك بن أسماء بن خارجة : ٣٥٥
المبرد : ٣٠٨
المتنبي : ٤٠٩
المتوكل : ٣٥٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥
المجلة العربية : ٣ ، ٢٠
محمد : ١٩٤
محمد بن سيرين : ٢٢٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١
محمد بن عباد : ٢٦٠
أبو بكر محمد بن عبدالملك بن زهر الأندلسي (الوزير ١٥١
محمد بن عبيد : ٢٩٤
محمد بن عمر بن لبابة : ١٩٣
محمد بن يزيد : ٣٠٧
محمد بن يونس : ٣٢٢
مخرمة بن نوفل الزهري الضرير (أبو مسور) : ٢١٩
أبو مخنف : ٢٨٥
مسلم بن خالد الملكي : ٣٥٠
مصعب بن الزبير : ٣٨
المطلب ، غلام أبي جهل : ٢٣٩ ، ٤٤٠
معاوية بن أبي سفيان : ٣١ ، ٣٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤١٥
معروف الكرخي : ٣٦
أبو مقاتل الضرير : ٣٧٣ ، ٣٧٤
ابن مقبل : ٣٩٠
المقدسي : ١٣
عبدالله بن المقفع : ٣٩٢
أبو جعفر المنصور : ٢٦١ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
المهدي : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥
المهلب بن أبي صفرة : ٣٢ ، ٣٣
أبو موسى الأشعري : ٣٣٢
موسى عليه السلام : ٣٣٢

(ن)

النابغة : ٣٩٥ ، ٣٩٦
الناشيء : ٣٧٧
ناصر الدين عشاير : ١٣٣
نزار (القبيلة : ٤٠٣
نعيمان : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣
نمير : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩
أبو نواس : ٣٥٦
نوح عليه السلام : ٣٣٣ ، ٣٩٦
ذو النون المصري : ١١١
النيسابوري : ١١

(هـ)

الهادي : ٧٢
هارون الرشيد : ٧٧ ، ٧٨

بنو هاشم : ٢٨٣ ، ٢٩٤
ابن هذيل : ١٧
أبو هريرة : ٣٤١ ، ٣٥١
هشام بن حسان : ٢٢٤
هشام بن عبدالملك : ٣٠٣
هند بنت عتبة : ٢٩٩ ، ٢٣١
الهيثم بن الأسود العريان : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
الهيثم بن الأسود النخعي : ٣٥٥

(و)

الواثق : ٢٦٦
الوشاء : ١٧
وكيع : ٢٢٣
الوليد بن عبدالملك : ٣٠٢ ، ٣٢٥
الوليد بن يزيد بن أبي مسلم : ٣٢٥
الونانة : ٩٦
وهيب بن زمعة : ٢٢٣

(ي)

يحيى بن الحسين الطالبي : ٣٥٣
يحيى بن خاقان : ٢٢٧
يحيى بن عتيق : ٤٠١
وقعة اليرموك : ١٠٨
يزيد بن عبدالملك : ٣٠٣
يزيد بن معاوية : ٣٠٩ ، ٣١٠
يزيد بن معمر السلمي : ٥٦
يزيد بن المهلب بن أبي صفرة : ٥٩ ، ٦٠
دار اليمامة : ١٤٠
اليهود : ٢٩١
يوسف عليه السلام : ٢٦١
يوسف بن عبدالله بن الحارث : ٤٠٠
يونس بن حبيب : ١٦٧ ، ٢٢٥
يوم الفتح : ٢٩١
اليونان : ٣٣٠

(٤)
فهرس الأماكن

الأندلس: ١٩٤
باب السلام: ١٣٣
باب العمرة: ١٣٤
البحرين: ٣١٧
البصرة: ٩٥، ٢٨٢
تنيس: ٢٢٣
جدة: ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٢٨
الحجاز: ٢٨٣
الحجر: ٨٦
حلب: ٣٧٧
خراسان: ٢٧٩
خيبر: ٢٩١
دمشق: ١١٠، ٢٧١، ٢٧٢
الرياض: ١١٢
سرض رأى: ٣٥٠
سُرَّ مَنْ رأى: ٣٥٠
الشام: ٩٩، ١٣٢، ٢٢١، ٤٠٢، ٤٠٤
صفين: ٣٠٥
الصين: ٣٣٠
الطائف: ٣٣٠
العراق: ٩٩، ١١٧، ١٣٢، ١٦٢، ٢٣٧، ٢٩٦، ٣٠٩، ٣٢٠
عرفة: ١١١
العروة الوثقى: ١٣٠
العقير: ٨٩
عمان: ١٩٥، ٢٦١
عنيزة: ٨٩، ٩٥
القاوسان: ١٩٥
القصيم: ٩٦، ٢١١
الكعبة: ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ٢٨٣
المدينة: ٢٤٤، ٢٨٩، ٢٩٧، ٣١١
مرو: ١٠٧
المسجد الحرام: ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١
المسعى: ١٢٧، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢
مصر: ٩٩، ١٣٦، ٢١٦، ١٣٩
مكة: ٨٩، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٩٧، ٢٢٧، ٣١٧
منى: ٨٩
الموصل: ٩٢، ٩٤، ٩٦
نجد: ٢٣٢
نجران: ٣١٧
الهند: ٢٤٣، ٢٧٣، ٣٣٠
وادي القرى: ٣١١
اليمن: ٣٣٠، ٤٠٣، ٤٠٤

(٥)
فهرس المراجع والمصادر

١ - *أحسن ما سمعت*
لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي
شرح وتعليق : أحمد عبدالفتاح تمام وسيد عاصم
مؤسسة الكتاب الثقافية ، الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م

٢ - *أخبار الحمقى والمغفلين*
للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي
دار الآفاق الجديدة - بيروت
الطبعة الأولى : ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

٣ - *أخبار الظِّراف والمتماجنين*
للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي
تحقيق : عبدالأمير مهنّا
دار الفكر اللبناني ، الطبعة الأولى : ١٩٩٠م

٤ - *أخلاق الوزيرين*
لأبي حيان علي بن محمد التوحيدي
تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي
دار صادر - بيروت ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

٥ - *آداب الملوك*
لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
تحقيق : الدكتور جليل العطية
دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى : ١٩٩٠م

٦ - *أدب الخواص في المختار من بلاغات قبائل العرب ، وأخبارها وأنسابها وأيامها*
للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض

٧ - *أدب الدنيا والدين*
لأبي الحسن الماوردي
شرح وتعليق : محمد كريم راجح - دار اقرأ - بيروت
٨ - *كتاب الأذكياء*
لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي
لجنة إحياء التراث العربي
دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الرابعة : ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م
٩ - *الإشراف في منازل الأشراف*
للإمام أبي بكر عبدالله محمد بن أبي الدنيا
تحقيق : الدكتور نجم عبدالرحمن خليفة
مكتبة الراشد : الرياض ، الطبعة الأولى : ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م
١٠ - *الإعجاز والإيجاز*
لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
تخريج وحواشي : محمد ألتونجي
دار النفائس ، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م
١١ - *كتاب الأغاني*
لأبي الفرج الأصفهاني
تحقيق : لجنة من الأدباء
دار الثقافة - بيروت ، الطبعة السادسة : ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م
١٢ - *أنباء نجباء الأبناء*
لحجة الدين محمد بن ظفر
تحقيق : إبراهيم يونس - دار الصحوة للنشر : ١٩٩١م
١٣ - *الإماء الشواعر*
لأبي الفرج الأصفهاني
تحقيق : الدكتور جليل العطية
دار النضال ، الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

١٤ - *كتاب الأمالي*
لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي
دار الآفاق الجديدة - بيروت ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م

١٥ - *كتاب الإمتاع والمؤانسة*
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

١٦ - *البخلاء*
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي
تحقيق : محمد إبراهيم سليم
مكتب ابن سينا - مصر الجديدة - القاهرة

١٧ - *كتاب البخلاء*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : أحمد العوامري بك وعلى الجارم بك
مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م

١٨ - *بدائع السلك في طبائع الملك*
لأبي عبدالله محمد بن الأزرق الأندلسي
تحذيق : الدكتور محمد بن عبدالكريم - الدار العربية للكتاب

١٩ - *البرصان والعرجان والعميان والحولان*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الاعتصام للطبع والنشر - القاهرة - بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢

٢٠ - *البصائر والذخائر*
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق : الدكتورة وداد القاضي
توزيع دار الجبل - بيروت
دار صادر ، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٢١ - *كتـــاب البغـــال*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تقديم : الدكتور علي بوملحم
منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت - الطبعة الأولى : ١٩٩١م

٢٢ - *بهجة المجالس ، وشحذ الذهن والهاجس*
للإمام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي
تحقيق : محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت

٢٣ - *البيـــان والتبـــيين*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
الطبعة الأولى : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٢٤ - *تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون*
لخليل بن أيبك الصفدي
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

٢٥ - *كتـــاب التـــوابين*
لموفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي
تحقيق : عبدالقادر الأرناؤوط
دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م

٢٦ - *كتـــاب التطفـــيل*
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي
تحقيق : الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان
الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٢٧ - كتاب *تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر في أخلاق الملك ، وسياسة الملك*
لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي
تحقيق : محيي هلال السرحان ، والدكتور حسن الساعاتي
دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ، ١٩٨١م

٢٨ - *تحـــفة الـــوزراء*
لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
تحقيق : حبيب علي الراوي ، والدكتورة إبتسام مرهون الصفار
مطبعة العاني - بغداد ، ١٩٧٧م
٢٩ - *تـــاريـــخ بغـــــداد*
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي
دار الكتب العلمية - بيروت
٣٠ - *حيـــاة الحيـــوان الكـــبرى*
لكمال الدين الدميري
دار إحياء التراث الإسلامي - بيروت - لبنان
٣١ - *كتـــاب الحيـــوان*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
دار إحياء التراث ، الطبعة الثالثة : ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م
٣٢ - *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*
لعبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري
أعده للنشر : الشيخ حمد الجاسر
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض
الطبعة الأولى : ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م
٣٣ - *ديـــوان النـــابغـــة*
تحقيق : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٧٦م
٣٤ - *الذهب المسبوك في وعظ الملوك*
لأبي عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي
تحقيق : أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

والدكتور عبدالحليم عويس
عالم الكتب ، الطبعة الأولى : ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

٣٥- *ربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار*
للإمام محمد بن عمر الزمخشري
تحقيق : الدكتور سليم البعيمي

٣٦- *رحلة الشتاء والصيف*
لمحمد بن عبدالله الحسيني الموسوي ، الشهير بكبريت
تحقيق : محمد سعيد الطنطاوي
الطبعة الثانية - بيروت : ١٣٨٥هـ

٣٧- *كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة*
لأبي الحسين ابن محمد ، المعروف بابن الفراء
تحقيق : الدكتور صلاح الدين المنجد
دار الكتاب الجديد - بيروت ، الطبعة الثانية : ١٩٧٢م

٣٨- *سراج الملوك*
لمحمد الوليد الطرطوشي
تحقيق : جعفر البياتي — رياض الريس ، للكتب والنشر

٣٩- *شرح أدب الكاتب*
لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي
دار الكتاب العربي - بيروت

٤٠- *صحيح سنن الترمذي*
لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي
نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج
الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٤١- *صحيح سنن أبي داود*
للإمام أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي
نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

٤٢ - صحيح مسلم
للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد -
الرياض ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

٤٣ - *العقد الفريد*
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإيباري
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م

٤٤ - عقلاء *المجانين*
لأبي القاسم الحسن محمد بن الحسن بن حبيب النيسابوري
دار البصائر - الطبعة الثانية : ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

٤٥ - كتاب *العمر والشيب*
للإمام الحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
تحقيق : الدكتور نجم عبدالرحمن خلف
مكتبة الراشد - الرياض ، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

٤٦ - عين *الأدب والسياسة* ، وزين *الحسب والرئاسة*
لأبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل
دار الكتب العلمية - بيروت : ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

٤٧ - عيون *الأخبار*
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
دار الكتب العلمية - بيروت

٤٨ - *الفرج بعد الشدة*
لأبي علي المحسن بن علي التنوخي
تحقيق : عبود الشالجي
دار صادر - بيروت : ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

٤٩ - *قوانين الوزارة*
لأبي الحسن الماوردي
تحقيق : الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد
والدكتور محمد سليمان داوود
مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية
الطبعة الثالثة : ١٤١١هـ/ ١٩٩١م

٥٠ - *الكشكول*
لبهاء الدين العاملي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
طبع بدار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه

٥١ - *اللطائف والظرائف*
لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
دار المناهل ، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

٥٢ - *لطائف المعارف*
لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
تحقيق : محمد إبراهيم سليم
دار الطلائع : ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م

٥٣ - *مجالس ثعلب*
لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب
تحقيق : عبدالسلام هارون
دار المعارف ، الطبعة الخامسة

٥٤ - *مجالس العلماء*
لأبي القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي
تحقيق : عبد السلام محمد هارون
« سلسلة التراث العربي » ، الكويت : ١٩٦٢م

٥٥- *المجتـــــني*
لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد
دار الفكر ، الطبعة الثانية : ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

٥٦- *المحاســن والمســاوىء*
لإبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت : ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

٥٧- *المحاســن والأضــداد*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تقديم : الدكتور عاصم عيتاني
دار إحياء العلوم - بيروت
الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٥٨- *محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء*
للراغب الأصفهاني
إختصار : إبراهيم زيدان
دار الآثار - بيروت

٥٩- *كتــاب المحــن*
لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التيمي
تحقيق : الدكتور عمر سليمان العقيلي
دار العلوم للطباعة والنشر : ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

٦٠- *المستطرف في كل فن مستظرف*
لشهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي
تحقيق : الدكتور مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية - بيروت
الطبعة الثانية : ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٦١- *المصــون في الأدب*
أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري

تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
التراث العربي ، إصدار وزارة الإرشاد والأنباء
الكويت : ١٩٦٠م

٦٢- *معجـم الأدبـاء*
لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي
دار إحياء التراث العربي - بيروت

٦٣- *كتاب المعمرين من العرب*
لأبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني
تحقيق : محمد إبراهيم سليم
دار الطلائع

٦٤- *مغامرات سفير عربي في اسكندنافيا منذ ١٠٠٠ عام*
لأحمد بن فضلان
جمع وتقديم : أحمد عبدالسلام البقالي
مطبوعات تهامة - جدة ، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٦٥- *من اسمه عمرو من الشعراء*
لأبي عبدالله محمد بن داوود بن الجراح
تحقيق : الدكتور عبدالله بن ناصر المانع
مطبعة المدني بمصر ، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م

٦٦- *الموشّـى ، أو الظـرف والظرفاء*
لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء
دار صادر - بيروت

٦٧- *نزهة الجلساء في أشعار النساء*
للإمام جلال الدين السيوطي
تحقيق : عبداللطيف عاشور - مكتبة القرآن

٦٨- *النصيحـة : (قابوس نامه)*
للأمير عنصر المعالي كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن

وشكمير بن زيار
تعريب : محمد صادق نشأت والدكتور أمين عبدالمجيد بدوي
الطبعة الأولى : ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م

٦٩- *نصيحـــة المـــلوك*
لأبي الحسن الماوردي
تحقيق : الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد
مؤسسة شباب الجامعة - اسكندرية : ١٩٨٨م

٧٠- *كتاب الوزراء والكتاب*
لأبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري
تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي
نشر : مصطفى البابي الحلبي - مصر
الطبعة الثانية : ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م

(٦)
فهرس الأبيات الشعرية

(ا)

خاط لي عمر وقباء	ســـــواء	٤٠٧

(ب)

أحب مكارم الأخلاق جهدي	أعــــابـــا	٢٥
ليست الأحلام في حال الرضى	الغضب	٤٨
وقائلة لما رأت شيب لمتي	بخضــاب	١٤٧
خضبت الشيب لما كان عيبا	يعـــابـــا	١٥١
فغض الطرف إنك من نمير	كـــلابـــا	٣١٨
ذهب الشباب فما له من عودة	المهـــرب	١٧١
فارحل إلى حلب فالخير منحلب	حـــلــب	٣٧٧
ألم تر أني كلما جئت طارقا	تطـــيــب	٣٨١
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	مـذهـــب	٣٩٥
ما ساسنا مثلك يابن الخطاب	الأصحاب	٣٩٩

(ت)

إذا نطق السفيه فلا تجبه	السكوت	٢٦
هنيئاً مرئياً غير داء مخامر	استحلت	٣٦
إني نظرت إلى المرآة إذا جُليت	رأتــــا	١٥١
سأشكر عمرا إن تراخت منيتي	جلـــت	٣٥٩

(ج)

تزوجت أبغي قرت العين أربعا	أتـــزوج	٢٣٧

(د)

ونور الشيب مكروه وتهوى	العبــــاد	١٤٨

بكرت تنظر شيبي	عيـــد	١٤٩
أشد من نفسي وما تشتد	تعـــد	١٥٥
حنتني حانيات الدهر حتى	لصـيد	١٦٤
أصبحت أنهض مثل الطفل معتمدا	يعتمـد	١٦٩
تصد ودارها صدد	تعـــد	٣٧٩
إلا سليمان إذْ قال الإله له	الفنـــد	٣٩٦
لولا التناهي لم أطع نهي النهى	المـــدى	٤٠٣
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي	يحـــيد	١٧٤
شكرتك إن الشكر للعبد نعمة	زائـــدة	٣٤٤

(ر)

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة	الأجـــر	٧٣
يارب قد حلف الأقوام واجتهدوا	النـــار	٧٦
إذا حججت بمال أصله دنس	العـــير	١١٥
سوف أنبيك بآيات الكبر	السـحر	١٥٧
معاذ إلهي لست سكران يافتى	الكـــبر	١٦٦
فما روضة بالحزن طيبة الثرى	عـــرارها	٣٨١
الكلب والشاعر في حالة	شـــاعـرا	٤٠١
مرحبا بالذي إذا جاء جاء الخير	خـــير	٤٠٧
إذا جاء يوم صالح فاقبلنه	قـديـر	٤١١
فإني وإن بالغت في الشكر والثنا	العجـــز	٣٤٤
إذا كان شكري نعمة الله نعمة	الشـــكر	٣٤٨
شـكر الإلـه نعمـة	يشـــكره	٣٤٨
فما تعرف الأفهام غاية مدحه	تـــدري	٣٥٦
سعيت ابتغاء الشكر فيما صنعت بي	الشـاكـر	٣٥٧
فلو كان للشكر شخص بيّن	النـاظـر	١٥٨

(س)

يا أيها المشتكي عكلا وما جرمت	إبـــآس	٣٨٨

(ض)

أرى الليالي أسرعت في نقضي	بعضـــي	١٥٤

(ع)

أصبح الشيب في المفارق شاعا	قنـاعــا	١٥٣
أليس ورائي إن تراخت منيتي	الأصابع	١٦٥

(ف)

لأشكرنك معروفا هممت به	معـروف	٣٥٠
أنت أمرؤ أو ليتني نعما	ضعــفا	٣٥٦

(ك)

لا تعجبي ياسلم من رجل	فبكـــي	١٥٣

(ل)

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	مكبــول	٣٩٣
كأن الحجيج الآن لم يقربوا مني	نعـــلا	٨٩
أماطت كساء الخز عن حر وجهها	مهـلهـلا	١١٦
شكوت من الشيب حتى ضجرت	اشـتعل	١٤٦
ولو أن الشيب رزء حلّ بي	لـم أبـل	١٤٧
خلعت القداح وعزف القيان	ابتهــالا	٣٩٤

(م)

عن أي ثغر تبتسم	تحتــكم	٣٨٤
أدخلت رأسك في الحرم	تنهـــزم	٣٨٤
سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب	الجـرائم	٤٩
على الراحتين مرة وعلى العصا	قيـامـي	١٥٢
والدهر آخره شبه بأوله	كـأيـام	١٨١
يديرونني عن سالم وأديرهم	ســالــم	٣٢٤
فما للنوى لا بارك الله في النوى	ذمـــيم	٣٧٦

(ن)

إني امرؤ لا شائني حسبي	أفـــن	٣٠
إن الثمانين – وبلغتَها	ترجمـان	١٥٦
رماني الزمان بنشابه	الركبتين	١٦٤
تزوجت اثنتين لفرط جهلي	اثنتــين	٢٣٥
أيشتمني معاوية بن حرب	لســاني	٣١٤
لا تقل بشرى ولكن بشريان	المهرجان	٣٧٤
أتيتك عاريا خلقا ثيابي	الظنـون	٣٩٦
أفيقي من ملامك ياضعينا	الأربعينا	٤٠٣

(هـ)

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها	يشـينها	٤١٥

(ي)

شاع هذا المشيب عارضا	إلـــي	١٦٧
إذا لم يكن إبل فمعزي	العصـي	٢٢٧

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السّرية ، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي ، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل ، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف عام ١٤١٤هـ كتاب « إطلالة على التراث» الجزء الأول والثاني والثالث والرابع وبين يديك الجزء الخامس .

التوزيع

تطلب الأجزاء الخمسة من كتاب « إطلالة على التراث » ، والأجزاء الخمسة من كتاب « أي بني »

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مج ٥)

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض